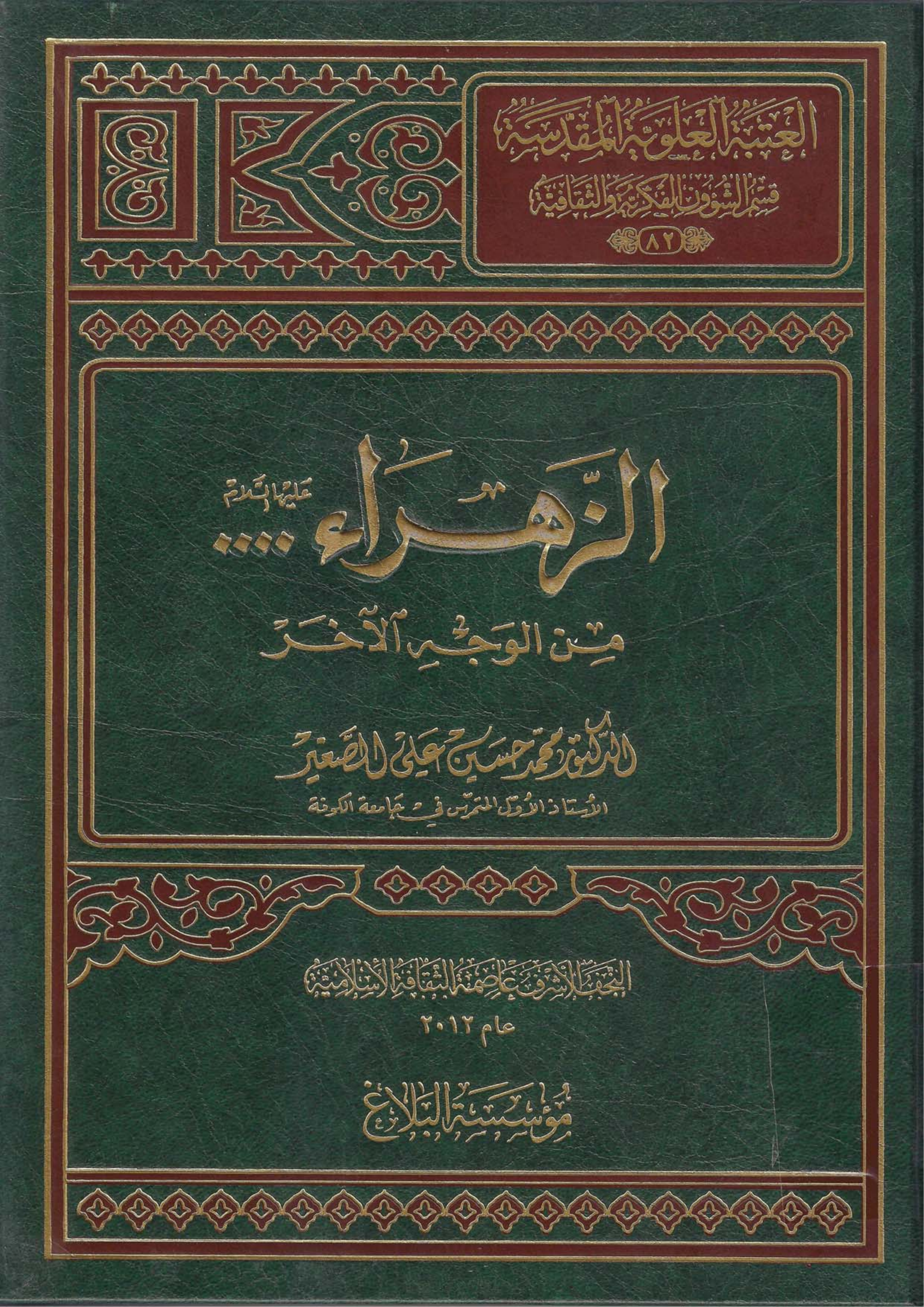
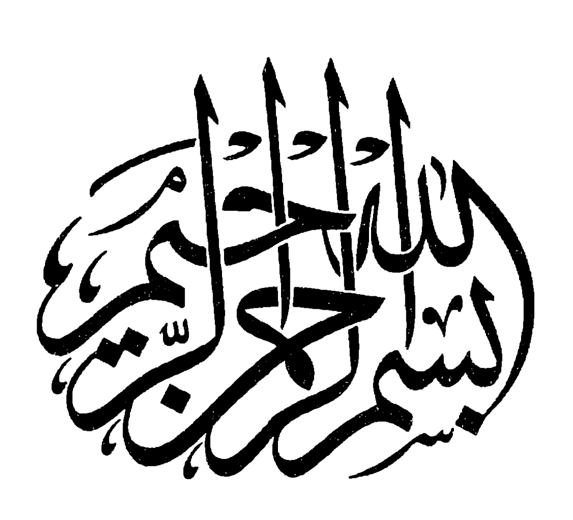

العتبة العلوية المقدسة
قسم الشؤون الفكرية والثقافية
(٨٢)
الزهراء .... عليها السلام
من الوجه الآخر
الدكتور محمد حسين علي الصغير
الأستاذ الأول المتمرس في جامعة الكوفة
النجف الأشرف عاصمة الثقافة الإسلامية
عام ٢٠١٢
مؤسسة البلاغ


شبكة الفكر
alfeker.net

الزَّهراء عليها السلام ....

مِنَ الوَجهِ الآخَر.


بسم الله الرحمن الرحيم

العتبة العلوية المقدسة
قسم الشؤون الفكرية والثقافية
(٨٢)

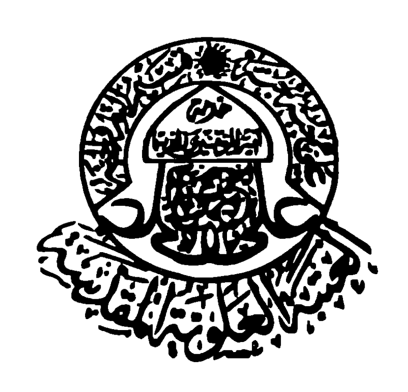
الزهراء عليها السلام ....

من الوجه الآخر

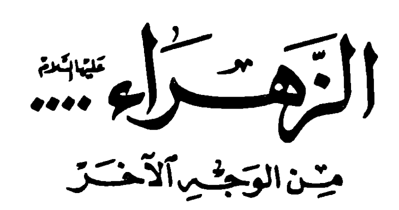
الدكتور محمد حسين علي الصغير
الأستاذ الأول المتمرس في جامعة الكوفة

النجف الأشرف عاصمة الثقافة الإسلامية
عام ٢٠١٢

مؤسسة البلاغ



www.imamali-a.net
info@imamali-a.net



المؤلف: الدكتور محمد حسين علي الصغير

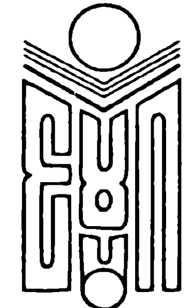
الناشر: العتبة العلوية المقدسة - قسم الشؤون الفكرية والثقافية

الإخراج الفني: محسن اليوسفي

الطبعة الأولى

تاريخ الطبع: ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

التنفيذ الطباعي



مؤسسة البلاغ
للطباعة والنشر والتوزيع

لبنان - بيروت - بئر العبد - قرب مركز التعاون الاسلامي - بناية حطيط
ص.ب: ١١-٧٩٥٢ بيروت ٢٢٥٠-١١٠٧ - هاتف: (٠٣/٥١٤٩٠٥) - تلفاكس: ٠١/٥٥٢١١٩ لبنان
الموقع الإلكتروني: www.albalagh-est.com
E-mail: Albalagh-est@hotmail.com

بسمه تعالى وبه نستعين

المقدّمة

تتفيأ الزهراء عليها السلام ظلاً وارفاً مديداً في التاريخ الحضاري للإسلام... ينبيء عن كيانها المتميّز في حياة أهل بيت النبوة عليهم السلام.. ويتحدّث عن بصماتها الإنسانية في الحقل النضالي الرفيع.. ويكشف عن القابليات الضخمة التي تتمتّع بها دون النساء.. ويشير إلى الخصائص العليا التي حُبيت بها بامتياز.. فقد نشأت في ظلّ الرسالة.. وترعرعت بمهبط الوحي.. ونهلت من معين أبيها صلى الله عليه وآله وسلم الذي لا ينضب.. فكانت النموذج الأرقى في الكمال الذاتي.. وكلّ ثناءٍ مهما تعالى فدون منزلتها.. وكلّ أثرٍ مهما انتشر فدون عطائها.. وكلّ بيانٍ صدر عنها مرتبطٌ بعصمتها التكوينية.

فما عسى أن يبتكر محرر سيرتها العطرة؟ وماذا تستطيع ريشة الفنّان من تصوير حقيقتها؟ ولها من جلالها وهيبتها وقداستها ما يجعل البليغ عاجزاً عن الإفصاح.. ويدع الفصيح متردّداً في الأداء؛ فإذا أمعنت بأصالتها في الفكر؛ وشجاعتها في القول وثباتها على المبدأ؛ وإصرارها بمراقبة الحقّ ومتابعة العدل؛ ظفرت بظواهر نادرة ملأت الدنيا وأشغلت الناس.

وقد عمّق منهج هذا الكتاب بحثه في هذه العوالم الجديدة باعتبارها قبسات لامعة تضيء الطريق بين يدي الموضوع لإماطة الحُجُبَ عن الوجه الآخر للزهراء عليها السلام أو بإبراز الزهراء من الوجه الآخر.. فقد كان الحديث منصبّاً على وجهٍ واحد فيما خاض به الأقدمون والمحدثون بشكلٍ عام إلاّ ما ندر.

وقد أكون وهو ما أرجوه قد أضفت شيئاً جديداً في هذه الدراسة يتماشى مع طبيعة العصر.. ولم أهمل ما عليه الآخرون في لغة الاحتجاج والبحث الكلامي.. بل تناوله لماماً، فلم يغفله البحث من جهة.. ولم يتمحض له من جهةٍ أخرى.. فكان مسّاً رفيقاً، وعرضاً سريعاً، لا عنتَ فيه، ولا استرسال.

وقد ركّز البحث على المستوى الإنساني المثالي لدى الزهراء عليها السلام.. وعرض إلى الكيان الذاتي لها تكويناً.. ووقف قدر المستطاع عند جهادها وجهودها في سبيل الدين الجديد، وإعلاء كلمة الله في الأرض.. وحقّق في نضالها من أجل تثبيت مبدأ الولاية الإلهية في الآفاق.. وتحدّث عن مظاهر الثبات والإصرار في إبلاغها الخطابي الحثيث.. وذهب إلى القول بأنّها تتصدّى للمعارضة سلمياً.. وتكثيفها إعلامياً.. وسيرورتها تاريخياً.. وإثارتها إسلامياً.

وعرض البحث لظلامة الزهراء بشفّافية خالصة، وصوّر أبعادها بروحٍ موضوعية.. وأكد على قضيّتها المركزية في الإمامة بنزاهةٍ تامة مواقف وتحليلاً وأسباباً ونتائج .

وكانت طبيعة الموضوع تتحدّد بمدخل بين يدي الكتاب.. أجمل القول بالوجه الآخر للزهراء.. وبثلاثة فصولٍ معمّقة.. تبعت ذلك قصائد المؤلف في رحاب سيدة النساء.

وكان الفصل الأول بعنوان ((الزهراء في ظلّ الرسالة)) واشتمل على المباحث الآتية:

١ ـ النشأة الأولى.

٢ ـ الزهراء.. والسرّ المستودع.

٣ ـ الزهراء.. أمّ أبيها.

٤ ـ الزهراء.. والتكامل الذاتي.

٥ ـ الزهراء.. والمباهلة.

٦ ـ مكانة الزهراء.

وكان الفصل الثاني بعنوان ((الزهراء في خضمّ الأحداث))، واشتمل على المباحث المعمّقة الآتية:

١ ـ انفتاح الزهراء.

٢ ـ خطبة الزهراء في المسجد النبوي.

٣ ـ تقييم خطبة الزهراء.

٤ ـ فدك والإرث وسهم ذوي القربى.

٥ ـ دعوى الزهراء.

٦ ـ صدق الزهراء.

٧- دعوى الزهراء رسالية لا مالية.

٨- الزهراء.. ومنصب الولاية الإلهية.

وكان الفصل الثالث بعنوان ((الزهراء.. تتصدّر المعارضة))، وقد اشتمل على المباحث المركّزة الآتية:

١ ـ بيت الزهراء.

٢ ـ غضب الزهراء.

٣ ـ تأثير الزهراء.

٤ ـ إصرار الزهراء.

٥ ـ نساء المهاجرين والأنصار في عيادة الزهراء.

٦ ـ صدى خطبة الزهراء في النساء.

٧- اعتزال الزهراء.

٨- الزهراء بين المرض والشهادة.

ومن ثمّ كانت قصائد المؤلّف في الزهراء عليها السلام وهي تمام البحث؛ لاشتمالها على جملة من أهدافه، وهي كالآتي:

١ ـ أنشودة الزهراء عليها السلام.

٢ ـ في مولد الزهراء سيدة النساء.

٣ ـ ميلاد الزهراء عليها السلام.

٤ ـ البضعة الزهراء بنت محمدٍ.

٥ ـ ظلامة الزهراء عليها السلام.

ومن ثمّ كانت خاتمة المطاف بأجمال ما توصل إليه البحث.

وكانت مصادر البحث ومراجعه تعتمد موسوعات علمي الرواية والدراية، وتنتظم موارد التاريخ والسيرة والموروث الثقافي، وتتنقل بين صفحات علم الاحتجاج والكلام والفلسفة والمنطق؛ وما قارب ذلك.

وكان البحث العلمي رائد هذه الدراسة في الاستنتاج ومتابعة الأفكار.. وكانت الموضوعية مَعْلَماً أساسياً في مواجهة التناقضات.. والواقعية شرطاً في اختيار الأصح من الآراء.. والمنهج التحليلي منطلقاً نزيهاً يعتمد النقد التاريخي لأحداث السياسة والاجتماع، وهفوات السلطان في ردّ الإشكاليات السائدة.. وكبح جماح الانفعال الارتجالي.

ولا أدّعي لهذا البحث الكمال، ولا أصفه بالشمولية.. وكان شرف القصد هدف الموضوع؛ فإن توافر فهو ألقٌ من شعاع الزهراء الهادي.. وعبق من نفحاتها الفيحاء.

وما توفيقي إلاّ بالله العلي العظيم، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

النجف الأشرف

محمد حسين علي الصغير

بسمه تعالى وبه نستعين

بين يدي الكتاب

لماذا يتهيّبُ هذا القلم الساحر وهو الجري المغامر أن يصوّر لمحاً من همسات الضمير؟ أو يجسّد ألقاً من إشعاع الروح الملائكي؟ ويقف حائراً بين عثرات الخطى، فما عسى أن يتنازعه من إحجام في إدراك حقائق الأشياء؟ وماذا يضيره لو أخضع الأفكار للتجربة؟ وعرض الآراء للتمحيص؟ عسى أن تصرّح بما لا يقوى عليه!.

إنّها الزهراء.. فماذا يصوّر القلم؟

أنّى يتطاول هذا الفكر المحدود للإحاطة بذلك الينبوع الثرّ من الشرف والرفعة والشموخ؟ وأنّى تتلاشى المسافات البعيدة في ارتداد من البصر إلى الإمام.. فيخطف عنصر التقريب عن كثب، فيحقّق النقد التاريخي ما يصبو إليه؟.

فقد يحاول ولا يستطيع، وقد يستطيع فلا يحيط بما يريد! إنّها الحيرة

التي تهزُّ الضمير من الأعماق، فلا يدري كيف يعبّر عن الأفكار الرازحة تحت ضغوط الآفاق التي لا تتناهى؟ وقد تصيبه الدهشة فينبهر بالتقاط تلك الشذرات النادرة في خضمّ هذا الكائن العملاق بأدقّ معاني الكلمات! إنّها الزهراء: حديث النفس، وهزّة الوعي، ومسرح الخيال، وريشة الفنان، وتأمُّل الروائي، وحيرة التاريخ!.

إنّها الصورة الصادقة للحياء والعفة والرأي الناصع! إنّها الثورة في المجابهة والإعصار في الممانعة والإبداع في التكوين! ذلك الأفق الرحيب الذي لا يتناهى.. والجوهر الفرد الذي لا يجارى، وحلبة السباق التي لا تبارى.. تحتضنه الزهراء في مناخ غاضب، وقلب جريح ثائر.. ولكنّه يترصّد هدوء الروح، وسكينة الصبر والوقار. ذلك الملاك الطاهر في رهافة الحسّ، ورقّة الحنان، وأصالة البراءة، وسموّ الذات.

إنّه ندى الفجر في الأنداء، وإشراقة الضحى في الأضواء، وخيوط الأصيل في اللمعان، وائتلاق النجوم في السّماء! إنّه سكون الليل في الحبّ الإلهي، وحلف السحر في الورد العبادي، ورمز الإخبات لربّ المشرقين وربّ المغربين، أناء الليل وأطراف النهار.

إنّه الخشوع السرمدي لملكوت الكون جبّلةً وورعاً فطرياً!.إنّه الصرخة المدويّة في زمجرة الصراع، والصوت الهادر في مقاومة التمرّد وتقاذف الأمواج.

معجمٌ حافل بالروعة والمفردات الإنسانية، وسجلٌ زاهر لا مثيل له في التضحية والفداء والبطولة، تأطّر في حلقاتٍ متماسكة الأجزاء فكانت الزهراء في ذروة الأصداء الحاكية عن الوقع الحزين المؤثر، والقمّة الصاعدة بشدو النشيد الخالد شمماً وعزّةً وكرامة.

ذلك هو الضمير النابض بالحركة والحياة الذي انطوى كأيّام الربيع الفارهة، وذوى كعمر الزهور المورقة، وتساقط كالندى من أعالي الأشجار الوارفة.

يا له من نبعٍ حالم بالصّفاء والنقاء واللطف من وجه! ويا له من منارٍ سامقٍ بالرفض والاحتجاج والتصدّي من وجه آخر!.

عالمان متقابلان اكتنفا مسيرة الزهراء الزاخرة بالهبة والعطاء! تلك النغمات الراقصة على مضض الزمن، والومضات المحرقة في لفح الهجير، والبسمات الحزينة من الثغر الشاحب، قاسمٌ مشترك أعظم إخترم أيام الزهراء بما اصطدمت به من لوعة وأسًى، وما وهبت من حباءٍ ووفاء، وما عانت من جفاءٍ وتجاهل، وما قاست من قلقٍ واضطراب!.

والعبرة تكمن بالنتائج، فالعزة هي العزة، والكرامة هي الكرامة، فلا امتهان ولا إذلال، ولا تنازل ولا إذعان، فالنهج السويّ يتعالى في خطٍّ واحد على كبرياء الجراح، والإصرار الخلاق يصارع القدر المعاكس، والفتح الأبدي

ينتصر على الظفر المؤقت، والمجد الباذخ يتبوأ الخلود في أعماق التاريخ، متخطيّاً عادية الحدث الصغير بارتقاء مدارج الثبات.

للهِ أنتِ يا فاطمة الزهراء.. وجهٌ لا كالوجوه.. ونمطٌ لا كالأنماط..، وامرأة لا كالنساء.. صيغةٌ فريدة خاصة، وأنموذج حيٌّ ناهض، نجهل عنه الكثير من الخصائص، ونقنع مع الأسف ـ باليسير من الآثار!.

وما يدرينا! فربّما اكتشف الجيل الآتي أسرار ما نجهله، وربما يطلُّ بتلك الأسرار على الوجه الآخر من تلك الحياة المكتنزة بالأحداث الثقيلة، تلك الأحداث المتجذرة بأصولها الصلبة في أعماق الوعي الإنساني النبيل!.

وماذا عسى يا سيّدتي أن نقول؟ وقد رقمت حياتك القصيرة بصفحاتٍ من نور في ضمير التاريخ النزيه قطعاً.. قطعاً.. وهي تتلألأ ما كرّ الجديدان!.

وماذا عسى أن يقال... وكلّ فخرٍ وشرف يطأطئان أمام فخرك وشرفك ومجدك وسؤددك.. فأنتِ ابنة محمّدٍ، وزوج الأنزع البطين، وأمّ سيّدي شباب أهل الجنّة، ووالدة عقيلة بني هاشم!.

وماذا عسى أن يجحدوا؟ وهل باستطاعتهم ذلك؟ وأنتِ مطلقة الصوت الهادر في مسمع الأجيال، وربّة النغم المجلجل في آذان كلّ زمان!.

أيّتها الصديقة الطاهرة.. والدوحة الزكية، والثمرة اليانعة، والزهرة

الفيحاء.. يا سيّدة نساء العالمين لك من أمجادك مالا يطاول بشأن.. ولك من آفاقك مالا ينال بارتقاء.. ولك من مزاياك ما لا يحدّ بحدود.

أنتِ بحقٍّ وصدق: سليلة النبوة، ورفيقة درب الإمامة، ونزيلة مهبط الوحي، وتربية كتاب الله، والمثل الأعلى لدين الله...

وتلك ظواهر ضخمة، وضخمةٌ جدّاً، فهي نسيج وحدها، وواسطة عقدها وقد أخذتِ بأتمِّها درجة، وحزتِ أعلاها حظوة، ونلت أشرفها منزلة.. أدبٌ في حياء، وأخلاق في سموّ، وإيثار في نماء، وتقوى في سكون، وشخصية في كمال.

وهكذا تكون البضعة المنتقاة في الشمائل الفذّة.

وثمّة وجهٌ أخر للزهراء.. الورع في السلوك، والتثبّت في الدين، والتمرّس في الإيمان والعلم بأسرار الشريعة، والتفقه بأحكام الرسالة، وإقامة السُّنن، وإحياء الفرض، ومخالفة النّفس، والثبات على المبدأ.. كلّ أولئك من مخائل عصمة الزهراء.

وثمّة وجهٌ أخر للزهراء: إعلاء كلمة الله في الأرض، والتمسُّك بالقول الثابت، ومقارعة الجور والاضطهاد ومناهضة الظلم والعدوان، ومجابهة الباطل والاستئثار، والجرأة في الحقّ، وشحذ الهمم، ورباطة الجأش وصدق العزيمة، وصلابة الموقف، ومتابعة الهدى، كلّ أولئك من دلائل الشجاعة عند الزهراء.

وثمّة وجهٌ أخر للزهراء: أداء الدور الريادي، وإحياء معالم الشرع، والذود عن حياض المسلمين، وموافقة القول للعمل، ومصادقة الرأي لليقين، والنهضة بالأمّة إلى مستوى المسؤولية، وإشعار الفرد والجماعة بما يترتّب عليهم من الأداء، وتهيئة المجتمع الإسلامي على أسس قويمة من الأعداد.. كلّ أولئك من مظاهر التخطيط الرسالي عند الزهراء.

وثمّة وجهٌ أخر للزهراء: اللين بلا ضعف، والشدّة دون عنف، والأخذ بالعفو، والأمر بالعرف، والإعراض عن الجاهلين، والاعتداد بلا زهو، وأدب الخطاب، ولطف الحديث، وعفّة اللسان، ورقّة التعامل، ورجاحة العقل، ورصانة الشكيمة، وقوّة الأسر، وصفاء السريرة؛ كلّ أولئك من مفردات أخلاق الزهراء.

وثمّة وجهٌ أخر للزهراء: تربية الأسرة، وتوجيه المرأة، والعناية بالنشء، والحثّ على العفة، والتحلّي بالحياء، وضبط النفس، وحفظ الطرف، وغضّ الصوت، والقصد في المشي، والاعتدال بالسلوك، كلّ أولئك من نفحات تربية سيّدة النساء.

وثمّة وجهٌ أخر للزهراء: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والاستمرار على الطاعة، والتسليم لدى المصيبة، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأداء الواجبات، والامتناع عن المحرّمات، والتورع عند الشبهات، وتعظيم الشعائر، وتلبية نداء المناسك.. كلّ أولئك من توجيه الزهراء.

آلا تنهض هذه الظواهر الكبرى أن تكون الوجه الآخر للزهراء؟ ذلك الوجه المشرق الذي لم يبحث إلاّ لماماً، والحديث الناطق الذي لك يكتشف، والصفحة العريضة التي لم تقرأ حقّ قراءتها.

عسى أن ينهدَ هذا الكتاب بجزءٍ مهمٍّ أو يسير قدر المستطاع بالتقاط هذه الشذرات، فإنّ كان ذلك فهو قبسٌ من بهاء الزهراء الذي لا يخبو، وألقٌ من عبقها الفوّاح، ورشحةٌ من فيضها الذي لا ينضب.

سائلين المولى عزّ وجل أن يكون عملنا خالصاً لوجهه الكريم، وتقرُّباً لرسوله الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم ومناصرة ومتابعة لسيدة النساء عليها السلام.

وما توفيقي إلاّ بالله العليّ العظيم، عليه توكلت وإليه أنيب، وهو حسبنا، ونعم الوكيل.

الفصل الأول

الزهراء في ظلّ الرسالة

١ ــ النشأة الأولى.

٢ ــ الزهراء.. والسرّ المستودع.

٣ ــ الزهراء.. أمّ أبيها.

٤ ــ الزهراء.. والتكامل الذاتي.

٥ ــ الزهراء.. والمباهلة.

٦ ــ مكانة الزهراء.

النشأة الأولى

بعد سنواتٍ خمس من البعثة النبوية المباركة، كانت ولادة هذا الكوكب الدريّ الهادي: فاطمة بنت محمد بن عبد الله رسول الله ﷺ وذلك في العشرين من جمادى الأولى[1].

وعمّت البهجة بيت النبوة، ومختلف الملائكة، واحتفى رسول الله ﷺ، وأمّ المؤمنين خديجة ؓا بهذا الوليد الجديد بما يتناسب والأهمية الكبرى التي تنتظر هذا الوليد الضخم بما سيظهره مستقبل الأجيال. وهو بعد الذي سيتكفّل استمرار الذرية الطاهرة للرسول الأعظم ﷺ وهكذا كان.

وهو قَدَرٌ ذو شأن عظيم في مسيرة الرسالة الجديدة التي بعث بها منقذ الإنسانية محمد ﷺ .

وبهذا القدر الشامخ ستنتشر أعلام الهداية خفّاقةً، ويغمر النور الجزيرة العربية خاصةً، ويتدرّج بالنماء والازدهار؛ ليشمل العالم عامةً في يومٍ ما!.

(١) ظ، الكليني، الكافي: ١/٤٥٧هـ، والإربلي، كشف الغمّة: ٢/٧٥، والديار بكري، تاريخ الخميس: ١/٢٧٨، والشيخ المفيد، الأمالي، والطبري، أحمد بن عبد الله، ذخائر العقبى: ٥٢، والمجلسي، بحار الأنوار: ٤٣/١٠١.

الفرحة إذن مزدوجة الأبعاد في وحدة من الإنجاب تتكامل في تحقيق الأهداف الرسالية في آنٍ واحد.

واحتلت الزهراء قمّة الهرم في الحبّ الخالص، والعطف الأبوي الفيّاض، وانفردت بالتقدير الفائق في شذرات لامعةٍ من أحاديث الرسول الأعظم ﷺ كما سترى ذلك.

وكانت الزهراء عليها السلام في المستوى الأرقى من تلك الأحاديث اصطفاءً واستحقاقاً ومنزلةً واجتباءً، وارتفعت بموضوعيتها عن العاطفة المجرّدة، وتباعدت عن الإحساس بالمداراة شان الآباء مع الأبناء، وإنّما هو الإيحاء المرتبط بكيانٍ محدّد في منزلة خاصة ستتجلّى آثارها قطعاً بعد حين.

هذا الإيحاء الرفيع يعبّر في إشارة دقيقة بتلاحم هذا الوليد مع أبيه في شؤونٍ مستقبلية خطيرة، لم يقدّر لغيره أن يحتلها في اندماجٍ روحي تام لا يمكن الفصل بين ركنيه في حالٍ من الأحوال؛ وهو تعبيرٌ ثانٍ عن الإجلال والإكبار حاليّاً ومستقبلياً، لتكون الفطرة لهذا الوليد نظرة شمولية غير خاضعة للاستثناء في شيءً ما لأنّها استثناء فوق العادة؛ ولعلّ السرّ في هذا وذاك توطيد الأرضية الصالحة في نظر عقلي بعيد المدى لهذا الوليد في المكانة ذات القيمة والأهمية التي يومي إليها الرسول الأعظم ﷺ لئلاّ يجرأ أحدٌ فيما بعد على النيل منه، أو الاستهانة به، أو الاعتداء عليه، أو المضايقة له في شيءٍ ما مهما ضؤل وصغر، وذلك من مخائل النبوة دون أدنى شكٍّ، فالنبيّ ينظر بنور

الله، وهو يقرأ لمح الغيب من قريب وبعيد، يقول النبيّ ﷺ: «**وأمّا ابنتي فاطمة: فإنّها سيّدة نساء العالمين من الأولين والآخرين.. وهي بضعةٌ منّي، وهي نور عيني.. وهي ثمرة فؤادي، وهي روحي التي بين جنبي، وهي الحوراء الإنسية**»[١].

وهذا الحديث جامعٌ مانع كما يقول أهل المنطق الأرسطي، فقد صرّح بأنّها سيّدة نساء العالمين، وهذا من خصائصها، وأبان موقعها منه بين الروح والجسد والجوارح، وأنّها الحوراء....

وفي هذا الضوء نجدها قطعةً من توجيهه المشرق، ونفحة من عبيره الفوّاح، ومسحةً من النور الإلهي، وفيضاً من الوحي السماوي، وصورة متألّقة السمات عن الرسول العربي الكريم في الخلق والاستواء والتشابه حتّى قالت عائشة: ((ما رأيتُ أحداً كان أشبه كلاماً وحديثاً برسول الله ﷺ من فاطمة، وكانت إذا دخلت عليه، قام إليها فقبّلها ورحّب بها كما كانت تصنع هي))[٢].

وكانت بيئة قريش، ومناخ جزيرة العرب بعامة، لا يريان للمرأة وزناً، ولا يجدان لها أهمية، بل وليس لها الحقّ في الوجود والبقاء على قيد الحياة، وإنّما يدسُّ بها في التراب، قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾[٣].

---

(١) الصدوق، الأمالي: ١٧٥، نشر مؤسسة البعثة.
(٢) ابن عبد البر، الاستيعاب: ٤/٣٧٧.
(٣) سورة التكوير: ٨- ٩.

وإذا بوليدة هذا البيت في ذروة الاعتزاز وأوج الاعتداد، والعرب تنظر صنيع رسول الله ﷺ في الاحتفاء الرفيع بابنته، فتتملكها الدهشة حيناً، والعجب الشديد حيناً آخر، فهو أمرٌ مستغرب إن لم يكن مستهجناً في أعرافهم الجاهلية، لا تطيقه مداركهم، ولا تبلوه شمائلهم ، فهم في وادٍ، وهذا الاعتناء بوادٍ آخر.

ويا لها من مفارقةٍ تتقابل في مفترق الطرق، ولا تلتقي في معايير القياس، فهم كما صوّر وضعهم النفسي القرآن العظيم: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾[1].

وإذا بالرسول الأعظم ﷺ وهو الصادق الأمين يقول: «**فاطمة بضعةٌ منّي، فمن أغضبها فقد أغضبني**»[2].

فوجئت قريش بهذا المنظور الجديد للمرأة، والمرأة عندهم لا تساوي شيئاً، ولكنّ هذه المرأة بضعةٌ من أبيها، يغضبه ما يغضبها، وهي روحه التي بين جنبيه!.

أعراف جديدة صكوا بسماعها، وتكريمٍ حافل اصطدموا بواقعه، فصمت من صمت على أحرّ من الجمر، وأسرّ الباقون النجوى وهم ناقمون! على أنّ روح الجاهلية بقيت كما هي عند العديد الأكثر، فلم تخمد.

(١) سورة النحل: ٥٨-٥٩.

(٢) البخاري، صحيح البخاري: ٤/ ٢١٠.

وتزوّج أمير المؤمنين بالزهراء، وتكاملت الصورة الرائعة بهذا الزواج الميمون في السنة الثانية من الهجرة، فكانت الزهراء كفؤاً لأمير المؤمنين، وكان أمير المؤمنين كفؤاً للزهراء، والتقى النّيّران، وكان زواجاً هادئاً تشمله البساطة من وجهٍ، والسعادة من وجهٍ آخر، كما سيأتي.

وأنجبت الزهراء بكرها الأول الإمام الحسن عليه السلام في السنة الثالثة من الهجرة، ورزقت بالإمام الحسين في السنة الرابعة منها، وتلألأ البيت المتواضع بعقيلتين هما: زينب الكبرى، وزينب الصغرى (أم كلثوم)، وتحدّر النسل المبارك من الأئمة المعصومين من ذرية الإمام الحسين حتّى المهدي المنتظر عجّل الله فرجه الشريف فكان ذلك مصداقاً للكوثر الذي أعطي رسول الله، بعد أن وسم من قريش بأنّه: أبتر لا عقب له، فأنزل الله قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾[1].

وها هي ذرية رسول الله صلى الله عليه وآله تعدُّ بعشرات الملايين في مشارق الأرض ومغاربها، ومن علي وفاطمة، وكفى.

وفي رحاب المدينة المنوّرة تكوّن هذا البيت الكريم من عائلة صبور، تعيش الكفاف، وترضى بسدِّ الرمق، وتكابد جشوبة العيش، ومكاره الدّهر! فما خُلِقَ أمير المؤمنين لتخيّر الأطعمة، وانتقاء الجفان، وما خُلِقَت الزهراء لتفكّر بالحرير والذهب، وما كان للحسن والحسين أن يحتفلا بنعيمٍ زائل، وما كان لهذا البيت أن ينعطف حول الدُّنيا.

(١) سورة الكوثر: ١ ـ ٣.

حراك من الزهد لا يفتر، وكفاحٌ من التقشّف لا يهدأ، وقناعة بما قلّ وأغنى لا مثيل لها.

لقد وجدت هذه الصفوة المختارة لرسالة أعمق، وحياة جهادية أرسخ، ولكلّ منهم أثره المتميّز في إرساء قواعد الدين الجديد، بما ألمحنا لطائفةٍ من أضوائه في سلسلةٍ من كتبنا: ((موسوعة أهل البيت الحضارية))[١].

هؤلاء مع الزهراء قادة الأمّة، وحماة الوحي، وأمناء الله على شريعته، وحجّته على عبادة، وحسبهم في ذلك ما نوّه به الرسول الأعظم ﷺ في مواطن عديدة، تفوق تصوّر الرتل الخامس المتربص بالنبي وآله، فقد ورد عنه ﷺ أنّه قال: «**إنّ علياً وصيّ وخليفتي، وزوجته سيّدة نساء العالمين ابنتي، والحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنّة ولداي. من والهم فقد والاني، ومن عاداهم فقد عاداني، ومن ناوأهم فقد ناوأني، ومن جفاهم فقد جفاني، ومن برّهم فقد برّني. وصل الله من وصلهم، وقطع الله من قطعهم، ونصر الله من أعانهم، وخذل من خذلهم؛ اللهم من كان له من ثقل وأهل بيت؛ فعليٌّ وفاطمة والحسن والحسين أهل بيتي وثقلي، فاذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيرا، يا ربّ العالمين**»[٢].

---

(١) صدرت هذه الموسوعة في ثلاثة عشر مجلداً، نشرت مؤسسة العارف منها خمسة مجلدات، بيروت، ٢٠٠٢م، وأصدرت مؤسسة البلاغ المجلدات الأخر تباعاً، بيروت، ٢٠٠٤ ــ ٢٠٠٩م.

(٢) الصدوق، من لا يحضره الفقيه: ٤/ ٤٢٠.

وكانت آية التطهير ناطقة بذلك: ﴿ ... إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾[1].

ومن هذا الأفق الرحب انبعثت الزهراء ملاكاً طاهراً في العفّة والشرف والإباء، ربيبة وحي، وخدينة إمامة، تتلقى الكرامة من منهلين عذبين، وتتغذى الشهامة من نبعين صافيين: عزّة نفسٍ، وصلابة رأي، وقوّة أسرٍ، وعراقة أصل حبك لها الشرف الشامخ بين النبي والوصي ـ صلوات الله عليهما ـ؛ ومشى نحوها الإنجاب بالحسن والحسين عليهما السلام فحَسَرَتْ عن وجهٍ كالمرآة صفاءً، وتنهدت عن قلبٍ بالبراءة حافلاً، وبالإيمان عامراً.

بلغ بها حبّ أبيها درجة الإيثار، وحبّ زوجها درجة الفداء، وحبّ ولديها مرتبة الشغف، فعاشت حياة حبّ رهيف تأصّلت جذوره، وتشابكت أغصانه، وأينعت ثماره، فعاد متين الصلّة، عميق النزعة، إنساني العائدية.

وهكذا يكون الحبّ المتبادل جذوة من المشاعر لا تخبو، ونفحة من الضمائر تنبضُ بالشفقة والألفة والتواصل.

حبٌّ لا يدانيه حبّ.. وعطف لا يضارعه عطف.. والتقاء روحي في شحنات من الدفء والحنان.

ولم تكن هذه الحياة الحرّة الرقيقة إلاّ تعبيراً مثالياً عن تلك النفوس المثالية

(١) سورة الأحزاب: ٣٣.

التي اكتفت بجشوبة العيش، وخشونة الملبس، وبساطة المقتنيات، مشاركة لبني الإنسان في الشدّة والحرج.

ولو دقّقت النظر فيما أعدّ لإغاثة هذه الأسرة الملكوتية في مواصفات القوت اليومي، والمدّخر المنزلي لوجدته بكلّ تواضعٍ: عدّة أقراص من خبز الشعير! تطحنه وتعجنه وتخبزه ربّة البيت.. قبضة من التمر في أحسن الأحوال لدى التوسُّع في الطعام والإطعام.. وإذا توفرت جرعة من لبن؛ فذلك غاية ما يطمح له أهل هذا البيت.. أمّا جريش الملح فهو الرفيق الملازم لهذه المائدة.. فهو رفيقٌ لا كلفة معه، ولا مغالاة في ثمنه.

وقد كان هذا التوجّه إنجازاً اقتصادياً ضخماً في حياة المواساة الاجتماعية، وضرباً من ضروب القناعة الخالصة بما يسدّ الرمق لا أكثر ولا أقلّ، وقد يصاحب ذلك شدّ حجر المجاعة! أمّا محتويات بيت علي والزهراء، فقد صورها أخي العلامة الشيخ عبد المنعم الفرطوسي في قصيدته التي ألقيت في الإيوان الذهبي من حضرة مولانا أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام لدى افتتاح أوّل باب ذهبي لضريح الإمام علي عليه السلام في عام ١٣٧٤هـ ـ ١٩٥٤م، وكنتُ حاضراً في ذلك المهرجان، وكانت القصيدة رائعة بحقّ، ومطلعها:

نشيدي، وأنتَ لهُ مطلعُ من الشّمسِ يعنُو لهُ مطلعُ

يقول فيما نحن بصدده مخاطباً أمير المؤمنين:

وبيتك وهو بسيط بما حَوَتْهُ جوانبُهُ الأربعُ

فــزاويــةٌ مـنـه فـيـهـا الحصير إلى جَـنْـبِـهِ جــرّةٌ تُـوضـعُ
وأخــرى بها من جريد النخيل سـريـرٌ قـوائـمُـهُ تُـرفـعُ
وآنـيـةُ الـطـين وهـي الـكـؤوس وفي كـفّ مـالـكـها تصنعُ
وتـلـك رحًـى مجـلـت راحـةٌ لطحنِ الشّعير بها تسرعُ
كـأنّ الـتـواضـعَ فيما حـواهُ شـعـارٌ بـهِ كـلُّـهُ يخشعُ
وحـقّـاً بـأنّ مـعـادَ الخـلـود إلى الحـقّ مـبـدؤُهُ يـرجـعُ
فبالكوخ شيّدَ هـذا الضّريح بحيثُ الضُّراح له يخضعُ
ومن ظلمةِ الكوخِ هذي الجنان مصابيح فردوسها تسطعُ
وإنّ خشـونـةَ ذاك النّسيج لـهـذا الحـريـر هـيَ المصنعُ

* * *

حـيـاتُـكَ.. وهـيَ حياة الفقير يـحـيـطُ بـه فـقـرُهُ المـدقـعُ
وقـوتُـكَ قـرص الشّعير الـذي تـسـدّ بـه الـرمـقَ الجُـوّعُ
وكـلُّ أدامـك بـعـد المخيض جريشٌ مـن الملح لا يجرعُ
ومـدرعـةُ الـصُّـوف، وهـي النّسيج وفي كـلِّ آونـةٍ ترقعُ
ومن جنسِ هذا النتاجُ الشريف أزار الـزكـيـة والـبرقـعُ
وهاتيكَ عقباك، وهـي الخلود وعقبى سـواك هـيَ البلقعُ
هـو الـعـدلُ إنّ الأصـول التي على العدلِ تغرسُ.. لا تقطعُ

هذا هو نظام أهل هذا البيت في المطعم والمسكن والملبس، قدوة حسنة لأهل الإسلام.. لو اقتدوا بها، ونهجوا نهجها.

فلا تعجب أن يروي نافع بن أبي الحمراء قائلاً[١]: ((شهدت رسول الله ﷺ ثمانية أشهر، إذا خرج إلى صلاة الغداة مرّ بباب فاطمة عليها السلام، فقال: **السلام عليكم يا أهل البيت ورحمة الله وبركاته.. الصلاة** ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[٢].

وكان هذا التوجّه تأكيداً من الرسول الأعظم على حرمة أهل هذا البيت عليهم السلام وأنّهم المعنيُّون بآية التطهير؛ ليكون بعد ذلك القول مقترناً بالعمل، والاعتزاز رعاية للحرمة، فقد روي بعدّة طرق أنّ النبيّ ﷺ كان لا يغادر المدينة إلى سفرٍ إلاّ وقصد هذا البيت؛ لتوديع الزهراء، وإذا رجع من السّفر كان أوّل مروره ببيت الزّهراء سلاماً وتعاهداً[٣].

هذا التلاحم الأسري نتيجة منطقية للتلاحم الرسالي الذي أرخى بذوائبه الذهبية على الزهراء وبعلها وبنيها، فتكافأت الفرص التكريمية، في كلّ منتدى ومحفل.

وانبلج الفجر عن خلاصة الكون، ففي كلّ ركنٍ من زوايا هذا البيت

(١) الإربلي، كشف الغمّة: ٢/٨٤.

(٢) سورة الأحزاب: ٣٣.

(٣) ظ، الإربلي، كشف الغمّة: ٢/٧٩.

عواطف كالنمير العذب، وشمائل كالسّحاب الممطر، وخواطر ثرّة تجيش بالبراءة والشوق المتبادل، فالرؤى متقاربة، والخلائق متجاذبة.. عليٌّ والزهراء.. يا لهُ من نغمٍ حالم، ولمح مزدهر، يظلله رسول الله ﷺ في عرائش وارفة، وأغصان متدلية.

وانبعثت الآمال في قلب الزهراء الكبير.. وتطلّعت وراء الأفق البعيد عن قرب.. ولحظته عن وعي وإدراك كاملين: عسى أن تجد السبيل معبّداً بين يديها؛ لتحقيق الرسالة، وانتصار القضية الكبرى فيما هو آتٍ من الزمان.

لم يكن هذا التصوّر نتاجاً لخيالٍ سارب، إنّه لمحٌ من غيب في لحظةٍ زمنية معينة تكشف عن شفق مستقبلي من المصير في معركته الفاصلة في تطلعات إيحائية تدلُّ على صدق ابنةِ محمد ﷺ.

وعوداً على بدء، فقد عاشت الزهراء ونشأت وترعرت ((تحت ظلّين: ظلّ أبيها، وظلّ حليلها، وعانقت ريحانتين: الحسن والحسين ذريّة لرجلين: نبيّ وإمام، وعانقت رهافتين: رهافة الجسم ورهافة الحسّ، واختبرت عصرين: عصر الجاهلية وعصر الانبعاث، وأحبّت أباها حبّين: حبّ النبوة وحبّ الأمومة، وصهرت بصهرين: صهر الفقدان، وصهر الحرمان[١].

هكذا كانت الزهراء تتجاذب الشّرف من طرفيه، وتتفيأ أفنان العزّة من جهتين، وتتمرّس حياة العزم والتضحية من قوّتين متماسكتين، وتخوض

(١) سليمان كتاني، الزهراء وَتَر في غمد: ٥٦.

غمار الحياة في تيّارين متجاذبين، يربطهما المصير الواحد المشترك، وتشدّهما عوالم الجهاد الصعبة، ونجم عن هذا ما أيقظ المشرقين من الغفوة، ونبّههما من الغفلة.

إباءٌ في شمم، وانبساطٌ في حذر، وانقباضٌ في عنفوان، ومراسٌ في تحفّز، ورفضٌ في ترقّب، عسى أن تمنع الانحدار في الهاوية، أو الوقوف على شفا الانهيار.

وتتابع الأيام فيما بعد لدى وفاة أبيها ﷺ الذي تضمّخت بطيب قارورته، وتنسّمت الرحمة والرأفة في أنفاسه، وتنفّست الروحاء من أشذائه؛ لتصطدم في صميم الأحداث الجديدة، بجنانٍ ثابت يتقاسمه الكمدُ من جانبٍ، والثورة المضادة من جانبٍ آخر، وبهما يكلّلُ مفرقها الغار.

الزهراء.. والسرّ المستودع

لا ضجيج من الثناء، ولا هدير من التعظيم، فالزهراء أسمى من هذا وذاك.. فرعٌ يتدلّى من المجد المؤثل.. وسموٌّ يتعالى من الشرف الرفيع.. فهي من رسول الله ﷺ بمنزلة الروح من الجسد، قلبه النابض بالأصالة، وفكره الصادع بالرسالة، إن نطقت أفرغت عن منطقه العذب، وإن مشت حكت كريم قوامه الرشيق، وإن خطبت جارت بلاغته وهو أفصح العرب، وإن سئلت تحدّرت عن علمٍ غزيرة غذّته شجرة الوحي الإلهي، وإن تحدّثت بدا جميل القول، وتجلّت نزاهة الخطاب تصدّع بالحق الصراح وإن عزّ قائله، وتلهج بالصدق وإن ندر فاعله عليها سيماء القانتات الصالحات في السلوك العرفاني، ولها مناجاة المتهجدات في الليل البهيم.

قُدِرَ للزهراء أن تمتحن فأفرغت آهات القلب الكسير بنفثاتٍ من عزم، ونفحاتٍ من صبرٍ عظيم، وعبّرت عن وجدها المقدّس باستيعاب الأحداث المرّة، كاظمة للغيظ حيناً، وماسكةً للغضب الخلاّق حيناً آخر.

لا أريد في الحديث عن الماضي السّحيق أن أعيد مآسي التاريخ، ولا أبوح فيه بشيءٍ من نزيف العبرات، فلا جديد بذلك فيما جرى على الزهراء،

فتلك أيّامٌ خلت تناولها الأعلام بالبحث العلمي، والجدل المضني، فبين واثق متأكد، وبين واجم متحسّر، وبين متحيّر متردّد.

وماذا على الزهراء من صراع الآراء في قضيّتها، وماذا يضيرها من تضارب الاحتمالات في ظلامتها، وقد تحدّثت بنفسها عن نفسها، وأفصحت عن موجدتها بلسانها، وأسلمت وجهها لله فكانت من المحسنين ناظرةً في ذلك، قوله تعالى﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾[1].

فكم من عبرةٍ قد خنقت أنفاسها، وكم من زفرةٍ قد حبست آهاتها، وكم من لاعجٍ في صدرها لم تجد إلى بثّه سبيلاً.

وهذا هو الوجه المرير المعاكس الذي كابدته الزهراء في أطاريح العصر الطائشة.

وفي قبال هذا الوجه المأساوي هنالك الوجه الآخر للزهراء في شعلة إنسانية متوهجة، تقرؤها سافرة في صفحة غرّاء من الماضي العريق بألق النبوة، وتستافها باقةً معطاراً من عبير الإمامة، وشذا الإيمان.

هذا المناخ المتضوّع بأنداء الزهراء الذكية يوحي بطائفةٍ كبيرة من مميزات تراثها الزاخر بالعطاء، فلديها الصفوة من الموروث الحضاري المتنوّر بالآراء

---

(١) سورة لقمان: ٢٢.

المتفتّحة على العالم أجمع، وبحوزتها أسرار الرسالة بأدّق معاني هذه الأسرار، وذلك ما يفصح عن مخزون ثقافي هائل قد لا تحيط به مداركنا حصراً.. ولكنّه يرسم لوحة زرقاء صافية من الفيض المعرفي المتدفّق.. ذلك الفيض المتلاطم في أمواج هادئة تمرّ بنا مرّ النّسيم النقي يوحي بما لا يوحي سواه من الهبات الإنسانية المثلى.. فهو يحتضن الجيل الناهض في كلّ زمانٍ ومكان؛ لأداء المهمّات الرسالية.. ويدفع بالشباب المتحفّز لاستثمار حياته العقائدية، وهو يرعى المشاعر المتحرّرة من الذل والهوان والعبودية.. وهو يصوّر النموذج الأرقى للإسلام في العزّة والتضحية والفداء.

هذا لمحٌ من الوجه الآخر للزهراء، فإذا أضفنا له وجهاً آخر.. نجدها قد شاركت أمير المؤمنين علياً في إحياء الأمّة وخلق الأجيال.. ونحسبها قد شاطرت الحسن والحسين في التخطيط والثورة.. ونلمسها قد مهدّت السبيل أمام عقيلة بني هاشم في الإقدام العظيم.

وهناك وجهٌ آخر.. فقد حملت الثقل الأكبر من الأعباء إلى جنب أمير المؤمنين حيث زلّت الأقدام وناءت الكواهل وتعثّرت الخطى.

وهنالك من الوجوه ما لم نقف على كنه معرفته.. ومما لم يصل إلينا نبأه.. وما يدرينا بحقيقة تلك الحقيقة الكبرى.. وأمامنا السرّ المستودّع في الزهراء.. وهو سرمدي المغزى أبديّ الدلالة، صعب المنال.. فقد ورد عن بعض العارفين القول: ((اللهمّ إنّي أسألك بالزهراء وأبيها، وبعلها وبنيها،

والسرّ المستودع فيها.. أن تصلّي على محمّدٍ وآل محمد، وأن تفعل بي ما أنت أهله، ولا تفعل بي ما أنا أهله))(١).

يا لها من محطّةٍ حرجة مذهلة.. قد تقف دونها الألباب حائرة والأفكار متطلّعة.. خصوصية لا يعتمد أمامها التحليل ولا التعليل.

هذا هو سرّ العظمة في تلك الذات القدسية.. وهنا تخشع العقول والأبصار، وربّما تبقى أعنّة التأمّل والتفكير الدقيق قاصرةً.. فنحن بين يدي نصٍّ طريف قد يدعو إلى الدهشة، وقد يثير التساؤل.. ولكنّه يطلُّ بنا من رابية عالية على مأثورٍ ضخمٍ في واقع الزهراء المنطلق من أعماق السيرة الذاتية لقادة البشرية والإسلام بما لا يحتاج إلى دلائل في الإثبات، فله منه عليه شواهد وبراهين طالما نوّرت جبين الدّهر.

وصيغة هذا الأثر تتذرّع متوسّلة إلى الله بالأركان الخمسة: الرسول الأعظم / أمير المؤمنين / الزهراء / الذريّة الطاهرة / السرّ المستودّع، وقد أشرنا إشارة عابرة إلى ما هية ابتغاء الوسيلة إلى الله بهذه الأركان الخمسة تلميحاً إلى قبس كاشف من ذلك الشّعاع الهادي؛ لنستلهم هذا السرّ المستودع المقترن بمحمد وعلي والزهراء والمعصومين من أبنائها صلوات الله عليهم -.

أين يكمن هذا السرّ؟ وما حقيقة هذا السرّ؟ السرّ كان لدى الزهراء..

(١) ظ، جواد الفيومي، صحيفة الزهراء: ٣٠٤، ومحمد فاضل المسعودي، الأسرار الفاطمية: ١٨، علي الكوراني، الحقّ المبين: ٢٦١، ٣٠٢، ٣١٢، وذكر أنّه دعاء الإمام

ومستودع بساحتها الفسيحة وعالمها الخاص؛ ولذلك مصاديق كثيرة نجهل بعضها، ونعرف الآخر...

ولعلّ من أبرز المصاديق لهذا السرّ الرفيع ذريتها المباركة المتمثلة بالحسن والحسين والأئمة المعصومين من سلالة الحسين عليهم الصلاة والسلام أجمعين ولا يتعدّاهم هذا المصطلح عند المسلمين، ولا يشمل سواهم في التكاثر والتناسل.. وإلاّ فذريتها تعدّ بالملايين مع تداول وتطاول الأزمنة، وتعاقب الأجيال..بل التأكيد جارٍ دون أدنى شكٍّ على القادة منهم إلى الله، والدعاة إلى سبيله خاصة دون العموم.. وهم المعصومون الأربعة عشر حصراً.. وهذا هو منطوق الروايات الصحيحة متناً وسنداً، وهذا هو المتبادر إلى الذهن في كلّ روايات النبيّ وأهل بيته تصريحاً وتلميحاً وإشارةً بحسب أحوال المقال، فلا يُقسم في هذا الموقع إلاّ بهم.. ولا تبتغى الوسيلة إليه إلاّ فيهم.. وذلك مصداق جلي للآية الكريمة: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَـٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[1].

إنّهم خلاصة الكون، وعصارة مخاض العالم، ولا يقسم عليه إلاّ بمن تنزّه عن العيوب والذنوب، وتجاوز مرحلة الخطأ والزلل في خطاه الثابتة على النهج المستقيم، مما يشكّل مفهوم العصمة. وذلك أنّهم لم يظلموا

أنفسهم ولا غيرهم بشائبة قطّ طيلة أعمارهم، ولم يذكر ولا ادّعى أحد

(١) سورة المائدة: ٣٥.

المعنيين بالسيرة والرجال والرواية وأئمة الحديث أنّ أحداً منهم تجاوز الشريعة لحظةً زمنية واحدة، وهذا هو مفهوم العصمة المتمثل بالإمام المفترض الطاعة، والذي له الولاية الإلهية في نظر القرآن.. ورشحات أهل البيت بما استحقّوا من ذلك تبعاً لأبيهم أمير المؤمنين، وبالنصّ المتواتر عليهم أجمعين.

وقد أجمع المسلمون أنّ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾[1].

قد نزل في شأن أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام حينما تصدّق بخاتمه الشريف على السائل، وهو في الصلاة، وأسباب النزول تشير إلى ذلك بصدق وأمانة وتواتر القول بذلك يؤكّد هذه الحقيقة؛ ليتحقق الوعد الإلهي لأبيهم إبراهيم عليه السلام في جعل الإمامة في ذريته، قال تعالى حاكياً ذلك: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[2].

إذن الإمامة عهد الله، وعهد الله لا يعطى لظالمٍ قطُّ، أنّى كانت أبعاد ذلك الظلم، والإمامة على هذا منصبٌ إلهيٌ بنصّ الذكر الحكيم، وهذا المنصب بولايته الكونية لا ينال الظالمين لأنفسهم ولغيرهم، وهكذا قرّر القرآن.

---

(١) سورة المائدة: ٥٥ ـ ٥٦.

(٢) سورة البقرة: ١٢٤.

والاستقراء التاريخي لمسيرة أئمة أهل البيت عليهم السلام يدلُّ على تنزيههم عن الظلم النفسي، والظلم الغيري بأشكاله كافةً، فهم المعنيّون في خطّهم الإلهي بالإمامة، والنصّ القرآني لا يستثني منهم أحداً، ولا يضيف إليهم أحداً، وهم دعوة إبراهيم عليه السلام المستجابة في ذريته، ولذريته المخصوصة، ولا سبيل عقلاً أن يدعو إبراهيم لكلّ ذريته، فمن ذريته المشرك والوثني والمرتدّ، وليس بالإمكان التجريبي أن يدعو لهم جميعاً بل إلى بعضهم بدلالة ((ومن ذريّتي)) فمن للتبعيض قطعاً، فالدعاء على هذا مبرمج بدقّة وحذر مشيراً فيه إلى صفوة معينة يقصد إليها إبراهيم، وتلك الصفوة تعنى في أصحّ النصوص والروايات بالناهضين بثقل الولاية الإلهية والقائمين على إمامة الناس، والتي لها ما بعدها يوم الدين، وذلك قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْلَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾[1].

والإمامة تلك هي المشروطة بالعصمة المطلقة، والتنزيه عن الصغائر والكبائر؛ وهذا الشرط الاحترازي غير محقّق في ضوء النقد الموضوعي للمنهج التاريخي إلاّ بأئمّة أهل البيت عليهم السلام دون سواهم، ومؤدّى ذلك توافر العصمة تكويناً في كلّ إمامٍ، وهو ما عليه أئمة أهل البيت، إذ لم يحدّثنا التاريخ وهو معادٍ في صفته الرسمية أن أحدهم قد ارتكب مخالفةً للإسلام قيد أنملةٍ، ولا اقترف ذنباً قلامة ظفر، ولا تعدّى حدود الله مثقال ذرّة.. وليس ذلك أمراً اعتباطياً، ولكنّه أمرٌ منظور إليه في أصل أساسي من أصول الإسلام الثابتة

(١) سورة الإسراء:٧١.

غير المتحوّلة وهو الإمامة بمعناها القرآني الدقيق والاصطلاحي المتعارف عليه؛ لتكون لله الحجة البالغة على الناس حينما تؤدّي الرسالة على سجيّتها الأولى، ولا يتوافر هذا الأداء المتكامل إلاّ بتوافر الشرائط المنصوص عليها في المبلّغ والمؤدّي لرسالة الإسلام. . فما اتفق ـ ولا مرّة واحدة أن سئل أحد الأئمة عليهم السلام عن مسألة ما مهما كانت غامضة أو مبهمة أو خطيرة، فاعتذر عن الإجابة، ولا أجاب إمام إلاّ بالحق والصواب؛ والأهم من هذا أنّ جواب كلّ سؤال كان حاضراً وعتيداً وعلى الفور، فما اتفق ـ ولا مرّة واحدة أن أجلّ أحد الأئمة أي جواب إلى دقيقة زمنية، وهذا وحده دليل ثاقب على أنّهم أعلم الناس. . .

وإذا أمعنا النظر في هذا الملحظ فإنّنا نقف عند ظاهرة فريدة في منهج الأئمة العلمي، فهم لم يدرسوا عند أحد من الشيوخ والأساتيذ، بل تداولوا علمهم فيما بينهم دراية من عندهم، أو رواية عن آبائهم، وهذا أمرٌ شائع ومعروف للقاصي والداني، يضاف إليه مئات الحجج العقلية والنقلية كما في إمامة الإمام محمد الجواد عليه السلام فقد تقلّد هذا المنصب في السابعة من عمره إجماعاً وإمامة الإمام علي الهادي عليه السلام وقد تقلّد المنصب في الثامنة من عمره إجماعاً. . فما عجزا عن جوابٍ قطّ. . ولا توقفا عند سؤالٍ البتة! فأنّى لهما هذا؟ وهما لم يدرسا عند أحد، ولا أخذا العلم عن فقيهٍ أو راوٍ أو مفسّر. . وكيف استوعبا آلاف المسائل التي طرحت عليهما في شتّى الفنون؟ وكيف أجابا مع كلّ الاعتراضات والإشكاليات التي أوردت عليهما؟ وكان كلّ

جواب منهما جامعاً مانعاً محيطاً لا يتداخل معه سواه! حتّى دانت العقول، وخشعت الأبصار، وأقرّ لهم أعداؤهم إقرار عجز واعتراف؛ وقد افتضح النظام العباسي أمام هذا السيل المتحدّر من المعارف العليا بعد أن غمرته فرحةٌ كبرى عند الإعلان عن إمامة الإمام محمد الجواد!.

فما قدر أن يحسن هذا الصبيّ بزعمهم؟ ولكنّ هذا الصبيّ الإمام كان معجزة السماء في الأرض، فسفّه أحلامهم، وصادر آمالهم، فعاد أعجوبة وجمت عندها الأفكار بعد أن أرادوه معاذ الله أضحوكة للأمّة، وألعوبة بيد الظالمين. وإذا بهم يصعقون أمام ظاهرة من الظواهر الفريدة في الكون، فهذا الصبي الإمام يتفجّر عن نبعٍ سماوي ليس بوسعهم صدّه أو ردّه، أو تحجيمه.. فقد قصده البعيد والنائي وحضر عنده القريب والداني للتزوّد من تلك الروافد العلمية بمختلف فصائلها.. فما كان من النظام العباسي الطائش إلاّ أن عجّل بقتله سميماً.. فذهب شهيد عظمته.. ووفد على الله ضحية معارفه الإنسانية.. وما زال هو وجدّه الإمام الكاظم موسى بن جعفر عليه السلام يدفعان عن أهل بغداد الشدائد والمكاره، كما هو مذكور في كتابنا: ((الإمام محمد الجواد.. معجزة السّماء في الأرض))[1].

وكانت أفضلية وأولوية أئمة أهل البيت عليهم السلام في العصور التي عاشوها تتجلّى بهم جميعاً مقولة الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥هـ)، حينما سئل

(١) طبع هذا الكتاب مرّتين: الأولى في النجف الأشرف، دار الضياء، ٢٠٠٦م، والثانية في بيروت، مؤسسة البلاغ، ٢٠٠٧م.

عن الدليل في تفضيل أمير المؤمنين علي عليه السلام فقال: «**حاجة الكلّ إليه.. واستغناؤه عن الكلّ**».

وهو ما عليه أئمة أهل البيت كابراً عن كابر.

وهذا هو المهم في السرّ المستودع في الزهراء، ولعلّ هناك من الأسرار قطعاً ما لا ندرك كنهه، ولا نسبر غوره...

بقيَ.. هل بالإمكان تسليط الضوء على هذا السرّ في مجال البحث العلمي؟ وهل يستطيع الباحث الموضوعي التوصل إليه؟ إنّ ما نقطع به أنّه ليس من قبيل الأسرار العسكرية المدمّرة التي تتآمر على إبادة البشرية.. لأنّه سرّ رحمة لا سرّ عذاب! وهو ليس من جنس الأسرار السياسية التي تناور وتتآمر بإزاء مكتسبات مشروعة، وغير مشروعة على حدٍّ سواء.. وهو ليس من صنف الأسرار الاقتصادية التي تنظر المضاربات العالمية في تسويق الإنتاج والبترول.. والتلاعب بالأسعار.. والتحكم بأسواق التجارة.. ومؤسسات العملة والأوراق النقدية، وهو ليس من الأسرار النفسية للإنسان الذي يظهر غير ما يضمر في أولاع ورغبات يحدوها تحقيق الأحلام التي تلهث متخمة في مسارب اللعب واللهو في الحياة الدنيا وراء ستارٍ صفيق.

إنّه السرّ المستودع لدى الزهراء وكفى.

هذا السرُّ العائم في مخزون قداستها، السائر في مغاني نقائها، المتقلّب في ساحة معرفتها وإدراكها لأسرار الكون والحياة.

إنّه الكنز الثمين الخفي الذي نشهد ظواهره، ونجهل كنه حقائقه.

ومن ذا الذي يستنزع حقائق الأشياء من مستقرّها..

ومن ذا الذي يخترق القانون الطبيعي فيواكب ملاحظة الإعجاز؟ فيعطي زخماً جديداً يبتعد عن الفهم الأولي والتفسير الاعتيادي! إنّه النقطة الفاصلة بين الشعور البسيط الساذج وبين الشعور المتراكب تراكب السحاب الثقال في الأجواء! إنّه جهة إرسال علوية المصادر لجهة استقبال عريقة الأصول! تمتدُّ فروعها عبر التاريخ لتترسّخ وعياً فوقياً يتحدّى مدارج اللاوعي عند الإنسان.

إنّه المنحنى البياني الخارق الذي تتأطّر به الزهراء دون النساء! إنّه الفيض الإلهي والكينونة المطلقة في اصطفاء الزهراء بالصفاء المجرّد عن العوارض والمؤثّرات الخارجية.

وفوق هذا كلّه: الهبة الخاصة بالزهراء التي ابتليت وامتحنت وظلمت، فصبرت وتحمّلت، فكان العطاء الباهر حليف هذا الامتحان، وكان الاجتباء نتيجة ذلك الابتلاء، وكان النسل الكريم حصيلة ذلك الحرمان ومصادرة الحقوق!.

وما يدرينا! فلعلّ لهذا وذاك أثراً في استجلاء بعض الملامح لذلك السّر المستودع.. وما يدرينا أيضاً فلعلّ لكلّ ما تقدّم محوراً تكوينياً في سمو الذات عند الزهراء؛ فنتراجع عن تحرير هذا اللغز المحيّر؟ وما المانع مع توافر المقتضي

أن يودّع هذا السرّ المعمّق لدى بنت الرسول الأعظم ﷺ وحدها.. وهي الوديعة وحدها.. وهل يستحسن الاستيداع إلاّ عند الوديعة؟.

هذا الزخم من الخصائص الذي يحتضن الزهراء.. وهذه المميزات الفاصلة؛ قد تكشف البحوث الآتية عن أفق من مشارق أنوارها.

* * *

الزهراء.. أمّ أبيها

البعد الموضوعي فيما أفاض به النبي العظيم ﷺ عن مراصد كيان سيّدة النساء ذو هدف أساسي في ترصين الحديث الموضوعي، فلا صفة في هذا المنظور للعاطفة، ولا أثر لمناخ الأبوة والبنوة حبّاً وشغفاً، فالنبيّ ﷺ رسالي الحديث في الإرادة والتشخيص بأخصّ العموميات التي تصدق على طبيعة السلوك الخالص عن المؤثّرات الخارجية، ذلك السلوك الذي احتضن شخصية النبوة في كلّ المستويات، وإذا كان الأمر كذلك، فإنّ انطلاق الرسول الأعظم في حديثه عن بضعته الزهراء، يتأطّر بالواقع دون المبالغة، وبالمصداقية بمعزلٍ عن الحبّ.. جاء ذلك متّسماً بالتبليغ وحده، وبالأمانة على هذا التبليغ في المحتوى والشكل والمضمون.

فهو حينما يقول: «**فاطمة بضعة منّي...**».

ويخاطبها بالقول «**أنتِ سيّدة نساء أهل الجنّة..**».

وأنّها «**أحب الخلق إليه..**».

وأنّها «**روحه التي بين جنبيه..**».

وأنّها «**الطاهرة المطهّرة . .**».

وأنّها «**التقيّة النقيّة**».

وأنّها «. . **أمّ أبيها**».

إلى سوى ذلك من السمات الدقيقة التي اختصّت بها الزهراء في أحاديث أبيها عنها. . حتّى عادت مصداقاً لا ينطبقُ إلاّ عليها. وهي أحاديث مستفيضة بلغت حدّ التواتر، وقد تقاربت في ألفاظها، وتشابكت في معانيها في دلالة فريدة، حتّى عادت من مسلّمات المقولات النبوية المؤكدة، وقد رويت بعشرات الأسانيد عند المسلمين كافة[1].

وفي هذا الملحظ في أحاديث النبي عن الزهراء، لا يريد إلاّ أن يبلّغ الحقيقة عارية عن الإضافة، وبمنأى عن التزيُّد.

وفوق هذا كلّه قوله ﷺ: «**يرضى الله لرضاها ويغضب لغضبها**».

ورضاها رضا رسول الله ﷺ، وأذاها أذى رسول الله ﷺ.

---

(١) ظ: على سبيل المثال لا الحصر:
الكنجي الشافعي، كفاية الطالب: ٣٦٤، وما بعدها، ابن الأثير، أسد الغابة: ٥/٥٢٢، وسواها، الحمويني، فرائد السمطين: ٢/٤٦ ـ وسواها، الذهبي، سير أعلام النبلاء: ٢/١٣٢ ـ وسواها، الهيثمي، مجمع الزوائد: ٩/٢٠٣ ـ وسواها، ابن حجر، الصواعق المحرقة: ١٨٦ ـ وسواها، المتقي الهندي، كنز العمال: ٦/١٩ وسواها.
هذا عدا عشرات المصادر عند الإمامية والجمهور التي أوردها الأميني، الغدير: ٧/٢٣١ ـ وما بعدها.

ولم تشارك إحدى النساء الزهراء في هذه الخصوصية على الإطلاق. وفي ذلك مؤشّر في ذاتية النصّ يرتفع بمستوى الحدث والحديث إلى درجة الاندماج الكلّي بين الوالد ووليدته في المعطيات الرسالية؛ وهو ما يوحي بالتكامل الفعلي لدى الزهراء في أرقى منافذه بالعصمة عن الخطأ، أو الزلل في القول، أو الخطل في الرأي، مما كوّن شخصيتها الإسلامية الفذّة بالضرورة العقلية، وفي ظلّ هذا الفهم فسّر الحديث النبوي الشريف: «**من آذى فاطمة فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله**))[1].

ولك أن تعجب كلّ العجب أن يتحدّث رسول الله ﷺ عن الأفق المستقبلي في أذى الزهراء، وهو يؤذيه وما يؤذيه يؤذي الله. وليس هذا من مظاهر الحبّ الذي منحه النبي للزهراء فحسب، بل هو ترديد نبوي متكرّر لبيان منزلة الزهراء ومكانتها عند الله عزّ وجل وعنده كونه نبيّاً لا أباً فحسب، ومن هنا نجد الرواة يقولون بالحرف الواحد: روي ((أنّ رسول الله ﷺ إذا سافر كان آخر عهده بإنسان من أهله فاطمة، وأول من يدخل عليها إذا قدم فاطمة))[2].

وما السرُّ في هذا؟.. إنّه منطق الحبّ في ذات الله عن جهة، والإعلان عن أهمية هذا الكائن من جهة أخرى.

---

(١) ظ، ابن حنبل، مسند أحمد: ٣٢٨/٤، والترمذي، الجامع الصحيح: ١٩٨/٥.

(٢) ابن حنبل، المسند: ٢٧٥/٥، والبيهقي، السنن الكبرى: ٢٦/١، وابن حجر، الصواعق المحرقة: ١٠٩، والحاكم النيسابوري، المستدرك: ٤٨٩/١، والقندوزي، ينابيع المودة: ٢٣/٢، والمتقي الهندي، كنز العمال: ٩٩/٧، وابن شهراشوب، مناقب آل أبي طالب: ٣٣٢/٣.

وقد أكّدت أم المؤمنين عائشة هذه الحقيقة، وقد سئلت كما في الاستيعاب لابن عبد البرّ:

((أيّ النّاس كان أحبّ إلى رسول الله ﷺ قالت: فاطمة، قلتُ: فمن الرجال؟ قالت: زوجها، إن كان ما علمته صوّاماً قوّاماً))[١].

وكانت ظاهرة تقبيله إيّاها مراراً وتكراراً ظاهرة حسّية تعبّر عن هاجس نفسي تبدو نبضاته عملياً، وقد وردت الروايات في ذلك متتابعة في نصوصٍ منها:

١ ـ كان رسول الله ﷺ «**كثيراً ما يقبّل فاطمة**»[٢].

٢ ـ كان «**رسول الله ﷺ لا ينام حتّى يقبل عرض وجه فاطمة. . ويدعو لها**»[٣].

٣ ـ وكان «**رسول الله ﷺ كثيراً ما يقبل عرف فاطمة**»[٤].

٤ ـ روت عائشة أمّ المؤمنين عن النبيّ ﷺ أنّه: (كانت إذا دخلت عليه الزهراء قام إليها، فأخذ بيدها وقبّلها، وأجلسها في مجلسه، وكان إذا دخل عليها، قامت إليه، فأخذت بيده فقبّلته، وأجلسته في مجلسها)[٥].

---

(١) ظ، محسن الأمين العاملي، أعيان الشيعة: ٢/٢٧٥.

(٢) المناوي، كنوز الحقائق: ١١٩، طبعة بولاق.

(٣) الخوارزمي، مقتل الحسين: ١/٦٦، والمجلسي، البحار: ٤٣/٤٢.

(٤) السيوطي، الجامع الصغير عن طريق ابن عساكر: ٢/٢٩٤، والمتقي الهندي، كنز العمال: ٣/٦٧٥.

(٥) الترمذي، السنن: ٥/٧٠، والحاكم النيسابوري، المستدرك: ٣/١٦٠.

وهنا نجد الزهراء بتربيتها العالية قد التزمت آداب النبيّ ﷺ فقابلته بالمثل في التعامل الرفيق المتبادل.

وهنالك ما هو أبلغ في التأثير والتأثر في تقبيل الزهراء، وشمّها من قبل النبيّ إذا اشتاق إلى الجنة، فعنه أنّه قال: «**إنّي إذا اشتقت إلى الجنّة قبّلت نحر فاطمة**»[1].

وعنه ﷺ أنّه قال: «**إنّي إذا اشتقتُ إلى الجنّة شممتُ رقبة فاطمة**»[2].

وكان الرسول الأعظم ﷺ كثيراً ما يأسى لحياة الزهراء المتواضعة ومكابدتها شظف العيش، وزهدها في عاجل الدنيا، ومقاساة مرارتها، وهي صابرة.. ذاكرة.. شاكرة؛ حتّى بشّر النبي بالعطاء الجزل، فعن جابر بن عبد الله الأنصاري، قال: (رأى النبي ﷺ فاطمة عليها السلام وعليها كساءٌ من أجلّة الإبل، وهي تطحن بيدها، وترضع ولدها، فدمعت عينا رسول الله ﷺ، فقال: يا بنتاه تعجّلي مرارة الدُّنيا بحلاوة الآخرة! فقالت: يا رسول الله، الحمد لله على نعمائه، والشكر لله على آلائه، فأنزل الله تعالى قوله ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾[3])[4].

وقد أعطاهُ الله ما شاء من الذكر الخالد، والرسالة السّماوية الصادعة أناء

(١) ظ، الطبري، ذخائر ذوي القربى: ٣٦، والقندوزي، ينابيع المودة: ١/١٧١.
(٢) الحاكم النيسابوري، المستدرك: ٣/١٥٦.
(٣) سورة الضحى: ٥.
(٤) ابن شهراشوب، المناقب: ٣/٣٤٢، الحسكاني، شواهد التنزيل: ٢/٣٤٤.

الليل وأطراف النّهار، والذريّة المباركة من نسل ابنته الزكيّة الراضية، المرضية عدا منازل الآخرة في عليّين، والشفاعة في أمّته، والمقام المحمود يوم الدين.

وأعطيت الزهراء ما لم يعطَ سواها من نساء العالمين في الآخرة، بما تتحدّث عنه الأخبار، وتتطيّب بذكره الآثار.. فقد ورد في الحديث الشريف عن يوم القيامة: «**ينادي منادٍ من تحت العرش يُسمع الخلائق: غضُّوا أبصاركم حتّى تجوز فاطمة بنت محمّد ﷺ ومن معها**»[1].

وتلك أكرومة وكرامة في لحظةٍ زمنية واحدة لا يشاركها بها أحد، فهي تجوز وأولياؤها إلى الجنّة بما يصوّره الحديث الشريف، فعن رسول الله ﷺ أنّه قال: «**تحشر ابنتي فاطمة، وعليها حلّة الكرامة قد عجنت بماء الحَيَوَان، فينظر إليها الخلائق فيتعجبون منها، ثمّ تكسى أيضاً من حلل الجنّة ألف حلة مكتوب على كلّ حلّة بخطٍّ أخضر: ادخلوا بنت محمّد الجنّة على أحسن الصورة، وأحسن الكرامة، وأحسن منظر، فتزفُّ إلى الجنّة كما تزفّ العروس، ويوكل بها سبعون ألف جارية**»[2].

وقد يقال بانّ هذا الحديث مبنيٌّ على المبالغة، ولكنّه مرويٌّ عن طريق غير الإمامية، ويعزّزونه بحديث آخر: «**أوّل شخص يدخل الجنّة فاطمة بنت محمّد**»[3].

---

(١) المجلسي، بحار الأنوار: ٨/٥٤.

(٢) ابن عساكر، تاريخ دمشق: ١٢/٨٦، والقندوزي، ينابيع المودة: ١٩٩، وابن حجر، لسان الميزان: ٢/١٧، والحمويني الشافعي، فرائد السمطين: ٢/٦٣.

(٣) الذهبي، ميزان الاعتدال: ٢/ ٦١٨، وابن حجر، لسان الميزان: ٤/١٦، والمتقي الهندي، كنز

وهذا كلّه من باب التعظيم لشان الزهراء، وعلوّ منزلتها في ميزان الأعمال عند الله، ورفيع درجتها في العصمة والتزكية والاصطفاء، ومن كانت هكذا، فهي كما قال أبوها رسول الله ﷺ بأنّها: «**أمّ أبيها**» وحسبها بذلك عزّاً وشرفاً.

وهذا الحديث لا يفسّر بالقول الرخيص، أنّ الزهراء قد عوّضت النبيّ ﷺ عن عطف الأم حيث أنّ أمّه ماتت، وهو لا يزال طفلاً؛ فلأجل ذلك أطلق عليها لقب: أمّ أبيها.

وبأنّ النبيّ بدأ حياته، وهو يشكو فقد حنان الأم؛ لأنّ حنان الأم ليس شيئاً يمكن أن تتكلّفه مرضعة أو مربية... ولذلك أعطته أمومتها باحتضانها له، وقالها رسول الله وهو يشعر: ((أنّ ذلك الفراغ الذي فقده بفقدان أمّه استطاع أن يملأه من خلال ابنته))[1].

وقد ردّ ناقل هذا الافتراض ردّاً مفحماً بعد نقله[2].

وهذا الرأي خاطيء بجميع افتراضاته اللاعقلية، وهو يتعدّى حدود المنطق السليم إلى الاعتداء على عظمة النبي ﷺ.

وهنا نشير أنّ من لطف الله تعالى على نبيّه أن جعله يتيم الأبوين، فأسقط

العمال: ١٢/ ١١٠.

(١) ظ، جعفر مرتضى العاملي، مأساة الزهراء: ١/ ٦٠، وانظر مصدره.

(٢) المصدر نفسه: ١/ ٥٩-٦١.

عنه واجب الإطاعة لهما والعناية بهما والاستماع إليهما.. ليتفرّغ لرسالته وحدها.

وليس اليتيم بعقدة نقص، أو حديث فراغ لدى العباقرة بغضّ النظر عن منزلة النبوة، والنبي لا يشكو فقد الحنان، ولا يعاني من الفراغ بكلّ صوره.. فهو برعاية الله وعنايته، وهو بعينه ورحمته، وهو مؤيّد بروح القدس وكفى.

إنّ هذا الحديث لم يطلق جزافاً.. وليس سدّاً للفراغ، فلا فراغ بل هو تعبيرٌ رقيق وضخم في وقت واحد. رقيق كرقّة الزهراء على أبيها في شؤونه، وضخم في دلالته على اهتمامها بأبيها في حياته الخاصة والعامة، ولا عاطفة في البين للمعاني التي يقدّرها بعضهم، فلا تعويض عن فقد الأمومة، ولا احتضان كاحتضان الأمّ لولدها.

يقول الأستاذ جعفر مرتضى العاملي: ((إنّ الكلمة المذكورة (أمّ أبيها) تريد أن تبيّنَ لنا حقيقة، وأبعاد تعامل السيّدة الزهراء مع أبيها.. ولا تريد أن تتحدّث عن ملء فراغات! أو حلّ عقدة نقصٍ في الشخصيّة النبوية المقدّسة، والعياذ بالله))[١].

إنّ الطرح غير المقبول مما لا يتناسب مع شخصية الرسول الأعظم ﷺ لا يمكن أن يقتنع به البحث الموضوعي.. لأنّه خارج عن نطاق المصداقية من

---

(١) جعفر مرتضى العاملي، مأساة الزهراء: ١/٦٠، الطبعة الثانية.

جهة، ويستبطن مقولة كبيرة عند الله باعتبار النبيّ أحد أفراد البشر بالتأثر والتأثير مما يرفضه منطق القرآن في سمو المقام النبوي.

الزهراء أمّ أبيها.. بأبهى معاني هذا اللفظ.. وأجلى مظاهر الإعظام.. وأنبل صفات التقييم.. وذلك ما يمكث في الأرض.. أمّا الزبد فيذهب جفاءً.

الزهراء.. والتكامل الذاتي

تتراصف كالعقد الفريد ظواهر التكامل الذاتي بل الكمال المطلق بشخصية الزهراء الإنسانية، وهو كمال أيدلوجي لا يثير الغرابة؛ لأنّه لم يتوافر للزهراء عن كلالة، فقد ربيّت في حجر النبوة.. ومن ينكر ذلك؟ وقد غذيت بلبان الوحي.. ومن لا يعرف ذلك.. وهي المُحدَّثة دون أدنى ريب.. وهي المُحدِّثة عن أبيها بما لا يقبل الشكّ.

وهذا العرض المتفوّق قد يدعو إلى التساؤل في كونها مُحَدَّثة.. في الوقت الذي تثبت الوقائع أنّها مُحدِّثة.. وهو أمرٌ متسالم عليه؛ فقد روت الحديث عن أبيها بإجماع الأمّة.

أمّا كونها مُحدَّثة، فليست الزهراء بأقلّ شأناً من أمّ موسى، وقد قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾(١).

بل وأوحى الله إلى النحل إيحاء تسخيرٍ وتدريب وتعليم، فقال تعالى ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾(٢).

(١) سورة القصص: ٧.

(٢) سورة النحل: ٦٨.

وقد أورد الجمهور أنّ أبا بكر رضي الله عنه كان محدَّثاً، وكذلك كان عمر رضي الله عنه، وإذا كان الأمر جائزاً لهما، فهو جائزٌ للزهراء عليها السلام من باب قياس الأولى، فهي أولى أن تكون مُحَدَّثة لأنّها المعصومة الزكية أوّلاً.. ولأنّها ابنة نبيّنا من وجه.. وسيّدة نساء العالمين من وجه آخر، عدا شواهد الحال فيما ورد في شتّى المرويات وكتب السنن والحديث.

وإذا كانت الزهراء وهي بضعة من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمعنى الكلمة بدنياً وروحياً.. لا يصحّ لها أن تكون محدّثة.. فلمن يصحّ ذلك؟ وإذا اجتمع للزهراء ما لم يجتمع لغيرها من الانفرادات في كثير من الظواهر حتّى نالت تلك الحظوة من تقييم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لها في غرر الأحاديث، وأعظم التصريحات التي تحكي عن تكاملها بكلّ ما يليق بالمرأة المسلمة.. وهي المرأة الأولى في حياة الإسلام من حيث الخصائص الذاتية التي منحها الله.. إذا كان ذلك وقد كان.. فماذا يضيرنا من نسبة التحديث لها؟ وما الدليل على نفي ذلك؟ والبرهان عتيد على تصديق كونها محَدّثة في جمهرة من الروايات التي بلغت حدّ التواتر!.

أمّا الإمامية فلا يشكُّ منهم أحد بذلك، بل هو من المسلّمات التي توارثوها أباً عن جدّ عن أئمة أهل البيت عليهم السلام بما أثبتته الأسانيد وروته مجامع الحديث، وأمهات الكتب المعتبرة، بل هنالك ما فوق هذا كلّه؛ فإنّ بعض الروايات تؤكّد أنّ علياً أمير المؤمنين عليه السلام كان يكتب ما تحدَّث به الزهراء.. فقد ورد «**أنّه كان**

مَلَكٌ يأتيها بعد وفاة أبيها يحدِّثها . . وكان عليٌّ عليه السلام يكتب ذلك»[١].

وأورد الصدوق (ت ٣٨١هـ) عن جابر بن عبد الله الأنصاري:

«أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم دخل على فاطمة عليها السلام ليهنئها بوليدها الإمام الحسين عليه السلام وإذا بيدها صحيفة بيضاء، درّة، فسألها النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم عنها، فأخبرته: أنّ فيها أسماء الأئمة من ولدها، وأنّها قد نهيت عن أن تمكّن أحداً من أن يمسّها إلاّ نبيّ، أو وصيّ نبيّ، أو أهل بيت نبيّ»[٢].

وإذا لم يكن التحديث في مثل هذه الشذرات من الآثار، فكيف يكون؟ وهنا يتّهم أعداء أهل البيت أولياءهم بالقول: بأنّ للزهراء مصحفاً باعتبارها مُحَدَّثة غير مصحف المسلمين! وهو كذب صريح لا يستند إلى نصٍّ تاريخي واحد، ويكذّبه قول الإمام محمد الباقر عليه السلام **«إنّ القرآن واحد نزل من عند الواحد»** [٣].

وليس لدى الإمامية وهم اليوم بالملايين غير القرآن المطبوع والمتواجد عند كلّ المسلمين بعشرات الملايين من النسخ، وهو برواية حفص بن سليمان الكوفي عن عاصم بن أبي النجود الكوفي عن أبي عبد الرحمن السلمي عن علي بن أبي طالب عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن جبرائيل عليه السلام عن الله تعالى[٤].

---

(١) الكليني، الكافي: ١/٤١، وانظر سنده، والمجلسي، البحار: ٢٦/٤٣، وانظر مصدره.
(٢) الصدوق، الخصال: ٢/٤٧٧، وعيون أخبار الرضا: ١/٤٠.
(٣) الكليني، الكافي: ٢/٦٣٠.
(٤) ظ، تفصيل ذلك في كتابنا ((تاريخ القرآن)) الطبعة الأولى، الدار العالمية للدراسات والنشر،

وهو المحفوظ بين الدّفتين حفظاً أبدياً تنفيذاً للوعد الإلهي المؤكّد خمس مرّات في قوله تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[1].

أمّا مصحف فاطمة الذي هو من مدّخرات لأئمة أهل البيت فيبدو أنّه صحف جمّعت فكانت مصحفاً بالمعنى اللغوي، ولا علاقة له بالقرآن، بل هو يتعلّق بأحداث غيبية من التحديث، ولا علاقة له بالحلال والحرام، والأحكام الشرعية، ولا النصوص القرآنية، وإنّما هو العلم اللدّني الذي وهب للزهراء عليها السلام[2].

وحقيقة هذا المصحف.. وهو مأخوذ من الصحف التي تجمع وتحفظ في تجليد أو وعاء وما شابه ذلك، وهو يحكي ما حدّثت به الزهراء في جملة من معلومات الغيب التي لا تخضع للقضايا الطبيعية في العلم التكسبي.. بل ترتبط بالعلم اللدني المخبر عنه بالقطع ، والمُحدَّثة به صدقاً وحقّاً.

ومسألة احتفاظ الزهراء عليها السلام بصحف لها قيمتها وأهميتها، بل وبآثارٍ مكتوبة في رقاعٍ ما.. هو مما تذكره الروايات ذات السند المقبول، فقد أورد كلّ من الكليني والحرّ العاملي بسندهما

عن زرارة عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام أنّه قال: «**جاءت**

بيروت، ١٩٨٣هـ، ودار المؤرخ العربي، بيروت، ٢٠٠٠ م.

(١) سورة الحجر ٩.

(٢) ظ، الكليني، الكافي وانظر أسانيده.

فاطمة عليها السلام تشكو إلى رسول الله صلى الله عليه وآله بعض أمرها، فأعطاها رسول الله (كُرْبَة)[١] وقال: تعلّمي ما فيها، وإذا ما فيها: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر؛ فلا يؤذي جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر؛ فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر؛ فليقل خيراً أو ليسكت»[٢].

ونفذت الزهراء هذه الوصايا، فأكرمت الجار والضيف، وقالت خيراً.. وكانت مصداقاً نموذجياً في هذا كلّه لحقيقة الإسلام.. وعرفت بالبرّ والإحسان والإيثار عملاً بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[٣].

وآية خصاصة واحتياج أكثر من خصاصة النبي وعلي والزهراء عليهم الصلاة والسلام فالنبي يشدّ حجر المجاعة على بطنه.. وعلي يكسر خبز الشعير اليابس إن وجد ليأكله، والزهراء مجلت كفّاها من الطحن، فإذا استوى خبزاً أطعمته المسكين واليتيم والأسير، والإيثار بمثل هذه الظروف المعاشية الصعبة تشكّل تكاملاً ذاتياً، بل وكمالاً مثالياً يرتفع بالنّفس الإنسانية إلى مراتب الصّديقين في حرمان الذات والبر بالآخرين.

---

(١) الكربة: مفرده الكرب، وهي أصول سعف النخيل، وكان العرب يستعملونه للكتابة، هو واللخاف والأقتاب والجلود لقلّة الورق لديهم.. ويحتفظون بذلك في آثارهم.

(٢) الكليني، الكافي: ٢/٦٦٧، والحرّ العاملي، وسائل الشيعة: ٨/٤٨٧.

(٣) سورة الحشر: ٩.

إنّ هذه الظاهرة كما تتوافر برسول الله ﷺ بأبهى صورها، فإنّها تتجسّد بأمير المؤمنين عليه السلام وتتمثل بالزهراء عليها السلام شاخصة بما سأقصّه عليك: دخل رجلٌ من مهاجرة العرب على رسول الله ﷺ وهو في المسجد في رعيل من أصحابه، وعلى الشيخ أهاب متهلهلٌ خَلِق، وقد اشتدَّ به الضعف والكبر معاً، فقال: يا رسول الله: أنا جائع الكبد فأطعمني، وعاري الجسد فاكسني، وفقير فآثرني، فقال رسول الله ﷺ وقد عزّ عليه ذلك: ما أجد لك شيئاً.. ولكن الدال على الخير كفاعله، انطلق إلى ابنتي فاطمة، وأمر ﷺ ـ بلال الحبشي ـ مؤذن رسول الله فسار به إلى منزل الصديقة الطاهرة، فنادى الأعرابي بأعلى صوته: «**السلام عليكم يا أهل بيت النبوة، ومختلف الملائكة.. يا بنت محمّد: أقبلت على أبيك سيّد البشر مهاجراً من شقّة عاري الجسد، جائع الكبد، فارجميني، يرحمك الله**».

وكان عليّ وفاطمة عليهما السلام ما طعموا طعاماً ثلاثة أيّامٍ.

وهنا يكمن عنصر المفاجأة المغيّب، إذ يشتكي عليّ وفاطمة عليهما السلام الحرمان والجوع دون شكاية لأحدٍ حتّى رسول الله ﷺ، وإنّما هو الحرمان المقدّس الذي لم يطّلع عليه أحد، وإنّما يسرُّه العبد فيما بينه وبين ربّه، وهكذا الصالحون كما قال الله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾[1].

---

(١) سورة البقرة: ٢٧٣.

وإذا بهذا الشيخ البائس يقف على باب الزهراء بندائه المتقدّم، مرسلاً من قبل رسول الله ﷺ وبيد بلال رضي الله عنه.

لقد كان بالإمكان ردّ هذا السائل ردّاً جميلاً، وصرفه بأدبٍ واحترام.. فما عليه السائل هو نفسه ما عليه المسؤول دون إفصاحٍ به.. ولكنّ رسول الله ﷺ لا يفعل ذلك!.

إذن: ماذا ستصنع ابنة رسول الله ﷺ في مثل هذه الحال؟ أجل.. إنّ الزهراء بتكوينها الإنساني العظيم تأبى لها نفسيتها الواهبة المعطاءة المؤثرة أن ينصرف هذا الشيخ البائس دون تحقيق رغبة، أو إسعاف طلب، أو قضاء حاجة ملحّة، وتلك أكرومتها النابضة بالحنان والرحمة، ولها في حناياها وأعماق الضمير ذلك الهاجس المتدفّق بالخير العميم.

وتعمد الزهراء عليها السلام إلى جلد كبشٍ مدبوغ بالقرظ كان ينام عليه الحسن والحسين عليهما السلام تعطيه إلى الشيخ آملةً أن يتيح له الله ما يسدّ به الرمق! ولكنّ الشيخ يأبى أن يتسلّمه، فقد أشغله الجوع عن التفكير الأمثل، وقد كان بإمكانه بيعه والانتفاع بثمنه فيما يلبّي حاجته، ويدفع حرمانه.. وتتحمّل الزهراء عليها السلام ـ برحابة صدرها هذا الإدلال من الشيخ فتعمد إلى عقد في عنقها أهدته إليها بنت عمّها: ((فاطمة بنت حمزة بن عبد المطلب)) فتخلعه من عنقها، ويعود نحرها الشريف عاطلاً من الحلي وتنبذه إلى الأعرابي، وتقول له خذه: وبعه، فعسى الله أن يعوّضك بما هو خيرٌ لك منه!.

ويأخذ الشيخ الأعرابي العقد مسروراً ويطير به فرحاً، ويأتي به إلى مسجد رسول الله ﷺ ويعرضه للبيع، فيشتريه عمّار بن ياسر قتيل الفئة الباغية بعشرين ديناراً ومائتي درهماً، وبردة يمانية، وراحلةٍ توصل الشيخ إلى أهله.

عندئذٍ قال رسول الله موشّحاً عمل عمّار بن ياسر بوسام رفيع «**لو اشتراك في شراء هذا العقد الثقلان، ما عذّبهم الله بالنار**».

وينطلق عمّار بالأعرابي إلى حيث الوفاء بالثمن، ويعود الأعرابي إلى النبي ﷺ مغتبطاً، ويقول له النبيّ ﷺ «**أشبعت واكتسيت**»؟ فيقول الأعرابي: نعم، واستغنيت بأبي أنت وأمّي! فيقول له النبيّ ﷺ فأجز فاطمة في صنيعها معك خيراً))!. فيقول الشيخ ((اللهم أنت إلهُ ما استحدثناك، ولا إله لنا نعبده سواك، وأنت رازقنا، فأعطِ فاطمة ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت)). فأمّن رسول الله ﷺ على دعائه، وكان هذا التأمين أصلاً من أصول تقبّل هذا الدُّعاء، وشرطاً من شروط الإجابة الفورية، فقد ورد ((ما ردّت دعوة نبيّ قطّ)).

وأقبل النبي ﷺ على أصحابه قائلاً: «**إنّ الله قد أعطى فاطمة ذلك، وأنا أبوها، وما في العالمين مثلي، وعليٌّ بعلها، ولولا عليٌّ ما كان لها كفؤ أبداً. أعطاها الحسن والحسين، وما في العالمين مثلهما؛ سيّدا أسباط الأنبياء، وسيّدا شباب أهل الجنّة**».

ثمّ قال النبيّ ﷺ: أزيدكم؟

فقال سلمان وعمّار والمقداد وكانوا إلى جنبه نعم، فقال رسول الله ﷺ «**أتاني الروح الأمين، وقال: إنّها يعني الزهراء إذا قبضت ودفنت يسألها الملكان في قبرها: مَنْ ربّكِ؟ فتقول: اللهُ ربّي، من نبيّكِ؟ فتقول: أبي، من وليّكِ؟ فتقول: هذا القائم على قبري: عليّ بن أبي طالب**».

ثمّ يقول رسول الله ﷺ لأصحابه: ألا أزيدكم من فضلها؟ فيقولون: زدنا.. فيقول رسول الله ﷺ: ((**إنّ الله وكّل بها رعيلاً من الملائكة يحفظونها من بين يديها ومن خلفها، وعن يمينها وعن شمالها، وهم معها في حفرتها.. يكثرون من الصلاة عليها وعلى أبيها وبعلها وبنيها**».

يقول الصحابي الجليل جابر بن عبد الله الأنصاري ﵁: ((إنّ عمّار بن ياسر بعد ذلك طيّب العقد بالمسك، ولفّه في بردةٍ يمانية، وبعثه مع عبده (أسهم) إلى رسول الله ﷺ وقال: أنت لرسول الله مع العقد)).

ويتقبل رسول الله من عمّار هذه الهدية، ويرسل بالعبد مع العقد إلى الزهراء ﵍ قائلاً: «**أنت لها مع العقد**».

فتأخذ فاطمة الزهراء العقد والعبد معاً، وتشرأب في أعماقها حقيقة الإيثار، وتنطلقُ حوافز البرّ في سبيل الله تعالى، وتتجلّى في ذاتها دوافع اقتحام العقبة من أمثل مصاديقها وهو ((فكّ رقبة)) ناظرة إلى قوله تعالى: ﴿ **فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ** ﴾(١).

(١) سورة البلد: ١١ ـ ١٦.

ثمّ قالت للعبد (أسهم) حامل العقد: «**اذهب.. أنت حرٌّ لوجه الله**».

يا لها من من لفتة بارعة من سيّدة النساء، وإرادة ضاربة لكلّ مظاهر الترف والاستعباد، فتحرّر عبداً من رقيته، وتغني أعرابياً بعد فقره وجوعه وحرمانه، ويعود ذا مالٍ وطعام وكساء!.

وهذا هو التوجه المركزي لدى الزهراء وأبيها وبعلها وبنيها.. إذ جعلوا للرقّ حدّاً، ولعتق الرقيق نظاماً صدع به القرآن، وقامت به السّنة الشريفة، وتناولته مصادر التشريع في مجالات شتّى؛ القتل الخطأ، إفطار رمضان عمداً، اليمين الحانث، الاستحباب المطلق.. وفي أبوابٍ أخرى تذكرها كتب الفقه.

وحينما سمع المملوك عبارة الزهراء: ((أنت حرٌّ لوجه الله)) تلألأ وجهه فرحاً، وانطلق لسانه بالقول: ((ما أكثر بركة هذا العقد! أشبع جائعاً، وكسا عرياناً، وأغنى فقيراً، وأعتق مملوكاً، ورجع إلى أهله))[1].

وقد يتطاول بعضهم بالقول بأنّ أمثال هذه الوقائع من الأساطير التي يحكيها أولياء أهل البيت! وليس الأمر كذلك، فقد ذكرت في الأسانيد المعتبرة، وقد أوردها عالم كبير في الفيزياء والرياضيات، وهو الأستاذ أحمد أمين الكاظمي، وهو مثقف عصري بكلّ معنى الكلمة، ولا يؤمن بالأساطير وأحاديث المبالغة والإسرائيليات.

---

(١) ظ، في نصوص هذه الواقعة وأسانيدها في مصادرها، أحمد أمين الكاظمي، التكامل في الإسلام: ١٦١/١، وما بعدها.

وما تناولته هذه الواقعة غيضٌ من فيض إيثار الزهراء عليها السلام، فما تقول إذن بما يتحدّث عنه القرآن العظيم في رحاب هذا الإيثار المثالي فيما يشكّله من قاسم مشترك في ظلال وارفة من النبل الإنساني والكرم الاجتماعي بين الزهراء وبعلها وبنيها فيما اقتصّه الله عزّ وجل في سورة الإنسان ((هل أتى)) في ثماني عشرة آية في إطعام المسكين واليتيم والأسير، في ظلّ حياةٍ من الجفاف والجوع والفقر، بما يمثّل كرماً لا نظير له، وإيثاراً مع الحاجة إليه، وتضحية مع الإعواز، ومجاعة مع الصّيام؟ لا يريدون في ذلك جزاءً ولا شكوراً، وقد عدّهم القرآن بذلك من الأبرار، وأعطاهم تلك الأوسمة الرفيعة، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ ﴾[1] إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾[2].

وقد أورد جار الله الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) وهو معتزليٌّ لا إمامي، عن ابن عبّاس، قال: ((إنّ الحسن والحسين مرضا، فعادهما رسول الله صلى الله عليه وآله في ناسٍ معه، فقالوا: يا أبا الحسن الخطاب لأمير المؤمنين الإمام علي لو نذرت على وِلدِك! فنذر عليٌّ وفاطمة وجارية لهما، إن بَرِءا مما بهما أن يصوموا ثلاثة أيّامٍ، فشفيا، وما معهم شيءٌ، فاستقرض عليٌّ من شمعون الخيبري اليهودي

(١) سورة الإنسان: ٥ ـ ٩.

(٢) سورة الإنسان: ٢٢.

ثلاثة أصوعٍ من شعير فطحنت فاطمة صاعاً، واختبزت خمسة أقراصٍ على عددهم فوضعوها بين أيديهم؛ ليفطروا، فوقف سائلٌ عليهم فقال: ((السلام عليكم أهل بيت محمّد، مسكين من مساكين المسلمين، أطعموني أطعمكم الله من موائد الجنة)). فآثروه، وباتوا لم يذوقوا إلاّ الماء، وأصبحوا صياماً، فلمّا أمسوا ووضعوا الطعام بين أيديهم وقف عليهم يتيمٌ فآثروه.

ووقف عليهم أسيرٌ في الليلة الثالثة، ففعلوا مثل ذلك! فلمّا أصبحوا أخذ عليٌّ رضي الله عنه بيد الحسن والحسين وأقبلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلمّا أبصرهم وهم يرتعشون كالفراخ من شدّة الجوع، فقال: «**ما أشدّ ما يسوءني ما أرى بكم**»!.

وقام فانطلق معهم فرأى فاطمة في محرابها، وقد التصق ظهرها ببطنها، وغارت عيناها، فساءه ذلك، فنزل جبريل وقال (**خذها يا محمّد! هنأك الله في أهل بيتك، فأقرأه السورة**)[1].

قال الطبرسي (ت ٥٤٨ هـ) قد روى الخاص والعام أنّ الآيات من هذه السورة، وهي قوله ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ رَبَّهَا.﴾ إلى قوله ﴿.. وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ ـ يعني الآيات الثماني عشرة التي أشرنا إليها نزلت في علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام وجارية لهم تسمّى (فضة)، وهو المروي عن ابن عباس ومجاهد وأبي صالح))[2].

---

(١) الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل: ١٩٧/٤.

(٢) الطبرسي، مجمع البيان: ٤٠٤/٥.

وفي تفسير علي بن إبراهيم القمّي عن الإمام الصادق عليه السلام بسنده بعد أن ذكر القصّة، وحديث المسكين واليتيم والأسير، ... متحدّثاً عن الآيات التي نزلت فيهم قال الصادق عليه السلام (**وهي جاريةٌ في كلّ مؤمن فعل ذلك لله عزّ وجل**)[١].

وفي هذا الملحظ نظر الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام أنّ خصوص المورد لا يخصص الوارد، لذلك قال: بأنّ الآيات «**جاريةٌ في كلّ مؤمن فعل ذلك لله عزّ وجل**».

كيف لا وقد أورد الزمخشري عن رسول اله صلى الله عليه وآله وسلم جزاء القاريء لسورة ((هل أتى)) فضلاً عن العامل بها، قال: «**عن رسول الله** صلى الله عليه وآله وسلم: **من قرأ سورة هل أتى كان جزاؤه على الله جنّة وحريراً**»[٢].

أقول: إنّ سورة الإنسان تسمّى أيضاً سورة ((هل أتى))، كما في هذه الرواية عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وقد قال الشاعر القديم:

وسائلٍ هل أتى نصٌّ بحقِّ علي
أجبتُهُ (هل أتى) نصٌّ بحقِّ علي

فطنّهُ مُذ غدا منّي الجواب لهُ
عين السؤال صدًى من صفحةِ الجبلِ

(١) ظ، علي بن إبراهيم، التفسير للسورة، والطبرسي، مجمع البيان: ٥/٤٠٥.
(٢) الزمخشري، الكشاف: ٤/٢٠١.

وهذا في علم البديع من ((الجناس الكامل))، وبه استدلّ الشاعر أنّ سورة ((هل أتى)) فيها النصّ على أمير المؤمنين وصفاته التي لا تتأتى إلاّ للمقربين، وذكر سورة ((هل أتى)) لا يعني أنّها وحدها في فضل أمير المؤمنين، فهناك في القرآن عشرات الآيات التي نصّت على إمامته وسبقه وفضله وجهاده.

وقد جمع سيّدي الوالد الشيخ علي الصغير رحمه الله تعالى ـ (ت ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م) ما ورد في أمير المؤمنين حصراً من الآيات القرآنية، وأسمى ذلك ((عليٌّ في القرآن)) وعاجلته المنية عن إكمال التأليف؛ عدا مادة الكتاب الأساسية، دون المقارنة والدراسة والشرح والتعليق.

ولا يشكُّ أحدٌ من المسلمين الأوائل والأواخر أنّ السورة في آياتها الثماني عشرة نزلت في أهلها، ولا مانع من تمامية السورة.

قال أبو حمزة الثمالي (من علماء القرن الأول الهجري) في تفسيره: ((حدّثني الحسن بن الحسن أبو عبد الله بن الحسن ـ يعني الحسن عليه السلام به المثلث إنّها مدنية نزلت في عليّ وفاطمة! السورة كلّها))[1].

إنّ الحديث عن الزهراء في رحاب الإيثار والجانب الإنساني لا يمكن تحديده بهذه الظواهر التي ذكرناها، فما لم يذكره التاريخ الرسمي أكثر بكثيرٍ مما ذكر.

---

(١) الطبرسي، مجمع البيان: ٥/٤٠٥.

ومهما يكن من أمرٍ فقد ارتفعت الزهراء بكثيرٍ من ظواهر التكامل الذاتي إلى مراتب الصدّيقين؛ فإذا أضفنا لذلك جبلة نفسها على البرّ المطلق.. وطبيعة ذاتها في حبّ الإحسان إلى الآخرين، مع صدق القول والعمل في وجهٍ واحد، بدت لنا الزهراء كالليلة القمراء المزدهرة بالكواكب اللامعة بالشكل الذي صوّرته وجسّدته الإرادة التكوينية للزهراء دون مبالغة أو مغالاة.

* * *

الزهراء .. والمباهلة

كانت المرأة في العصر الجاهلي بعامة كياناً ذائباً في حياة الرجل، فهي حليفة حظٍّ عاثر، وقرنية عدّ تنازلي.. لا حظوة لها فتتقدّم، ولا إرث لها فتستغني، ولا كرامة فتحترم.

عرفٌ قبلي لا يطاق.. ونظرة عشائرية لا تستبدل.. وتفكير بدويّ لا يتزحزح.. قضى كلّ ذلك بأن تكون المرأة العضو الأشلّ في مجتمع جزيرة العرب.. والسلعة البائرة في سوق عكاظ.. وذي المجاز.. والمجنّة؛ لها في أفضل الأحوال ما يسدُّ الرمق لماماً.. وعليها الخدمة في الرعي والسقي والحرث والحقل والبيت؛ فذلك قدرها.. ومن يهرب من القدر المفروض في المنظور الجاهلي.

وحتّى قريش ذات السيادة الارستقراطية على المجتمع العربي ما كانت تنظر إلى المرأة إلاّ نظرة باهتة ملؤها الجفاف والغلظة والاستهانة تمثلها بأبشع صورة، وأفظع بؤرة.

وكان الازدراء قرين المعاملة القاسية، والاستهجان رفيق حياتها المعقدة في مجتمع التقاليد الموروثة.. وهي بذلك أقرب إلى الموت منها للحياة في

فلسفة وأد البنات ودسّها في التراب، وقد انتزعت الرحمة من تلك القلوب الصّماء فلم تنبض بجنان.. ولم تتفجّر بحبٍّ أبوي يصحّحُ مسيرة هذا التجني السافر على الأرواح البريئة، ويقضي على هذه العادة النكراء المتأصلة.

حتّى إذا بزغت شمس الهدى في مكّة المكرمة بنبوة محمد ﷺ وغمرت بأضوائها بطاح مكّة وسهولها وجبالها، وانتقلت إلى المدينة المنوّرة بسنائها وبهائها، كان للمرأة كيانٌ آخر جديد، وشَمْلٌ حاضنٌ مستقلٌّ بها، ذو أهميةٍ خاصة، استشعرت به المرأة بالكرامة بعد الهوان، وبالعزة بعد الإذلال.. وإذا بها في حضيرة الإسلام رفيقة درب الرجل في السّراء والضرّاء، وقرينته بالحبّ المتبادل، وشطره الثاني المتمّم لشخصيته في صدق المعاشرة، وطيب الملاقاة، وصميم العواطف.

ولأول مرّة في تاريخ العرب ينفرط عِقد الجاهلية المكبّل لحرية المرأة وسعادتها؛ ليستبدل بعقد اجتماعي جديد، ينطلق من مفهوم الإنعتاق والانفتاح على عوالم حرّة لا عهد للنساء بها من ذي قبل.

ويتجسّد ذلك أوّلاً في اندماج روحية النبيّ محمد ﷺ بأحاسيس السيّدة خديجة بنت خويلد زوجته الأولى، فهي أمّ المؤمنين وربّة بيتها، وسكن زوجها، ومالكة إرادتها، وصاحبة تجارتها، وهي التي احتلت الصدارة قلباً وروحاً وقالباً في حياة النبي محمد ﷺ، وقد جرى منها حبّ محمّد في دينه مجرى الدّماء النقيّة في الشرايين، فأعارته صدق الولاء، وبادلها

صدق العشرة، فكانا جنباً إلى جنب في ميدان الإيمان، وبذلت مالها وتجارتها ومقتنياتها في سبيل تشييد الدعائم الأولى لهذا الدين بألف موقف وموقف حتّى قيل: ((ما قام الإسلام إلاّ بمال خديجة وسيف علي..)).

ويا لها من معادلةٍ تتألق فخراً ونبلاً وجلوةً أن يتقاسم ثراء خديجة، وجهاد علي بناء الإسلام، وإقامة قواعده.

إنّه الوعي الدافق الذي فجّره الإيمان، وابتعثه القرآن، وتنطلق رسالة السماء على لسان الرسول الأعظم في جملة الوصايا الفريدة في حقّ المرأة، وهي تنساب كالجدول في الحقول الناظرة: «**رفقاً بالقوارير**» يعني بذلك النساء، والقوارير ذات تركيب زجاجي رقيق، وهو معرّضٌ للصدع بأدنى احتكاك.. والمرأة قلب دافيء رقيق ينصدع بالعذل والتأنيب، ولكنه ينفتح بالحبّ والنصح والتوجيه.

و(المرأة ريحانة لا قهرمانة)).. والريحانة للشمّ والنظر والزينة وأنس الروح.. والقهرمانة للخدمة والعناء والاستبداد.

ويستقبل النبيّ جمهرة النساء المؤمنات والمسلمات.. يفتح لهنّ صدره الرحيب.. يقبل إسلامهنّ.. ويقبل هجرتهنّ، ويقاسمهنّ الرجال في الحقوق والواجبات.

ويمتدح القرآن والمؤمنات إلى جنب المؤمنين في عشرات الآيات

المباركات. . ويعطي لهنّ ما يعطي الرجال من الثواب والمنزلة يوم الجزاء.

ويبيح الإسلام للمرأة الحقّ في التملك. . والإجارة. . والبيع والشراء. . والتجارة والمضاربة وسوى ذلك.

ويجعل أمر زواجها بيدها بإذن وليّ أمرها إن كانت بكراً، وبدونه إن كانت ثيّباً دون قسرٍ أو قهر، أو إكراه.

ويشرّع لها القرآن أحكامها الخاصة بها في الطهر وسواه، والعدّة والطلاق والشؤون الأخرى جزئية وكلّية.

ويشرّع لها الإرث الذي حرمها منه الجاهليون في أبعاده كافة. . وكان مفتاح ذلك قوله تعالى ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَـٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ قلّ. . ﴾(١).

في تفصيلاتٍ كثيرة في آيتي النساء / ١١-١٢، وسواها من آيات القرآن العظيم بما يكفل لها حقّها كاملاً غير منقوص.

وقد يثير هذا النَصَف والنِصْف من الإرث للمرأة إشكاليات وشبهات الأوربيين والمستشرقين وصهاينة العرب، فيتهمون الإسلام بعدم المساواة بين الرجل والمرأة. . بل قد يقرّر كثيرٌ من الحكّام المسلمين للأسف ـ خلاف ذلك بقوانين الأحوال الشخصية، وكأنّهم في غيبوبة من فقه السّماء وتشريع القرآن. . هوسٌ باسم الحرية وفوضى برسم العدالة. . وافتئات بداعي المساواة. .

(١) سورة النساء: ١١.

متجاهلين بل متغافلين أن الرجل ينهض بالعبء الأكبر مالياً . . ولا مسؤولية على المرأة في أطياف كثيرة من المستحقّات المالية . . فالزوج يدفع مهرها وهي تملكه، وهي غير مسؤولة عن السّكن والنفقة وضرورات الاستشفاء، وهي في مؤونة زوجها في الحاجات والألبسة والأثاث والرؤي . . بل وفي كلّ شيءٍ يتعلّق مالياً بشؤون الزوجية، فالزوج هو المسؤول .

وإذا كانت في رحاب أبيها في ظلّ التشريع فهي الفلذة المحبوبة تقول فيستجيب الأب ، وتطلب فيلبّي طلبها . . فهي ملاك في بيت أبيها . . فإذا فقدت الأب كان الأخوان عادة والأخوات والأمّ بمنزلة الكفيل، ولها إرثها لا ينقصُ شيئاً .

ولا أطيل في موضوعٍ تكفّلت كتب الفقه ببحثه في أبعاده كلّها، فليس عليها أن تخدم في بيت الزوجية، وليس عليها إعداد الموائد، ولا إرضاع الأطفال، ولا تنظيف الملابس، ولو أرادت أجراً على ذلك لأعطيت شرعاً، ولكنّه التعاون الأسري، والتكامل في مجتمعنا الإسلامي الذي مثل به الرسول الأعظم، وأهل بيته النماذج المقدسة لهذه الملاحظ أجمع .

والمثال الأروع لذلك فاطمة الزهراء عليها السلام في تعاطي الإسلام لمنزلة المرأة . . فقد كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ذا صلةٍ أبوية حميمةٍ معها في شتّى المجالات، ومعاملته لها أصدق المعاملات، وأقواله بحقّها عديدة تقدّم بعضها وسيأتي الآخر بموقعه من البحث .

وكان للزهراء شأنٌ أيّ شأن في المستويات الرفيعة، ومن أبرزها المقارنة السليمة بينها وبين مريم ابنة عمران، حيث تنطلق الأحاديث النبوية المعتبرة والصحيحة متناً وسنداً باعتبار مريم سيّدة نساء عالمها.. أمّا الزهراء فتتعدّى هذه الحدود؛ لتصبح وتمسي وتبقى سيّدة نساء العالمين(١).

ويدعم هذا أنّها سيّدة نساء أهل الجنة، ومريم ابنة عمران إحدى نساء أهل الجنة(٢).

ويدلّ على صدق ذلك ما روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «**لولا أنّ الله تبارك وتعالى خلق أمير المؤمنين لفاطمة، ما كان لها كفؤٌ على ظهر الأرض من آدم ومن دونه**»(٣).

أمّا الأئمة المعصومون عليهم السلام فكانت الزهراء عليها السلام مثلهم الأعلى في أطاريح البرّ والتقوى والقيّم الإنسانية، والرمز القداستي الذي يشار إليه بالبنان، والبؤرة المركزية في أضواء الإيثار والتضحية والفداء التي تشخص لها الأبصار.

---

(١) ظ: جمهرة تلك الأحاديث في كلّ من: ابن عساكر، تاريخ دمشق: ١/٢٧، تحقيق المحمودي، والطبري، ذخائر العقبى: ٤٣، والذهبي، سير أعلام النبلاء: ٢/١٢٦، والصدوق، علل الشرائع: ١/١٨٢ ـ وسواها.

(٢) ظ: اليافعي، مرآة الجنان: ١/٦١، والفتوني (ت١١٣٨هـ) مخطوط، المركز الإسلامي للدراسات، بيروت، ف٣، ص١٩.

(٣) الكليني، الكافي: ١/٤٦١، والمجلسي، بحار الأنوار: ٤٣/١٠.

أمّا كوكبة الصحابة المنتجبين: كأبي ذرّ وسلمان وعمّار والمقداد وحذيفة بن اليمان، وابن التيهان، وذو الشهادتين وبلال وأضرابهم من القادة الميامين، فكانوا جميعاً وسواهم يقدّسون الزهراء عليها السلام تقديساً يتناسب مع مكانتها من رسول الله، وقدرها في أحاديثه، وقدسيتها لدى أهل بيت العصمة في نظرة شمولية.

ولا غرابة بعد هذا أن نجد الزهراء عليها السلام بأصالتها أحدا أركان المباهلة الخمسة، وهم: محمد، علي، الزهراء، الحسن والحسين صلوات الله عليهم فهذا الرسول الأعظم الذي لا ينطق عن الهوى قد أدخل الزهراء عنصراً نسائياً وحيداً، وبأمر الله تعالى بالهيئة العليا للمباهلة، وكونها العنصر النسائي المشارك بالمباهلة فهو ذو دلالة أنّها من النخبة المختارة التي تصطفّ إلى جنب أبيها وبعلها وبنيها؛ لتباهل نصارى نجران، بنصّ القرآن الحكيم ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾[1]. فكان الحسن والحسين هم الأبناء، والزهراء وحدها هي النساء، والأنفس وحدها هي عليّ؛ لأنّه نفس النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، والنبي لا يدعو نفسه فهو في الصميم، بل يدعو غيره، وهو الداعي بإذن الله.

روى فخر الدين الرازي (ت ٦٠٦هـ) في التفسير الكبير:

---

(١) سورة آل عمران: ٦١.

أنّ النبي ﷺ خرج للمباهلة في مرط أسود، فجاء الحسن عليه السلام فأدخله، ثمّ جاء الحسين عليه السلام فأدخله، ثمّ فاطمة، ثمّ عليّ عليهما السلام

ثمّ قال النبي ﷺ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[1].

ثمّ عقّب الفخر الرازي على ما أورد من الرواية، فقال: ((واعلم إنّ هذه الرواية كالمتفق على صحّتها بين أهل التفسير والحديث))[2].

والتعظيم الفريد المنظور إليه في هذا المضمار أن يستدلّ بهذا الحديث وحديث الكساء كما أورده الرازي واستشهاد النبي ﷺ بجزء من الآية الثالثة والثلاثين من سورة الأحزاب على العصمة عقلياً، وقرآنياً، وحديثياً، وهو عند أصحابنا من المقطوع به.

وإذا كانت الزهراء وحدها لا منافس لها من النساء في المباهلة، كانت العصمة أأكد بلا نزاع بضمّها إلى آية الأحزاب في التزكية والتطهير؛ فيكون ذلك نوراً على نور.

وفي ضوء ذلك يكون امتياز الزهراء عليها السلام على من سواها من النساء نابعاً من الخصائص التكوينية في الاختيار والاجتباء والاصطفاء، فهي في هذا المناخ ممثلة لنساء المسلمين كافة، بل هي ذاتياً فوق نساء المؤمنين في الدرجات العلى.

---

(١) سورة الأحزاب: ٣٣.

(٢) الرازي، مفاتيح الغيب: ٨/٨٥.

وقد دلّت سيرتها التي لا غبار عليها على هذه المؤشرات كافة، وعلى سواها من المشاهد الموازية لهذا الحديث.

وفضلاً عمّا تقدّم، فقد أورد الرازي نفسه: (أنّ النبي ﷺ حينما خرج إلى المباهلة، توجّه نحو علي والزهراء والحسن والحسين قائلاً: «**إذا دعوتُ فأمّنوا**»)[١].

والتأمين قول ((آمين)) بمعنى استجب، ومعنى هذا أنّ هؤلاء الأربعة طلب إليهم الرسول الأعظم ﷺ ((التأمين)) على دعائه! فهل يا ترى أنّ الاستجابة قد اقترنت بهذا التأمين؟ وإلاّ فلماذا طلبَ إليهم ذلك؟ وما السرّ وراء هذا التأمين؟ أعتقد جازماً إذا صحّ ما أورده الرازي عن النبيّ ﷺ أنّ استجابة هذا الدّعاء لا تتحقّق بكلّ أبعادها المرجوّة إلاّ بهذا التأمين!.

فهل يا ترى أنّ تأمين هؤلاء شرط أساسيٌّ في استجابة هذا الدعاء، وإن لم يكن الأمر كذلك! فبماذا يفسّر أمر النبي ﷺ بالتأمين عليه؟ ربّما يكون ذلك إشعاراً بتعظيم هذه الصفوة منضمّاً إلى فضيلة التأمين.. وربّما كان الأمر كما يعلّله الوحيد الخراساني بقوله: (إنّ عبارة ((إذا دعوت فأمّنوا)) تعني أنّ دعائي وأنا النبي الخاتم، هو مجرّد مقتضي، وهناك شرط لفعلية اقتضاء هذا المقتضي.. هو أنفاس فاطمة الزهراء عليها السلام ولابدّ أن ينضمّ تأمينها) إلى دعائي حتّى تتحقّق الإجابة.

---

(١) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: ٨/٨٥.

إنّ تأمين الزهراء عليها السلام شرط.. ومن المحال أن يؤثّر المقتضي بدون تحقّق الشرط.. هذا ما جاء به الوحي، وقضت به السُّنة.. وما كان دعاء النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ليتحقّق حتّى في مثل ذلك الظرف الحسّاس، أي حين مباهلة (نصارى نجران) إلاّ أن ترتفع أربع أيدٍ أخرى بالدعاء))[1].

ومهما يكن من أمرٍ فإنّ حدث المباهلة في أجوائه المفعمة بالخشوع والإنابة والإخبات لله تعالى بقلوبٍ مؤمنة، سيبقى فيضاً من الروح الإلهي الذي يعطّر أنفاس الزهراء.. بل يتعطّر هو بأنفاس الزهراء، وسيظلّ نوراً يتلألأ من غرّة الزهراء ليضيء جبين الدُّنيا ويتوّجها.. وهو يعرج في سماء القدس صعوداً إلى القمم العالية.

ويرى الأستاذ جعفر مرتضى العاملي في كون الزهراء أحد أعضاء المباهلة: ((قضيّة لها مساسٌ ببقاء هذا الدين، وهي تلامس جوهر الإيمان فيه إلى قيام الساعة؛ لأنّ ما يراد إثباته بالمباهلة هو: إثبات بشرية عيسى، ونفي إلوهيته.

وقد خلّد القرآن الكريم للزهراء هذه المشاركة لكي يظهر أنّها عليها السلام قد بلغت في كمالها وسؤددها وفضلها مبلغاً عظيماً، بحيث جعلها الله سبحانه وتعالى بالإضافة إلى النبي والوصي والسبطين، وثيقة على صدق النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فيما يقول، حيث أنّ الله سبحانه وتعالى هو الذي أمر نبيّه بالمباهلة بهؤلاء، ولم يكن ذلك في أساسه من تلقاء نفسه صلى الله عليه وآله وسلم؛ لأنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم وفاطمة عليها السلام

(١) الوحيد الخراساني، مقتطفات ولائية: ١٠٩، ترجمة: عباس نخّي، مؤسسة الإمام، الكويت، ١٩٩٦م.

والحسنان عليهما السلام كانوا وهم كذلك أعزّ ما في هذا الوجود، وأكرم المخلوقات على الله.. وأنّ التفريط بهؤلاء الصفوة الزاكية هو تفريط بكلّ شيء.. وحصر عنصر المرأة بالزهراء عليها السلام في هذه القضية، إنّما يشير إلى أنّ أياً من النساء، لم تكن لتداني الزهراء في المقام والسؤدد والكرامة عند الله تعالى، فلا مجال لادعاء أيّ صفةٍ يمكن أن تجعل لغيرها عليها السلام امتيازاً، وفضلاً على سائر النساء))[1].

وهذا المؤشّر الشامخ بدلائله يجتاح كلّ الأسبقيات إلى الإسلام، والمهاجرين إلى الحبشة، ورجال العقبة الثانية، والمهاجرين السابقين إلى النبي في مسجد قبا، والمهاجرين إلى المدينة المنورة بعد دخول النبي صلى الله عليه وآله وسلم إليها، وأهل بدر، ورجال أحد، وأهل بيعة الرضوان، وصناديد الفتح، فيا لك من سبق يضاف لأسبقيات أهل البيت عليهم السلام في شتّى المقامات، قال تعالى: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾[2].

ومن أسبق من محمد وعلي وفاطمة؟ ومن أقرب من الحسنين؟ ومن أشرف من هؤلاء القادة شرفاً وحسباً ونسباً؟ ومن أزكى منهم عملاً ومجاهدةً وجهاداً؟ ومن أشدّ حرصاً على الإسلام وتوحيد كلمة المسلمين، وإعلاء كلمة الله في الأرض من هذا الجيل الصاعد.

(١) جعفر مرتضى العاملي، مأساة الزهراء: ٤٥ ـ ٤٦، دار المسيرة، بيروت، ١٩٩٧م.
(٢) سورة الواقعة: ١٠- ١٤، وحتى تمام الآية السادسة والعشرين منها.

مكانة الزهراء

مُني التاريخ العربي الإسلامي في عصر الزهراء حتّى نهاية القرن الأول الهجري، بكارثة تراثية وتشريعية في آنٍ واحد.

وكان من مخلّفاتها المرّة.. ومضاعفاتها الفجّة أن اختلط الحابل بالنابل، واستوى الفارس بالراجل.. وعادت المقاييس في منأى عن مقاربة الواقع وخطّ الاعتدال.

ارتفع مستوى هذه الكارثة إلى الحدّ الذي اختفت فيه جمهرة من الوقائع.. وعاد التاريخ باهت اللون في فصول فارغة من لمساته ورشحاته من خلال عاملين أساسيين:

الأول: منع تدوين الحديث النبوي الشريف حذر اختلاطه بالنصّ القرآني! وهو افتراضٌ وهمي، وزعمٌ واهٍ، لا يستند إلى ركنٍ وثيق.. لأنّ القرآن نصٌّ إلهي له خصوصيته التي لا تماثلها على الإطلاق آية ظاهرة قولية بشرية.. مهما ارتفع مستوى تلك الظاهرة في الفصاحة والبلاغة، وضروب البيان والمعاني وأشتات الفن القولي، فللقرآن وهو كلام الله تعالى له طريقته العظمى في الأداء والتعبير والصياغة ودقّة النظم وعجيب التأليف مما لا يشتبه بأيّ نصٍّ

من النصوص العربية شبهاً أو محاكاة أو مجاراة، بل النصوص العربية المتميّزة بالتفوّق البياني شكلاً ومحتوًى ومضموناً عيال على لغة القرآن في الأداء، وهي تستمدّ روعتها من روائع القرآن.. وتفترض كمال نصوصها من شذرات القرآن المتكاملة! وعلى هذا؛ فكيف تتجانس لغة الحديث الشريف وتشتبه بلغة القرآن العظيم.

إنّ لغة القرآن وهي نصٌّ سماوي أقدس، لا تندمج بلغة الحديث الشريف، فلكلّ منهما عوالمه الفنيّة الدقيقة التي تمثّل صفحة بيانية خاصة به، وتقدّم نموذجاً من مكنوناته البلاغية بما لا يلتبس أحدهما بالآخر من خلال الفروق المميّزة لكلّ منهما تركيباً وأسلوباً وصياغة وفنّاً!.

وقد ظهر هذا جلياً حينما فتح باب التدوين فما اختلط القرآن بالحديث، ولا التبس الحديث بالقرآن، وقد مثل وإلى اليوم وحتّى قيام الساعة كلٌّ منهما كياناً مستقلاًّ قائماً بذاته وخصائصه ومقوماته... الخ.

وكان وراء هذا التشدّد في منع التدوين هدفٌ سياسي لا تخفى بوادره، وهو يتلخص بمحاذرة انتشار فضائل أهل البيت عليهم السلام فيما فاه به الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم وخوف تنامي الأفكار المضادة لاتجاه السلطان في ظلّ تلك الأحاديث النبوية الناطقة بأحقية أهل البيت عليهم السلام بمنصب الولاية الإلهية، وامتيازهم بشتّى الكمالات النفسية والمؤهلات العلمية التي تخوّلهم تسلّم

الحكم مضافاً إلى النص، ولا اجتهاد مقابل النصّ، فهم أولى الناس بقيادة الأمة، ومرجعية المسلمين.

العامل الثاني: إنّ التاريخ الذي كتب بعد عهد الزهراء عليها السلام إنّما كتب بلسان المؤرخين الرسميين الذين توجّههم مراكز القوى، وتدرُّ عليهم بالأموال والهبات والأعطيات الضخمة، وتدعمهم دعائياً وإعلامياً.. فهم يكتبون ما يملى عليهم، ويدوّنون مالا يعارض سياسة الحاكمين.. فجاء التاريخ مزوّراً في كثير من صفحاته إلاّ في النزر اليسير الذي يفرض نفسه فرضاً، ولا يكون منه بدّ.. فيدوّن مع الحذر هنا وهناك دون التأكيد عليه، أو الاستزادة منه.

وفي ظلّ هذا التصرُّف الظالم فقدت المقاييس، وانزوت حقائق التاريخ النزيه، وشوّهت صفحات التراث، واندثر الشيء الكثير من معالم أهل البيت، إلاّ ما حدب على إظهاره فحول العلماء، وفطاحل المحدّثين.

ومع تأثير هذين العاملين في مسيرة التاريخ الإسلامي، ووقائع الأحداث، فقد ظهر من مجد أهل البيت عليهم السلام ما ملأ الخافقين شهرةً وذيوعاً وانتشاراً.. ذلك المجد الذي نطق به التاريخ مرغماً.. وتحدّث عنه مبتسراً.. احتضن علياً والزهراء والمعصومين من ذريّتهما.. ولكننا مع الأسف حينما نغوص في غمار الإشكاليات نجد الزهراء عليها السلام في ظلامة ومظلومية في حياتها.. وفي مماتها وفيما وراء هذين.. لأنّ الإفصاح الصريح عن مقامها السامي عند النبيّ.. ومكانتها المرموقة عند الوصيّ.. وفاعليتها الاجتماعية في حياتها القصيرة،

وحنايا نضالها العقائدي.. واثباج جهادها الرسالي.. كلّ ذلك قد يطوّح بأحلام المنحرفين عن الزهراء.. ويهتك ذلك الستار الصفيق الذي يقفون من ورائه؛ لإخماد صوت السّماء.. وبغضّ النظر عن هذا الزخم المعادي لمنهجية الزهراء ودورها الريادي في بناء الإسلام.. فالمفروض موضوعياً أن تحتلّ الصدارة في الروايات والنصوص والآثار.. فالزهراء صاحبة السرّ المستودع.. يغضب النبي لغضبها، ويرضى لرضاها.. وهي أمّ أبيها بالمعنى الذي ذكرناه.. وهي بضعة منه مرّةً.. وقطعةً تارةً.. وشجنة أخرى.. وهي روحه التي بين جنبيه.. وهي التي تحكي كريم قوامه.. وهي التي تفصح عن منطقه.. وهي أول من يدخل الجنة.. وهي التي يؤمر الجمع بغض الأبصار لدى اجتيازها الصراط.. وهي سيّدة نساء العالمين.. إلى غير ذلك من المزايا الخاصة.

ومن كانت تتمتع بمثل هذه الشذرات الثمينة ألا تستأهل شيئاً من الإطناب في لغة التاريخ؟.

أين السائرون بركابها من المؤيّدين لثورتها على النظام ومقاومتها للانحراف؟ ألا صوت لديهم، ألا احتجاج يكتب عنهم؟.. ألا تظلّم يصدر منهم؟ أين أصحاب الأقلام الحرّة في كشف ما زوي عنّا من المآثر؟ أين حفظ الوديعة في أداء حقّها، والتحدّث عن فضائلها، والغوص في لجة معارفها؟ وقد ((كان يغشاها نساء المدينة، وجيران بيتها))[1].

---

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة للإمام علي: ١٩٣/٩.

فماذا كانت تقول لهنّ؟ وبماذا تتحدّث إليهن؟ وما هو محور تلك الأحاديث؟ أليست هي صاحبة رسالة، وربّة قضية.. وكنز علم لا تدرك أعماقه؟.

التاريخ ظلم الزهراء.. ما في هذا شكّ.. وهذا الظلم سيظلُّ بقعة سوداء تتسع شيئاً فشيئاً لتقول لنا: ما ذنبُ محمّد ﷺ حتّى تكافأ ذريّته بهذا العقوق والجحود؟ لقد آثر مجمل التأريخ الصمت المطبق عن قضيّة الزهراء عليها السلام، وكان سكوت الناطقين يوحي لنا بأنّها أكبر من ذكر الفضائل.. وتتبع الآثار.. وأسمى من عبارات الإطراء...

قال ابن الصبّاغ المالكي المكي (ت ٨٥٥هـ): ((فاطمة الزهراء بنت من نزل عليه ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ﴾[١]، ثالثة الشمس والقمر.. بنته خير البشر.. الطاهرة الميلاد.. السيّدة بإجماع أهل السّداد..))[٢].

ومع هذا فإنَّ ضبابية ما قد حجبت أضواء تلك الشّمس.. ورياحاً غريبةً قد أودت بنسمات تلك الزهرة الفوّاحة.. ولعلنا نطفيء شيئاً من الغليل الملتهب في الضّمير بذكر اليسير مما وضعنا عليه اليد، مما ينبيء عن كيانها ومكانتها بوقتٍ واحد:

١ ـ روي أن الزهراء عليها السلام بعثت رسولاً للنبي ﷺ ومعه قلادتها وقرطاها

(١) سورة الإسراء: ١.
(٢) ابن الصّباغ المالكي، الفصول المهمة: ١٤٣.

ومسكتاها، وقالت له: قل له: «**تقرأ عليك ابنتك السلام وتقول: اجعل هذا في سبيل الله**، فلمّا أتاه، قال رسول الله ﷺ: **فعلت فداها أبوها ثلاث مرّات، ليست الدّنيا من محمّد ولا آل محمّد، ولو كانت الدُّنيا تعدلُ عند الله من الخير جناح بعوضة، ما سقى فيها كافراً شربة ماء**.. ثمّ قام فدخل عليها..»[(١)].

٢ ـ حازت الزهراء الشهادة العظمى من رسول الله، فقد روى الإمام علي بن موسى الرضا عن آبائه قال: قال النبي ﷺ: «**الحسن والحسين خيرُ أهل الأرض بعدي وبعد أبيهما، وأمهما أفضل نساء أهل الأرض**..»[(٢)].

٣ ـ روى أبو حمزة الثمالي عن الإمام محمد الباقر عليه السلام عن أبيه عليه السلام عن جدّه عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنّ الله ليغضب لغضب فاطمة.. ويرضى لرضاها**..»[(٣)].

وقد أثار هذا الحديث عدّة تساؤلات.. وقد كرّره أئمة أهل البيت عليهم السلام إعلاءً لشأن الزهراء.. فكان الاستغراب عند بعضهم مقترناً بالإعجاب، والاستفهام منسجماً مع الإقرار، فعن الإمام جعفر الصادق أنّ رسول الله قال لفاطمة: «**إنّ الله عزّ وجل يغضب لغضبك.. ويرضى لرضاك**».

فقال المحدثون: فأتاهُ ابن جريح، فقال: يا أبا عبد الله حُدثنا اليوم حديثاً

---

(١) المجلسي، بحار الأنوار: ٤٣/١٥، عن أمالي الصدوق.
(٢) المصدر نفسه: ٤٣/١٥، عن عيون أخبار الرضا.
(٣) المجلسي، بحار الأنوار: ٤٣/١٦، عن الخصال للصدوق.

استشهره الناس، قال: ما هو؟ قال: حدّثت أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال لفاطمة: «**إنّ الله يغضب لغضبك ويرضى لرضاك**». فقال الإمام الصادق: نعم، إنّ الله ليغضب فيما تروون لعبده المؤمن، ويرضى لرضاه! فقال: نعم، فقال عليه السلام ـ: فما تنكرون أن تكون ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله مؤمنة يرضى الله لرضاها.. ويغضب لغضبها، قال: صدقت ((الله أعلم حيث يجعل رسالته))[١].

٤ ـ وعن مجالس الشيخ المفيد وأمالي الشيخ الطوسي أورد الشيخ المجلسي عن سعد بن أبي وقاص، قال: سمعت رسول الله يقول: «**فاطمة بضعة منّي من سرّها فقد سرّني، ومن ساءها فقد ساءني.. فاطمة أعزّ الناس عليّ**»[٢].

٥ ـ وروى الشيخ الطوسي في الأمالي عن عائشة، قالت: ((أقبلت فاطمة عليها السلام تمشي.. لا والله الذي لا إله إلاّ هو: ما مشيتها تخرم من مشية رسول الله صلى الله عليه وآله، فلمّا رآها قال: «**مرحباً بابنتي مرّتين**.. قالت فاطمة عليها السلام فقال لي: **أما ترضين أن تأتي يوم القيامة سيّدة نساء العالمين.. أو سيّدة نساء هذه الأمة**»[٣].

٦ ـ وعن ابن عباس متحدّثاً بحديث مطنب أورده الصدوق في الأمالي، قال: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان جالساً ذات يوم، وعنده عليّ وفاطمة والحسن

(١) المجلسي، بحار الأنوار: ٤٣/١٦، عن الاحتجاج للطبرسي.
(٢) المجلسي، بحار الأنوار: ٤٣/١٧.
(٣) المجلسي، بحار الأنوار: ٤٣/١٧.

والحسين، فقال ﷺ: «**اللهمّ إنّك تعلم أن هؤلاء أهل بيتي، وأكرم الناس عليّ، فأحبب من أحبّهم، وابغض من أبغضهم.. ووالِ من والاهم.. وعاد من عاداهم.. واعن من أعانهم.. واجعلهم مطهرين من كلّ رجس.. معصومين من كلّ ذنب.. وأيّدهم بروح القدس منك**.. ثمّ رفع ﷺ يده إلى السّماء، وقال: **اللهمّ إنّي أشهدك أنّي محبٌّ لمن أحبّهم، ومبغضٌ لمن أبغضهم، وسلمٌ لمن سالمهم.. وحربٌ لمن حاربهم.. وعدوٌّ لمن عاداهم.. ووليٌّ لمن والاهم**».

وفي الحديث نفسه ذكر شفاعتها للمؤمنات يوم القيامة، وأنّها سيّدة نساء العالمين من الأولين والآخرين))[1].

٧- وفيما روى الصدوق في الخصال، قال: (فيما أوصى به النبي لعلي «**يا عليّ إنّ الله أشرف على الدُّنيا فاختارني منها على رجال العالمين، ثمّ أطلع الثانية فاختارك على رجال العالمين بعدي، ثمّ أطلع الثالثة فاختار الأئمة من ولدك على رجال العالمين بعدك.. ثمّ أطلع الرابعة فاختار فاطمة على نساء العالمين**»)[2].

٨- وفيما أورده الصدوق في معاني الأخبار برواية ابن عباس عن النبي ﷺ أنّه قال: «**إنّ فاطمة شجنةٌ منّي.. يؤذيني ما آذاها.. ويسرُّني ما سرّها.. وإنّ الله تبارك وتعالى ليغضب لغضب فاطمة.. ويرضى لرضاها**»[3].

(١) المجلسي، بحار الأنوار: ٤٣/١٨، وانظر مصادره.
(٢) المصدر نفسه: ٤٣/١٩، وانظر مصادره.
(٣) المجلسي، بحار الأنوار: ٤٣/١٩.

والشجنة هنا: الشعبة والقطعة.. كالغصن من الشجرة تعبيراً من النبي ﷺ عن الرحم الماسة المتصلة المتمسك بعضها ببعض.

٩- وأشاد رسول الله بالإيمان الإلهي عند ابنته الزهراء وباليقين، وهما يملآن قلبها وجوارحها، فقال في حديث طويل رواه أبو ذرّ الغفاري.. قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنّ ابنتي فاطمة ملأ الله قلبها وجوارحها إ يماناً ويقيناً..**»[1].

هذا وقد روى المجلسي في صفحات عدّة كرامات ومآثر للزهراء ومناقب جمّة فيها الكثير من اللطف الإلهي واللمح الغيبي، وتأويل النصّ القرآني جرياً وانطباقاً[2].

١٠- وعن حذيفة بن اليمان أنّ النبيّ قال: «**أتاني ملكٌ فبشّرني أنّ فاطمة سيّدة نساء أهل الجنة، أو نساء أمّتي**»[3].

وكلّ ما تقدّم يشير بوضوح تامٍ إلى مكانة الزهراء عليها السلام وتفضيلها على النساء أجمع، وقد أورد السيّد المرتضى في هذا الشأن قوله: ((التفضيل هو كثرة الثواب بأن يقع إخلاص ويقين ونيّة صافية، ولا يمتنع من أن تكون عليها السلام قد فضّلت على أخواتها بذلك، ويعتمد على أنّها عليها السلام أفضل نساء العالمين

---

(١) المجلسي، بحار الأنوار: ٤٣/٢٠.
(٢) ظ: المجلسي، بحار الأنوار: ٢١، ٢٢، ٢٣، ٤٣/٢٤.
(٣) المصدر نفسه: ٤٣/٢٥.

بإجماع الإمامية، وعلى أنّه ظهر من تعظيم الرسول ﷺ لشأن فاطمة عليها السلام وتخصيصها من بين سائرهنّ ما لا يحتاج إلى الاستدلال عليه))[١].

وهنالك عدّة مشاهد عرفانية الأثر وردت عن سيّدة النساء في كلّ من: أمالي الصدوق / أمالي المفيد / أمالي الطوسي / أمالي المرتضى / أصول الكافي / من لا يحضره الفقيه / الخصال / معاني الأخبار / تحف العقول / الخرائج والجرائح / المناقب.. وغيرها مما يتجه نحو الفضائل مما هو من المسلّمات؛ فعن الأصبغ بن نباتة عن أبي أيوب الأنصاري؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين في صعيدٍ واحد، ثمّ ينادي منادٍ من بطنان العرش إنّ الجليل جلّ جلاله، يقول: نكّسوا وغضّوا أبصاركم فإنَّ هذه فاطمة بنت رسول الله ﷺ تريد أن تمرّ على الصراط**»[٢].

وهناك جملة من الأحاديث تروي جزءاً من عبادتها عليها السلام وتبتلها وخشوعها وخضوعها لله عزّ وجل مما ملأ الصفحات في البحار عن أمهات كتب السيرة والتراجم والتاريخ.. ومن خصائصها أنّها كانت تدعو للمؤمنين والمؤمنات وتسمّيهم.. وتكثر الدعاء لهم.. ولا تدعو لنفسها بشيءٍ، ومما روي أنّ الإمام الحسن عليه السلام قال لها: يا أمّاه لِمَ لا تدعين لنفسك كما تدعين لغيرك؟ فقالت: **يا بني؛ الجار ثمّ الدار**[٣].

وفي علل الشرائع عن الإمام موسى بن جعفر عن آبائه عليهم السلام مثله.. وهذا

(١) المصدر نفسه: ٤٣/٢٥، وانظر مصدره.
(٢) ابن الصباغ المالكي، الفصول المهمة: ١٤٧.
(٣) المجلسي، بحار الأنوار: ٤٣/٥٠.

أمرٌ متواتر في النقل والآثار. ولعلّ من أروع ما روي فيه ظاهرة تولّي شؤون بيتها وتدبير أمورها، وإيثار غيرها حتّى روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال لرجل من بني سعد: «**ألا أحدّثك عنّي وعن فاطمة! إنّها كانت عندي، وكانت من أحبّ أهله إليه، وأنّها استقت بالقربة حتّى أثّرت في صدرها، وطحنت بالرحى حتّى مجلت يداها.. وكسحت البيت حتّى اغبرّت ثيابها، وأوقدت النار تحت القدر حتّى دكنت ثيابها، فأصابها من ذلك ضرّ شديد..**»[1].

وروى الأوزاعي عن الزهري، ما ورد في حلية الأولياء: ((لقد طحنت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله حتى مجلت يداها، وطبّ الرحى في يدها))[2].

وتحدّثت روايات عدّة شؤوناً من قناعتها وعفّتها وإيثار الفقراء والأسرى والمحتاجين.. وقد تحتاج ما تعرضه على أبيها.. وعنده ما يعطيها.. ولكنّه ينعم به على الآخرين.. ويعوّضها عنه بالتسبيح المعروف بتسبيح الزهراء، وهو قول: الله أكبر أربعاً وثلاثين مرّة.. وقول: الحمد لله ثلاثاً وثلاثين مرّة.. وسبحان الله ثلاثاً وثلاثين مرّة.. ويؤتى به عقيب كلّ صلاة.

وقد شاهدها سلمان المحمدي وعليها من الستر والملبس ما خشن وبلي.. أو قل: إنّه شملة مرقّعة، فبكى وقال: واحزناه.. إنّ بنات كسرى وقيصر لفي السندس والحرير.. وابنة محمد صلى الله عليه وآله عليها شملة صوف خلقة.. خيطت في اثني عشر مكاناً))[3].

(١) المجلسي، بحار الأنوار: ٤٣/٥١.
(٢) المجلسي، بحار الأنوار: ٤٣/٥١.
(٣) المصدر نفسه: ٤٣/٥٤.

الفصل الثاني

الزهراءُ في خضمّ الأحداث

١ ــ انفتاح الزهراء.

٢ ــ خطبة الزهراء في المسجد النبوي.

٣ ــ تقييم خطبة الزهراء.

٤ ــ فدك والإرث وسهم ذوي القربى.

٥ ــ دعوى الزهراء.

٦ ــ صدق الزهراء.

٧- دعوى الزهراء.. رسالية لا مالية.

٨- الزهراء.. ومنصب الولاية الإلهية.

انفتاحُ الزهراء

كان انفتاحُ الزهراء عليها السلام على هموم الأمة مؤشّراً رسالياً فذّاً، وحقَّ لها أن تنفتح؛ لأنّها الوريث الشرعي لنبيّ هذه الأمّة، والوريث الروحي لتراث هذا الدين الخالد.

ولم يكن انفتاح الزهراء المثالي اعتباطاً بل كان ضرورياً ضرورة تفرضها مرحلة الانحراف عن خطّ أهل البيت.. ولمْ يكن صادراً عن عواطف وإيحاءات أسرية.. إنّه اصطفاف تاريخي موحّد ووقوف إلى جنب أمير المؤمنين لدى انحسار عصر النبوة، وقيام مرجعية الصحابة في الدولة الفتية.

وكان هذا الانفتاح المنظّم انعطافاً فوقياً في حياة الزهراء بإزاء كشف الحقائق، ومجابهة الأحداث.. وذلك امتداد طبيعي للدور الرسالي المبرمج الذي نهضت به في ظروفٍ خطيرة جدّاً.. إذ استلهمت واقع الإسلام مرتبطاً بقيادة أهل البيت في ظلّ تأكيدات الرسول الأعظم عليه باعتبارهم الممثلين الحقيقيين للوصاية والقيمومة على الإسلام.

وحينما أبصرت الزهراء خضمّ النزعات الجادة في إطفاء جذوة هذه الشعلة.. نهدت بحزمٍ وعزمٍ لصدِّ هذا الاعتداء السافر.. وردّ تلك الاتجاهات

المغلّفة بطريقتها الخاصة بالانفتاح على الأحداث لمتابعتها، والمقاومة السلمية حيناً، والمقاومة الهادفة حيناً آخر.. ونريد بالمقاومة الاحتجاج والمناظرة وصراحة القول بحيث لا تأخذها في الحقّ لومة لائم.

وكانت الزهراء في الصميم من مشكلات العصر، والعمق من إشكاليات الفترة الزمنية الجديدة، وهي تراها طارئة على الأفق الإسلامي.. فحدبت في محاولة شجاعة تدرأ المشكلات وتهذيب الإشكاليات بزخم تعبوي حاشد من الأدلة والبراهين والحجج؛ لترسيخ مبدأ القيادة بإمامة أهل البيت، وخلافتهم للرسول الأعظم ﷺ.. وكان علمها بأصول الدين.. وتبحرها في معالم الشريعة، وتلقيها تفسير القرآن وعلومه من أبيها وبعلها.. كان حرياً بأن يجعلها في مصافّ الوعي الرسالي أوّلاً بأوّل.. وهي تتدارسها حيناً.. وترويها شفاهاً حيناً آخر.. وتكتبها بعض الأحايين.. وكانت تلك الإفاضات التشريعية التي تلقتها بجوار رسول الله ﷺ زائراً لها أو عائداً أو مشتاقاً قد أخذتها عن أبيها مباشرةً وعن زوجها مشافهةً دون وساطة، أو عِبْر رواية عن أحد.. وإذا كان الأمر كذلك، وهو كذلك، فالزهراء ـ إذن أحد روافد الشريعة الغراء دون مكابرة.. وسيتضح فيما بعد مدى تمرّسها العريق بأصول الدين وأحكام الشريعة في ضوء خطبها وحجاجها وانفتاحها العلمي بحيث لم يستطع أحد المجابهة في الردّ عليها إلاّ جزافاً، ولا الاعتراض إلاّ مغالطة.

وقد تحمّلت الزهراء سيلاً من الرزايا والمحن بإزاء انفتاحها على الأمّة

لبيان الرأي الجريء في التحديّات المعاصرة لها، وكابدت الآلام النفسية والأمراض الجسدية جرّاء ذلك.. وتعرّضت لسطوة الاعتداء الأثيم كما سترى ذلك بموقعه ولكنّها قامت بما ينبغي لها أن تقوم به في سبيل ترصين الأسس القويمة لمبدأ الإمامة في الإسلام، وهو هدفها المركزي.

يقول الشهيد السيّد محمد باقر الحكيم: ((لقد قامت الزهراء بدور يمكن أن نقول فيه: لولا وقوف في ذلك اليوم إلى جانب أمير المؤمنين عليه السلام لكان من الممكن أن تخفى الإمامة على الأجيال التي جاءت بعد عليّ عليه السلام وتتشوّه وتتغيّر.. ولولا إكمالها دور علي عليه السلام في ذلك اليوم لكان من الممكن اختفاء هذه الحقيقة على كلّ المسلمين.. ويبقى المسلمون في ضلالٍ وبُعدٍ عن الواقع الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

لقد كان للزهراء الدور العظيم في حفظ الإسلام والحقائق الإسلامية، والمنهج والمذهب الصحيح الذي توارثناه عن أئمة أهل البيت عليهم السلام.

وهذا الدور شبيه بدور الإمام الحسين عليه السلام بتضحيته وفدائه، والذي أكملته العقيلة زينب عليها السلام، ولولا هذا التكامل في الأدوار بين الحسين وزينب عليها السلام لم يحفظ الدين ولم يبق)) [١].

وقد لحظت الزهراء عليها السلام أنّ خطّاً جديداً قد فجأ المسلمين باجتهاداته

---

(١) محمد باقر الحكيم، الزهراء.. أهداف.. مواقف... نتائج: ٤٢، وما بعدها، مؤسسة تراث الشهيد الحكيم، مطبعة العترة الطاهرة، النجف الأشرف، ٢٠٠٦م.

الخاصة بنظر يخالف الخطّ الذي ينبغي أن يكون تنفيذاً لأوامر رسول الله ﷺ في إرساء قواعد خلافته في النصّ على صاحبها في مواطن كثيرة كان أبرزها يوم الغدير بعد حجّة الوداع في الثامن عشر من ذي الحجة قبل وفاته بسبعين يوماً بالضبط.

وقد انساق وراء هذا الاتجاه المعاكس جمهور المسلمين رهباً ورغباً.. بتفصيلات ليس هذا موقع بحثها.

وقد ثبت قلّةٌ من المسلمين الأبرار على الخطّ النبوي المستقيم، وكانوا يمثلون النخبة الصادقة، من المهاجرين بخاصة، وبني هاشم بعامة، وبعض الأنصار.. وقد أنكر قسمٌ منهم مجريات هذا الحدث المأساوي في استبعاد أهل البيت عليهم السلام عن القيادة.. ولكن نكيرهم كان صرخةً في وادٍ.

وفي حمأة هذا المناخ الساخن كان انفتاح الزهراء على الأمّة.. إلقاءً للحجّة.. ومحاذرة على مسيرة الإسلام من الانحراف. انفتحت على المهاجرين والأنصار وهم الملأ.. قصدتهم في عقر دارهم.. وتحدّثت إليهم برباطة جأشٍ، وقوّة بصيرة، وبلاغة لسان.. فلم يغيّروا شيئاً.. واعتذروا بسبق البيعة، ونفاذ الأمر.. إلاّ عصابة قليلة ستتجلّى مواقفهم الجريئة فيما بعد.

وكان هذا التحرّك من الزهراء عليها السلام تحرُّكاً ايجابياً بوعيٍ رسالي، استجابة لغيرة قصوى على مصير الأمة.. وحميّة مثلى على الدين من التآكل.. ولم

يكن نابعاً من تعبير عاطفي نحو أمير المؤمنين عليه السلام، فهي أكبر من الازدواجية في المعايير.. ولكنّه التكليف الشرعي حتّى الإنذار.

وانفتاح الزهراء هذا على جملةٍ من المهاجرين والأنصار لم يتعدّ الميزان في وضع الأمور بنصابها.. ولكنّها منيت من ذلك بالخيبة الآنية بعد تجربة هؤلاء، واختبارهم عملياً.. وإن ظفرت بالنصر المستقبلي في إيقاظ المشاعر فيما بعد، وقد صوّرت هذه الخيبة لنساء المهاجرين والأنصار اللاتي تفقدنها عند اشتداد المرض بها كما سيأتي.

وقد ثبت للزهراء عليها السلام أنّ القضية أمرٌ دبّر بليل، ولم يكن عفوياً.. وتكفّلت بإعداده قيادة منظمّة، ودرسته من ثناياه كافة.. مُقدّمةً أطروحة بديلة عن قيادة أهل البيت عليهم السلام في ظلّ وقائع مشهودة سبقت حدث السقيفة.. وكانت جذور ذلك ممتدة إلى العهد القريب.. ويمكن إجمال هذا الإعداد بنقاطٍ شرّق بها المؤرّخون وغرّبوا، وأهمّها:

١ ــ إنكار بيعة الغدير بدلالتها على الولاية الإلهية.. وتفسيرها بمنظورٍ بعيد عن النصّ القرآني في إرادته الوحيدة.

٢ ــ التنكر الصريح لحديث الثقلين المتواتر عن النبي بعشرات الطَرق **«إنّي مخلّفٌ فيكم الثقلين ما إن تمسّكتم بهما لن تضلُّوا بعدي: كتاب الله، وعترتي أهل بيتي، وإنّهما لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض»**[1].

(١) الحر العاملي، وسائل الشيعة: ٢٧/٣٤، ابن الأثير، جامع الأصول: ١/١٨٧.

٣ ــ تأويل آية التطهير، وجعلها مختصّة بنساء النبي خلافاً للسُّنّة العملية في حديث الكساء المتواتر.. ومجانبة لسياق النصّ في ضمائره المذكّرة.

٤ ــ تصاعد موجة النفاق بالمدينة المنوّرة في استهداف أهل البيت عليهم السلام، ومعالم الدين الحنيف.

٥ ــ التآمر على رسول الله صلى الله عليه وآله والإيقاع به لدى عودته من غزوة تبوك.. وقذف راحلته بالدباب.. ومحاولة دحرجته بالوادي.. وإسرار النبيّ بأسماء هذه الجماعة لحذيفة بن اليمان حتّى سمي صاحب سرّ رسول الله[١].

٦ ــ تخلّف كبار الصحابة عن الالتحاق بجيش أسامة، وروي أنّه صلى الله عليه وآله قال: «**أنفذوا جيش أسامة.. لعن الله من تخلّف عن جيش أسامة**»[٢].

٧ــ رزية يوم الخميس، حينما أمر النبي صلى الله عليه وآله عند وفاته بكتف ودواة؛ ليكتب شيئاً: «**هلمُّوا أكتب لكم كتاباً لا تضلُّوا بعده أبداً**».

وقد رفضوا ذلك.. وقالوا: حسبنا كتاب الله! ورموا النبيّ صلى الله عليه وآله بالهجر تارةً.. وبالوجع تارة أخرى[٣].

٨ ــ تغلغل الفكر الجاهلي القائل: بكون القضية قضية ملك لا نبوة! كما

(١) ظ: تمام الواقعة في، المجلسي، بحار الأنوار: ٢/٢٤٧.
(٢) المرجع السابق: ١٠٧/ ٢٨.
(٣) البخاري، صحيح الخاري: ١/٣٧، ومسلم، صحيح مسلم: ٥/٧٦.

قال أبو سفيان للعباس عمّ النبي ((يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً، فقال العباس: ويحك إنّها النبوة))[١].

وكان هذا قرب فتح مكة.. والنبي في طريقه إليها.

وكان هذا المفهوم يمثل خطراً صريحاً على الإسلام.. وقد روّج له رعيلٌ من المنافقين، ومسلمة الفتح، والسائرون بركابهم، والناس قريبو عهد بالجاهلية.. ولمّا يتغلغل الدين الجديد ويترسّخ في القلوب.

كلّ هذه الإشكاليات كانت نصب عيني الزهراء عليها السلام.. ولكنّها سارت بقضيّتها قدماً على هذا الوجه، ولولا ذلك لبقيت قضية الإمامة غير واضحة المعالم.. ولكنّ الزهراء ابنة أبيها.. وأمّ أبيها.

وقد ذهب عمر بن الخطاب رضي الله عنه غير مذهب الزهراء عليها السلام فرأى أنّ ما أقدمت عليه السقيفة هو الصواب، فقال لابن عبّاس ما رواه الطبري (ت ٣١٠هـ): ((.. فاختارت قريش لأنفسها فأصابت ووفقت)).

فطلب ابن عباس الكلام فأذن له، فقال في معرض الردّ عليه: ((أمّا قولك: اختارت قريش لنفسها فأصابت ووفقت، فلو أنّ قريشاً اختارت لنفسها حيث اختار الله عزّ وجل لكان الصواب بيدها، غير مردود ولا محسود.. وكان ذلك محاججة طويلة اكتفينا منها بموضع الشاهد[٢].

(١) المجلسي، بحار الأنوار: ٢١/١٠٣.
(٢) ظ: الطبري، تاريخ الرسل والملوك: ٣/٢٨٩.

ومع كلّ هذا الاتجاه المعاكس لاتجاه رسول الله ﷺ في المواقف كلّها.. فقد ربطت القضية بالحسّ القبلي لدى قريش.. بينما ربطت الزهراء ذلك بالمنظور الإلهي.. وفرقٌ بين الأمرين.

ولم يكن انفتاح الزهراء على القوم بمعزلٍ عن قيادة أمير المؤمنين ورأيه.. فما كانت لتعدو إشارته.. ولا لتخالف أمره.. بل هما مشتركان في هذا التخطيط الحضاري في الإنكار السلمي، ومقابلة القرار القرشي بالردّ الحاسم، والرفض الصارخ.

واكتفى أمير المؤمنين عليه السلام للظروف الخاصة والمحيطة به.. اكتفى بانفتاح الزهراء بهذا المنطق الذي أفلج القوم.. فلاذوا بالصّمت حيناً.. وبالاعتذار حيناً آخر.. والقعود عن المجابهة وهو الأمر الواقع الذي كان.

ولم يشأ الإمام علي عليه السلام أن يناضل عن حقّه بالسّيف.. ولا أن يتذرّع بقتال القوم.. والإسلام بعد في فجره، ورأى أنّ الصبر هو الأحرى به ملتزماً بوصية رسول الله ﷺ بالإغماض ولو إلى حين عن حقّه دون الدُّخول في هرجٍ ومرج، لا أول له ولا آخر، وقال الإمام كلمته المشهورة: «**والله لأسلمن ما سلمت أمور المسلمين، ولم يكن فيها جورٌ إلاّ عليّ خاصة**»[1].

وهكذا كان.. فقد نهد الإمام بوظيفة مثالية في الهدوء والسكينة

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة للإمام علي: ١٦٦/٦.

والإعراض عن القتال الدامي والنضال المسلّح حفاظاً على وحدة المسلمين.

ولقد حمّلت الزهراء بأسلوبها الرصين في الخطاب والإبلاغ الطبقة المهادنة والواعية مسؤولية ضياع الخلافة.. وهم بمشهد ومسمع.. بين صامتٍ لا حراك به، ومتوثّبٍ لا يقدر على شيء، ومتفرّجٍ مذبذب بين هؤلاء وهؤلاء.. والمنطق للعنف والقوة.. وعليٌّ آثر الصبر والتحمّل.. فالدين جديد.. والانفلات منه محتمل لدى الناس.

ونشير هنا أنّ الولاية الإلهية لا تعني تسلّم زمام الحكم.. والإمام هو الإمام المفترض الطاعة حكم أو لم يحكم.. وكان اكتفاء الإمام علي عليه السلام بما قدّمته الزهراء عليها السلام دليلاً على حنكته السياسية وقيادته الفذّة.

ولم يكن لغير الزهراء عليها السلام الحراك السياسي الفاعل بهذا المستوى من المجابهة التي تعدّ مقاومة فعلية لقرار السقيفة.. وكانت قادرة أن تعبّر عن رأيها صراحة دون تلميح.. وقد أهلتها مكانتها المرموقة في المجتمع أن تتصدّى لكشف الزيف والدجل والابتزاز.. وكانت خطبتها الشهيرة في المسجد النبوي.. ومخاطبتها للمهاجرين والأنصار.. واستقبالها لجمهرة من نساء أهل المدينة، وخطبتها البليغة فيهن.. ومحادثة الرجال والنساء في القضية الأصل.. كان لكلِّ ذلك معنى الاستمرارية في التصدّي المتنوّع لمؤتمر السقيفة.. وقد يشكّل ذلك نقطة انطلاقٍ محورية في فتح باب الجهاد قولاً وعملاً.. مما كان ينبغي أن يقوم به زعماء المهاجرين والأنصار.. ولكنّهم لم يفعلوا ذلك لعوامل يطول شرحها.. ولكنّ الزهراء عليها السلام وقفت وجهاً

لوجه أمام مسؤوليتها الرسالية.. وتجرّعت جرّاء ذلك الغصص والآلام والهجوم على الدار.. وكان إفراز هذه التناقضات قد أدّى إلى استشهادها المبكّر في ريعان الشباب.. بيدَ أنَّها انتصرت انتصاراً ساحقاً مستقبلياً.. فظلامتها قد انحسرت عن تعرية التاريخ الرسمي لأجيالنا.. وصوتها المدوّي النابض قد شقّ طريقه إلى القلوب.. فبقدر انفتاحها على الأمّة كان انفتاح الأمّة لها من الأعماق.. ونريد بذلك الأمّة الواعية التي تستلهم قيم الرسالة بنفوسٍ مطمئنة، وهي تنظر بموضوعية إلى ملحمة الزهراء الخالدة.. فتثبت على المبدأ صلابةً وأصالة.

خطبة الزهراء في المسجد النبوي

من نافلة القول التأكيد على مقدرة الزهراء البيانية.. والتحدّث عن بلاغتها في فصل الخطاب.. فهي ابنة أفصح من نطق بالضاد، وهي زوج من فتق البيان على ألسنة العرب.. تمرّست بلاغة القول في البيت النبوي..فكانت تحكي عذوبة منطق الرسول الأعظم ﷺ، ورصانة تعبير الإمام علي عليه السلام.. ولا أطيل بذلك أكثر من هذا.

وبين يدي البحث ((خطبة الزهراء)) في المسجد النبوي على رؤوس الأشهاد احتجاجاً على أبي بكر رضي الله عنه في شؤون الخلافة وقضايا الإرث، وسهم ذوي القربى والنحلة.. وهي الخطبة الغراء التي أوردتها الأسانيد المعتبرة، وتناقلتها كتب الثقات، واشتملت عليها روايات القدامى، ويرويها بنو هاشم ويعلّمونها أبناءهم.. ونوردها برواية ابن أبي طيفور (ت ٢٨٠هـ)، قال أغلب المؤرّخين عن عائشة أمّ المؤمنين وسواها:

لّما سمعت فاطمة إجماع أبي بكر على منعها فدكاً والإرث، وسهم ذوي القربى، لاثت خمارها على رأسها، واشتملت بجلبابها، وأقبلت في لّمةٍ من حفدتها ونساء قومها.. تطأ ذيولها.. ما تخرم من مشية رسول الله ﷺ شيئاً،

فدخلت عليه وهو في حشدٍ من المهاجرين والأنصار وغيرهم، فنيطت دونها ملاءة فجلست، ثمّ أنّت أنّة أجهش لها القوم بالبكاء، فارتجّ المجلس ثمّ أمهلت هنيهة حتّى إذا سكنّ نشيج القوم، وهدأت فورتهم، افتتحت الكلام بحمد الله والثناء عليه، والصلاة على رسوله أبيها ﷺ فعاد القوم في بكائهم، فلمّا أمسكوا عادت في كلامها، وقالت:

«الحمد لله على ما أنعم، وله الشكر على ما ألهم، والثناء بما قدّم، من عموم نِعَمٍ ابتداها، وسبوغ آلاءٍ أسداها، وتمام نعم والاها، جمّ عن الإحصاء عددها، ونأى عن الجزاء أمدها، وتفاوت عن الإدراك أبدها، وندبهم لاستزادتهم بالشكر لاتصالها، واستحمد إلى الخلائق بإجزالها، وثنى بالندب إلى أمثالها، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، كلمة جعل الإخلاص تأويلها، وضمن القلوب موصولها، وأنارَ في التفكّر معقولها؛ الممتنع من الأبصار رؤيته، ومن الألسن صفته، ومن الأوهام كيفيته، ابتدع الأشياء لا من شيء كان قبلها، وأنشأها بلا احتذاء أمثلة امتثلها، كوّنها بقدرته، وذرأها بمشيئته، من غير حاجة منه إلى تكوينها، ولا فائدة له في تصويرها، إلاّ تثبيتاً لحكمته، وتنبيهاً على طاعته، ووضع العقاب على معصيته، ذيادة لعباده عن نقمته، وحياشاً لهم إلى جنّته؛ وأشهد أن أبي محمداً ﷺ عبده ورسوله، اختاره وأنتجبه قبل أن أرسله، وسمّاه قبل أن اجتباه، واصطفاه قبل أن ابتعثه، إذ الخلائق بالغيب مكنونة، وبستر الأهاويل مصونة، وبنهاية العدم مقرونة، علماً من الله بمآل الأمور، وإحاطةً

بحوادث الدّهور، ومعرفة بمواقع المقدور، ابتعثه الله تعالى إتماماً لأمره، وعزيمة على إمضاء حكمه، وإنفاذاً لمقادير حتمه، فرأى الأمم فرقاً في أديانها، عكّفاً على نيرانها، عابدةً لأوثانها، منكرةً لله مع عرفانها، فأنار الله تعالى بأبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ظُلَمَها، وكشف عن القلوب بهمها، وجلا عن الأبصار غممها، وقام في الناس بالهداية، وأنقذهم من الغواية، وبصّرهم من العماية، وهداهم إلى الدين القويم، ودعاهم إلى الصراط المستقيم، ثمّ قبضه إليه قبض رأفة واختيار، ورغبة وإيثار، فمحمد صلى الله عليه وآله وسلم عن تعب هذه الدار في راحة قد حفّ بالملائكة والأبرار، ورضوان الربّ الغفار، ومجاورة الملك الجبار صلّى الله على أبي نبيّه وأمينه على وحيه وصفيّه، وخيرته من الخلق ورضيه، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

ثمّ التفت الزهراء عليها السلام إلى أهل المجلس، وقالت:

أنتم عباد الله نصب أمره ونهيه، وحملة دينه ووحيه، وأمناء الله على أنفسكم، وبلغاؤه إلى الأمم، وزعيم حقّ له فيكم، وعهد قدّمه إليكم، وبقيّة استخلفها عليكم: كتاب الله الناطق، والقرآن الصادق، والنور الساطع، والضياء اللامع، بينة بصائره، منكشفة سرائره، متجلّية ظواهره، مغتبطٌ به أشياعه، قائدٌ إلى رضوان الله أتباعه، مؤدٍّ إلى النجاة استماعه، به تنال حجج الله المنوّرة، وعزائمه المفسّرة، ومحارمه المحذّرة، وبيناته الجالية، وبراهينه الكافية، وفضائله المندوبة، ورخصه الموهوبة، وشرائعه

المكتوبة، فجعل الله الإيمان تطهيراً لكم من الشرك، والصلاة تنزيهاً لكم عن الكبر، والزكاة تزكية للنفس، ونماءً للرزق، والصيام تثبيتاً للإخلاص، والحجّ تشييداً للدين، والعدل تنسيقاً للقلوب، وطاعتنا نظاماً للملّة، وإمامتنا أماناً من الفرقة، والجهاد عزّاً للإسلام، وذلاً لأهل الكفر والنفاق، والصبر معونة على استيجاب الأجر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مصلحة للعامة، وبرّ الوالدين وقاية من السّخط، وصلة الأرحام منسأة في العمر، والقصاص حقناً للدماء، والوفاء بالنذر تعريضاً للمغفرة، وتوفية المكاييل والموازين تغييراً للبخس، والنهي عن شرب الخمر تنزيهاً عن الرجس، واجتناب القذف حجاباً عن اللعنة، وترك السرقة إيجاباً للعفة، وحرّم الله الشرك إخلاصاً له بالربوبية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾[1].

وأطيعوا الله فيما أمركم به، ونهاكم عنه فـ ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[2].

أيُّها الناس: اعلموا أنّي فاطمة، وأبي محمد صلى الله عليه وآله أقولُ عوداً وبدءاً، ولا أقول غلطاً، ولا أفعل ما أفعل إلاّ شططاً، ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ

(١) سورة آل عمران: ١٠٢.

(٢) سورة فاطر: ٢٨.

رَّحِيمٌ ﴾[١]. فإنّ تعزوه وتعرفوه تجدوه أبي دون نسائكم، وأخا ابن عمّي دون رجالكم، ولنعم المعزّي إليه، فبلغ الرسالة صادعاً بالنذارة مائلاً عن مدرجة المشركين ضارباً ثبجهم، آخذاً بكظمهم، داعياً إلى سبيل ربّه بالحكمة والموعظة الحسنة، يكسّر الأصنام، وينكث الهام، حتّى انهزم الجمع وولّوا الدبر، وحتّى تفرّى الليل عن صبحه، وأسفر الحقّ عن محضه، ونطق زعيم الدين، وخرست شقائق الشياطين، وطاح وشيظ النفاق، وانحلّت عقدة الكفر والشقاق، وفهتم بكلمة الإخلاص، في نفرٍ من البيض الخماص، وكنتم على شفا حفرةٍ من النار، مذقة الشارب، ونهزة الطامع، وقبسة العجلان، وموطيء الأقدام، تشربون الطرق، وتقتاتون القِدّ، أذلّة خاسئين، تخافون أن يتخطّفكم الناس من حولكم، فأنقذكم الله تبارك وتعالى بابي محمد ﷺ بعد اللتيا والتي، وبعد أن مُني ببهم الرجال، وذؤبان العرب، ومردة أهل الكتاب: ﴿كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُ ﴾[٢]، أو نجم قرن للشياطين، أو فغرت فاغرة من المشركين، قذف أخاه في لهواتها فلا ينكفيء حتى يطأ صماخها بأخمصه، ويخمد لهبها بسيفه، مكدوداً في ذات الله، مجتهداً في أمر الله، قريباً من رسول الله ﷺ سيّداً في أولياء الله، مشمّراً ناصحاً، مجدّاً كادحاً، وأنتم في بلهنية من العيش، وادعون فاكهون آمنون، تتربّصون بنا الدوائر، وتتوكّفون

(١) سورة التوبة: ١٢٨.

(٢) سورة المائدة: ٦٤.

الأخبار، وتنكصون عند النزال، وتفرُّون من القتال، فلمّا اختار الله لنبيّه ﷺ دار أنبيائه، ومأوى أصفيائه، ظهرت فيكم حسيكة النفاق، وسمل جلباب الدين، ونطق كاظم الغاوين، ونبغ خامل الأقلين، وهدر فنيق المبطلين، فألفاكم لدعوته مستجيبين، وللغرّة فيه ملاحظين، ثمّ استنهضكم فوجدكم خفافاً، وأحمشكم فألفاكم غضاباً، فوسمتم غير إبلكم، وأوردتم غير شربكم، هذا والعهد قريب، والكلم رحيب، والجرح لمّا يندمل، والرسول لمّا يقبر، إبتداراً زعمتم خوف الفتنة ﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾[1].

فهيهات منكم، وكيف بكم، وأنّى تؤفكون، وهذا كتاب الله بين أظهركم: أموره ظاهرة، وأحكامه زاهرة، وأعلامه باهرة، وزواجره لائحة، وأوامره واضحة، قد خلّفتموه وراء ظهوركم، أرغبة عنه تدبرون، أم بغيره تحكمون ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾[2]. ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[3]

ثمّ لم تلبثوا إلاّ ريثما تسكن نفرتها، ويسلس قيادها، ثمّ أخذتم تورون وقدتها، وتهيجون جمرتها، وتستجيبون لهتاف الشيطان الغوي، وإطفاء نور الدين الجلي، وإهماد سنن النبي الصفي، تسرّون حسواً في

---

(١) سورة التوبة: ٤٩.

(٢) سورة الكهف: ٥٠.

(٣) سورة آل عمران: ٨٥.

ارتغاء، وتمشون لأهله في الخَمَر والضّرّاء، ونصبرُ منكم على مثل حزّ المُدى، ووخز السنان في الحشا، وأنتم الآن تزعمون أن لا إرث لي. ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾(١).

أفلا تعلمون؟ بلى قد تجلّى لكم كالشمس الضاحية أنّي ابنته. ويا أيّها المسلمون أأغلب على إرثي؟.

يا ابن أبي قحافة أفي كتاب الله أن ترث أباك ولا أرث أبي، لقد جئت شيئاً فرياً، أفعلى عمدٍ تركتم كتاب الله، ونبذتموه وراء ظهوركم إذ يقول ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ﴾(٢).

وقال فيما اقتصّ من خبر يحيى بن زكريا عليه السلام ﴿ فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ﴾(٣).

وقال ﴿ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾(٤).

إيهاً بني قيلة تريد الأنصار أأهضم تراث أبي، وأنتم بمرأى منّي ومسمع، ومنتدى ومجمع، تلبسكم الدعوة، وتشملكم الخبرة، وأنتم ذوو العدد والعدّة، والأداة والقوة، وعندكم السلاح والجُنّة، توافيكم الدعوة

---

(١) سورة المائدة: ٥٠

(٢) سورة النمل: ١٦.

(٣) سورة مريم: ٥-٦.

(٤) سورة الأنفال: ٧٥.

فلا تجيبون، وتأتيكم الصرخة فلا تغيثون، وأنتم موصوفون بالكفاح، معروفون بالخير والصلاح، والنخبة التي انتخبت، والخيرة التي اختيرت لنا أهل البيت، قاتلتم العرب، وتحمّلتم الكدّ والتعب، وناطحتم الأمم، وكافحتم البهم، فلا نبرح وتبرحون، نأمركم فتأتمرون، حتّى إذا دارت بنا رحى الإسلام، ودرّ حلب الأيام، وخضعت نعرة الشرك، وسكنت فورة الإفك، وخمدت نيران الكفر، وهدأت دعوة الهرج، واستوسق نظام الدّين، فأنّى حرتم بعد البيان؟ وأسررتم بعد الإعلان، ونكصتم بعد الإقدام، وأشركتم بعد الإيمان، بؤساً لقوم ﴿نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[1].

ألا قد أرى أن قد أخلدتم إلى الخفض، وأبعدتم من هو أحقّ بالبسط والقبض، وركنتم إلى الدعة، ونجوتم من الضيق بالسّعة، فمججتم ما وعيتم، ووسعتم الذي تسوّغتم فـ ﴿إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾[2].

ألا وقد قلت ما قلت على معرفةٍ مني بالخذلة التي خامرتكم، والغدرة التي استشعرتها قلوبكم، ولكنّها فيضة النفس، وبثّة الصدر، ونفثة الغيظ، وتقدمة الحجة، فدونكموها فاحتقبوها دَبِرة الظهر، نقبة الخفّ،

(١) سورة التوبة: ١٣.
(٢) سورة إبراهيم: ٨.

باقية العار، موسومة بغضب الله وشنار الأبد، موصولة بنار الله الموقدة، التي تطلع على الأفئدة، فبعين الله ما تفعلون ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[١].

وأنا ابنة نذير لكم بين يدي عذابٍ شديد ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ﴾[٢][٣].

فأجابها أبو بكر بقوله: (يا ابنة رسول الله لقد كان أبوك بالمؤمنين عطوفاً كريماً رؤوفاً رحيماً، وعلى الكافرين عذاباً أليماً وعقاباً عظيماً، فإن عزوناهُ وجدناهُ أباك دون النساء، وأخا إلفك دون الإخلاّء، آثره على كلّ حميم، وساعده في كلّ أمرٍ جسيم، لا يحبّكم إلاّ كلّ سعيد، ولا يبغضكم إلاّ كلّ شقيّ، فأنتم عترة رسول الله ﷺ الطيّبون، والخيرة المنتجبون، على الخير أدلتنا، وإلى الجنة مسالكنا، وأنت يا خيرة النساء، وابنة خير الأنبياء، صادقة في قولك، سابقة في وفور عقلك، غير مردودة عن حقّك، ولا مصدودة عن صدقك، والله ما عدوت رأي رسول الله ﷺ ولا عملت إلاّ بإذنه، وإنّ الرائد لا يكذب أهله، فإنّي أشهد الله وكفى به شهيداً، أنّي سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: نحن معاشر الأنبياء لا نورّث ذهباً ولا فضّة، ولا داراً ولا عقاراً، وإنّما نورّث الكتاب والحكمة، والعلم والنبوة، وما لنا من طعمة فلوليّ الأمر بعدنا أن يحكم فيه بحكمه).

---

(١) سورة الشعراء: ٢٢٧.

(٢) سورة هود: ١٢١، ١٢٢.

(٣) ابن طيفور (ت ٢٨٠هـ)، بلاغات النساء، بيروت، ١٩٧٢م.

وقد جعلنا ما حاولته في الكراع والسلاح يقاتل بها المسلمون، ويجاهدون الكفار، ويجادلون المردة الفجار، وذلك بإجماع من المسلمين لم أنفرد به وحدي، ولم أستبد بما كان الرأي فيه عندي وهذه حالي ومالي هي لك، وبين يديك، لا تزوى عنك، ولا تدخر دونك، وأنت سيّدة أمّة أبيك، والشجرة الطيبة لبنيك، لا يدفع مالك من فضلك، ولا يوضع من فرعك وأصلك، وحكمك نافذ فيما ملكت يداي، فهل ترين أنّي أخالف في ذلك أباك ﷺ.

فقالت الزهراء عليها السلام: **سبحان الله ما كان أبي رسول الله ﷺ عن كتاب الله صادفاً، ولا لأحكامه مخالفاً، بل كان يتبع أثره، ويقتفي سوره، أفتجمعون إلى الغدر اعتلالاً عليه بالزور، وهذا بعد وفاته شبيه بما بغي له من الغوائل في حياته، هذا كتاب الله حكماً عدلاً وناطقاً فصلاً يقول ﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ﴾[1]. ويقول ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ﴾[2]. فبيّن عزّ وجل فيما وزّع من الأقساط، وشرع من الفرائض والميراث، وأباح من حظّ الذكران والأناث، ما أزاح علّة المبطلين، وأزال التظنّي والشبهات في الغابرين، كلاّ ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾[3].**

وقال: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾[4].

---

(١) سورة مريم: ٦.

(٢) سورة النمل: ١٦.

(٣) سورة يوسف: ١٨.

(٤) سورة النساء: ١١.

وقال: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾(١).

وزعمتم أن لا حظوة لي، ولا إرث من أبي، ولا رحم بيننا، أفخصّكم الله بآية أخرج منها أبي ﷺ أم تقولون أهل ملّتين لا يتوارثان، أو لست أنا وأبي من أهل ملّةٍ واحدة، أم أنتم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من أبي وابن عمّي، فدونكها مخطومة مرحولة، تلقاك يوم حشرك، فنعم الحكم الله، والزعيم محمد، والموعد القيامة، وعند الساعة يخسر المبطلون، ولا ينفعكم إذ تندمون ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾(٢). ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾(٣).

ثمّ رنت بطرفها نحو الأنصار، وقالت:

يا معشر الفتية، وأعضاد الملّة، وحضنة الإسلام، ما هذه الغميزة في حقّي، والسِنة عن ظلامتي، أما كان رسول الله ﷺ أبي يقول: المرءُ يحفظ في ولده، سرعان ما أحدثتم وعجلان ذا إهالة، ولكم طاقة بما أحاول، وقوّة على ما أطلب وأزاول، أتقولون مات محمد فخطبٌ جليل، إستوسع وهنه، واشتهر فتقه، وانفتق رتقه، وأظلمت الأرض لغيبته، واكتأبت خيرة الله لمصيبته، وكسف الشمس والقمر وانتثرت النجوم لمصيبته، وأكدت

(١) سورة البقرة: ١٨٠.

(٢) سورة الأنعام: ٦٧.

(٣) سورة الزمر: ٤٠.

الآمال، وخشعت الجبال، وأضيع الحريم، وأديلت الحرمة عند مماته، فتلك والله النازلة الكبرى، والمصيبة العظمى، التي لا مثلها نازلة ولا بائقة عاجلة، أعلن بها كتاب الله جلّ ثناؤه في أفنيتكم في ممساكم ومصبحكم هتافاً وصراخاً وتلاوة، ولقبله ما حلّت بأنبياء الله ورسله، حكم فصل، وقضاء حتم ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾[1].

فقال أبو بكر: صدق الله وصدق رسوله، وصدقت ابنته، أنت معدن الحكمة، وموطن الهدى والرحمة، وركن الدين، لا أبعد صوابك، ولا أنكر خطابك، هؤلاء المسلمون بيني وبينك، قلّدوني ما تقلّدت، وباتفاق منهم أخذت ما أخذت غير مكابر، ولا مستبدٍ، ولا مستأثر، وهم بذلك شهود.

فالتفت فاطمة عليها السلام إلى الناس، وقالت:

معاشر الناس المسرعة إلى قيل الباطل، المغضية على الفصل القبيح الخاسر، ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ . كلاّ بل ران على قلوبكم ما أسأتم من أعمالكم، فأخذ بسمعكم وأبصاركم لبئس ما تأولتم، وساء ما به أشرتم، وشرّ ما منه اعتضتم، لتجدُنّ والله محمله ثقيلاً، وغِبّه

---

(١) سورة آل عمران: ١٤٤.

وبيلا، إذا كشف لكم الغطاء، وبان ما وراء الضراء، وبدا لكم من ربّكم ما لم تكونوا تحتسبون، وخسر هنالك المبطلون.

ثمّ عطفت الزهراء على قبر أبيها ﷺ وأنشدت:

قد كان بعدكَ أنباءٌ وهنبثةٌ

لو كنت شاهدها لم تكثرِ الخُطُبُ

إنّا فقدناك فقد الأرض وابلُها

واختلّ قومك فاشهدهم ولا تغبِ

قال صاحب بلاغات النساء: فما رأينا يوماً كان أكثر باكياً، ولا باكية من ذلك اليوم.

قال السيّد المرتضى علم الهدى (ت ٤٣٦هـ)، والشيخ الأكبر أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠هـ)، ثمّ انكفأت وأمير المؤمنين يتوقّع رجوعها إليه، ويتطلّع طلوعها عليه، فلمّا استقرّت بها الدار عتبت على أمير المؤمنين بكلامٍ شجيّ، قالت في آخره:

ما كففت قائلاً، ولا أغنيت طائلاً... ويلاي في كلّ شارقٍ، وويلاي في كلّ غارب، مات العمد، ووهت العضد، شكواي إلى أبي، وعدواي إلى ربّي.

فقال لها أمير المؤمنين عليه السلام: **لا ويل لك، بل الويل لشانئك، نهنهي عن وجدك يا ابنة الصفوة، وبقية النبوة، فما ونيت عن ديني، ولا أخطأت مقدوري، فإن كنتِ تريدين البلغة فرزقك مضمون، وكفيلك مأمون، وما أعد لك أفضل مما قطع عنك فاحتسبي**».

فقالت الزهراء عليها السلام: **حسبي الله وأمسكت**».

* * *

تقييم خطبة الزهراء

في لغة النقد الأدبي معلمان بارزان هما: التقويم، والتقييم.. والتقويم عملية نقدية تعنى ببيان جيّد القول من رديئه.. والتقييم إظهار قيمة النصّ الأدبي، وفنّ القول...

وخطبة الزهراء الغراء التي أثبتناها في المبحث السابق ظاهرة بلاغية تغني عن الإطراء.. فهي تفرغ عن فصاحة أبيها ﷺ في البيان، وتفصح عن لغة بعلها عليه السلام في الأداء.. ولها منها عليها شواهد في أرقى فنون البلاغة؛ وحسبها الشاهد القرآني في كلّ مقطع من مقاطعها.. ترصيناً للحجة، واستيعاباً للبرهان.. والآيات القرآنية المترادفة في سياق الخطبة تتراصف نسقاً، وتتواءم انسجاماً، حتّى طبقت المفصل، وحققت الهدف.. وإنّي لأعجب حقّاً.. ولغيري أن يعجب أيضاً من تسلسل الأفكار في ثناياها فكراً إثر فكر.. وطرح القضايا بتوءدة واستيعاب.. والتنقل من الخطاب للغيبة.. ومن الغيبة للمتكلّم، وبالعكس مع صحّة التعبير، ودقة الإرادة، ووضع النقاط على الحروف.

ولا أطيل عليك في تقييم هذه الخطبة الغرّاء.. ولست سادراً في استقصاء أراء القدامى والمحدثين من الكتاب وأرباب الصناعة، في قوّة أسرها، ونصاعة

بيانها، وجمال أسلوبها، وأصالة محتوياتها، وافتنانها بأساليب التعبير الأخاذ.. فذلك أمرٌ مفروغ عنه.. واستقراؤها يثبت صحة ما نقول.

وما أكثر من علّق على هذه الخطبة.. وما أكثر من شرحها.. وما أكثر من تناول لغتها.. وما أكثر من درس البلاغة العربية في ضوء فقراتها تطبيقاً.. ولكنّني أكتفي بما حبّره الأستاذ سليمان كتاني في كتابه الرائق (فاطمة الزهراء / وَتَر في غمد) الحائز على الجائزة الأولى لأحسن كتاب في الزهراء من قبل جماعة العلماء في النجف الأشرف عام ١٩٦٨، وفق قرار لجنة التحكيم برئاسة الإمام المصلح الشيخ مرتضى آل ياسين ﷺ.

والأستاذ كتاني وهو من أعزّ أصدقائي كاتب مسيحي محايد.. درس حياة الزهراء بعمق.. وحلل المجتمع العربي بوعي.. وقدّم دراسته عن الزهراء بموضوعية.. وعلّق على خطبتها في المسجد النبوي بلطف وعناية.. وأظهر من قيمتها الفنية بقلمه الساحر الرقيق ما استطاع إلى ذلك سبيلاً؛ فقال:

(لم تكن على عهد فاطمة أية لاقطة صوتية تسجّل الكلمة التي تفوّهت بها أمام أبي بكر الصديق، وكذلك لم تكن هناك أية لاقطة [ضوئية] تعكس عنها الإشارة التي كانت تبدر عنها، وهي تلقي ذلك الخطاب، حتّى لم تكن تلك اللواقط من الحروف الطائعة تنساق ملتقطة بالفكر تضبطه في إطارها.

لم يتم تسجيل الصوت ولا تسجيل الصورة لا صوت فاطمة بكلماته المتقطعة ونبراته المتدفقة، ولا صورتها بعينها الحزينة وقدّها الناحل، ولم يتم

أيضاً لا تسجيل الأثر الذي تركته على جمهور ساحة المسجد، ولا تسجيل إذن أبي بكر الصديق بعد سماعها خفقة التنديد.. كانت آلة العصر في ذلك الحين هي ذاتها تفعل تعبيراً عن شوق الإنسان في حاجته إليها.

إنّ هذا الشوق كان منفتح القلب والعين والأذن أمام فاطمة الزهراء في وجودها ذلك الحين، وفي كلّ وجودها. لذلك انسكبت في وجدان التاريخ [تسجيلاً] حفظته واعية الخواطر، وتلقّطت به حافظة القلوب، وتناقلته أشواق الأسانيد: تعبيراً عن أنّ الرأي العام في مجتمع الإنسان هو حقيقته الماثلة في مكشوفها ومستورها على السواء.

ولم تكن فاطمة وحدها التي تتكلّم في ذلك الحين أنّ الملايين في الجزيرة العربية كانوا يتكلّمون ولم يصل إلينا سوى النزر اليسير من التساجيل عنهم، إلاّ إنّ فاطمة كانت وحدها تتكلّم؟

إنّ الذين تكلّموا في الجزيرة العربية قد تمّ لنا تسجيل ما قالوا وصل إلينا ـ كلّ الصحيح مما قالوا لم يكذب الرأي العام فيهم؛ فقد صوّروه وعكسوه.

إنّ اللون السياسي الذي انصبغ به الخطّان العريضان في ذلك الحين، عيّن في كلّ واحد منهما: اسم القائد / عيّن الشكل / وعيّن الفكر / وعيّن أيضاً صفات الإرث.

ولكن الإرث الوحيد الذي ضاعوا عنه هو وحده كان كفيلاً لهم بتحقيق

الثروة نفروا عنه إذ كان الأولى أن ينفروا إليه إنّ هذا الإرث كان محصوراً في تلك الوحدة المنوّرة بالحقّ والهداية، ولقد قالت فاطمة في خطابها؟: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ يَعۡلَمِ . . ﴾[1].

إنّ في الانقلاب على الأعقاب رجعة إلى ماضي الجزيرة في تفككها وتشتتها في عدم لحمتها وفي عدم تحقيقها لقد وحدتها الكلمة الصائبة، وجمعتها الفكرة الكبيرة، لقد رسمت لها الأهداف.. لقد طبعت أمامها المثل، لقد تحقق لها البرهان، ولقد دفعت ذلك من دمها فما بالها وقد مات نبيها العظيم تنقلب على أعقابها.

ولا تزال الأجيال حتّى اليوم تتلهى بغربلة خطاب فاهت به الزهراء: في هل أنّ كلماته خرجت بالفعل من ثناياها، أم أنّ عبقرياً آخر نحلته عبقريته إليها؟.

وفاطمة الزهراء كانت لوناً بارزاً في الخطّ الثاني .. كانت نصف الرجل الذي حمل راية الخطّ الإمام علي فهي معه في العمل والمنهج.

إنّ العبرة في تفسير ما قالت الزهراء تكمن في قولها إنذاراً! والعبرة في أنّ الخلافة لم تقبل الإنذار.

والعبرة كلّ العبرة في أنّ أجيال الإسلام لم تدرس حتّى اليوم خطاب

---

(١) سورة محمد: ٢٤.

الزهراء، وهي ضائعة بين أن تسنده إلى فاطمة، أو أن تسنده إلى مقحم.. طباق آخر على كلّ ما وجّه إلى الإمام علي في نهج البلاغة إسناداً إليه أم إقحاماً عليه؟.

والعبرة في أنّ خطاب الزهراء جاء يرزم قوّة التعبير عن ذلك الرأي العام الذي اهتاج وهو يترنّح للواقع ليعود فيتكون ثورة على كلّ ما هو خروج عن خطوط الحقّ والعدالة.

ومنذ ذلك الحين تكوّنت نواة المعارضة مطالبة بتركيز الخلافة على محورها الصادق، ومنذ ذلك الحين والخلافة لا ترتبط بمصير حتّى تتقطع حيال ذلك المصير.

ومنذ ذلك الحين والسيف العربي لا يرتوي من دماء أبنائه، ومعظم الخلفاء لا يرتوون من شربه الدم؛ صرفاً أو ممزوجاً بالخمور والفجور؛ أكان ذلك مع الحجّاج أم مع السّفاح، أكان مع الوليد أم مع الأمين بن الرشيد.

ومنذ ذلك الحين والخلافة تدور بها العواصف والزعازع، من مكّة إلى يثرب، ومن يثرب إلى الكوفة إلى الشام إلى بغداد إلى خراسان إلى مصر إلى القيروان إلى بلاد الترك.

ومن تفسيخ إلى تفسيخ من الراشدين إلى الأمويين؛ فالعباسيين، والفاطميين، والأيوبيين، والمماليك، والمغول، والحشّاشين.

قد تكون في هذا كلّ القساوة في تحميل الخلافة الأولى هذا الحبل الطويل من المسئوليات الجسام! ولكن أيّ طريق طويل لا يقاس بالخطوة الأولى؟ وأيّة دولة من دول العالم يتجسّم الحقد فيها كما تجسّم على يد الحجّاج بن يوسف، وبقي لها شيءٌ من كيان؟ كيف يربو الولاء من صدور حفدة مائة وعشرين ألف قتيل حصدها سيف طاغية تثبيتاً لكرسي خلافة؟ وكيف لا يكون الحقد وليد الحقد، وقبور بني أميّة تنبش لتجلد فيها الرمم... وكيف ينمو حنين الإنسان إلى وطنه، وبغداد تحمل شارات التعسّف والظلم جماجم معلّقة في الهواء فوق جسور دجلة والفرات تدليلاً على عظمة البطش، وهيبة السلطان.

لعمري إنّ رسالة الإمام علي إلى الأشتر تشهد للرجل الكبير بصدق نظرته وحصافة رأيه.. تلك الدماء ذاتها مهدورة بغير حلّها جبلت من طينها فيما بعد جماجم الغزاة شأن جنكيزخان وتيمورلنك، أجل هو ذاته تيمورلنك الذي بنى في بغداد بجماجم البغداديين مائة وعشرين برجاً!.

أجل إنّ الخلافة يكون مجوراً عليها إذا حملت جريرة عدّة أجيال، ولكنّها كانت مسؤولة كخلافة الرسالة سوف تتخطّى المكان والزمان عمّن مدّ نظرها إلى مثل هذه الأبعاد وهي مسؤولة على الأقل عن تثبيت قدم العدالة التي ما تزال قريبة من منابعها.

إنّ الخطوة الأولى قرّرتها السقيفة، وكان فيها ذلك الاعوجاج، ولن يقاس درب طويل بخطوة معوّجة.

ولم يكن الاعوجاج من المتطلبين أمجاد الحكم أكثر مما كان من الحبل الطويل المشدود على خصور القبائل ذلك الشعب الذي كان معوّجاً، وما صرف الجهد النبوي إلاّ ليقوّم اعوجاجه.

كيف تبحث قضية الخلافة بأمانة وإخلاص إن لم يتحرّر الباحث من الهوى؟ ولكن الذين تزاحموا على كرسي الخلافة بين أن يثبت متيناً، وبين أن ينهار رهناً بحروف اسمه: إمّا أن يكون خلافة أو يكون حكماً، والخلافة كانت استكمال خطّ واستمرار نهج ، والحكم كان لوناً سياسياً وصولياً.

إنّ الحكم في الجزيرة العربية في خطّه الماضي لم يكن درجة في سلّم حضاري إنّ الرسالة الجديدة هي التي نقضت هذا الحكم في مجال تحضير مادة جديدة يستقيم فيها الحكم، تلك المادة هي الوجبة الروحية التي يكتمل بها رشد الإنسان في الجزيرة حتّى يتوصّل إلى حقيقة الحكم.

تلك الحقيقة كان يعرفها النبي، وكان يعرفها أشدّ الناس اختلاطاً بالنبي، لهذا كان النبي أكثر تشديداً على استكمال نمو الرسالة بتسليمها إلى الذي يدرك الكنه العميق هنا كانت تبرز الإشارة بوضوح إلى علي.

كان المقصود بإسناد الخلافة إلى علي، خلافة بالمعنى الصحيح، أكثر منها حكماً مؤقّتاً خلافة لرسالة تتمم تحضير الوجبة الكبيرة ليأكل منها كلّ الذين هم بحاجة إلى اكتمال الرشد.

في أيّ وقت يكتمل الرشد؟ إنّ ذلك يكون رهناً بالسلسلة الطويلة في اكتمال نضجها وبث إشعاعاتها وهذا كان على ما يظهر قصد الرسالة)[١].

لم يكن هذا العرض تقييماً تقليدياً لخطبة الزهراء.. ولا قالباً شعرياً يستوحي الخيال في سرد الثناء والمديح.. ولكنّه كان يجري مجرى فلسفة الخطبة في صميم الأحداث سياسياً واجتماعياً وروحياً.. وما توقعته الزهراء من الانزلاق الخطير في متاهات تتحمّل نكساتها الأمة جيلاً بعد جيل.. وكان من نتائجها إضاعة الفرصة في إحكام روح الخلافة.. لا استثمار مكاسب الحكم في سلطة قبلية أو لغة بدوية، أو مسحة ارستقراطية.. فما لهذا كانت الرسالة.. ولا به جاءت النبوة.

إنّ ثقافة الغلبة والاستيلاء على الحكم صاحبته هشاشة الالتزام بمباديء الدين الجديد في جزيرة العرب. ومن هنا نشأت التناقضات الفجّة في سفك الدّماء وانقسام الأمة.. وطمع الغزاة وتفكك الدولة.. وإضاعة الفرصة أمام عملاق الفكر الإسلامي الإمام علي عليه السلام في بسط نفوذ كلمة الله في الأرض.. ولو كان الأمر بيد قائد سفينة هذه الأمّة لأوصلها بأمان إلى مرفأ الحضارة العالمية.

ذلك هو ما دعا الزهراء أن تتحدّث في هذه الخطبة عن التوقعات المستقبلية، وقد حدثت.. وهو ما دعاها إلى هذا الموقف الصلب في المحاسبة..

(١) سورة آل عمران: ١٤٤.

وهو ما قادها لإعلان المقاومة بهذا السيل المنحدر من الاحتجاجات مفردة مفردة، وهو ما حدا بها إلى تتبع مفاصل القضية جزءاً جزءاً.. وكانت من ذلك بين أمرين: إمّا أن تقوّم هذا الأود والاعوجاج بإرجاع الحقّ إلى نصابه.. وإمّا أن تؤدّي وظيفتها الرسالية كما تؤمن هي بها.. شاء القوم أم أبوا.. رضوا أم سخطوا.

ولهذا فقد كان من تخطيط الزهراء أن تتدرّج في النكير من الأدنى إلى الأعلى.. وأن تلقي الحجة إثر الحجة بعد أن بلغ السيل الزُّبى.. وأصبحت أحلام القوم المبيّنة حقائق على صعيد الواقع.. فلم يكن في مقدورها أن تضرب صفحاً من كلّ هذه التجاوزات.. ولم يكن في حسبانها أن يبلغ التخلّي عن المباديء الثابتة إلى هذا الحدّ.. فلم يكن لها أن تغضّ طرفاً عن الانحراف.. والانحراف ينبغي أن يقوّم في أول نبوغه ونزوغه.. ولدى فجر أولياته مهما تطاول.. إما إذا تفرعن واشمخر كان التصدي له مصطدماً بالعقبات.. وليس من السهل السيطرة على الأمر وقد أبرم إبراماً.. ولكنّ الزهراء نظرت وقدّرت وفكّرت فرأت أنّ الأمر قد أبرم من دون رأي المسلمين وأهل البيت أسبقهم.. ولا استناد على مأثور نبوي، أو نصّ قرآني.. ولا بإزاء سابقة تحتذى في حياة جزيرة العرب.

وقد يقال والحالة هذه: إن على الزهراء أن تخلد للسكينة فقد تجاوز الحدّ المدى.. ربما يقال هذا.. وقد يردّ بأنّ الزهراء عليها السلام في همومها الكبيرة ليست

كبقية النساء.. فهي ابنة صاحب الرسالة، وهي زوج صاحب الولاية.. وقد ارّقها من شأن الولاية ما كان يؤرّقها من شأن الرسالة.

وكانت عصمة الزهراء بالدليل وبالفعل تخوّلها أن تتجاذب هذا الصراع القيادي، وتقول كلمتها فيه ببصيرة نافذة.. وقد قالت الكلمة في خطبة عصماء أذهلت الجمع، فكانت كالصاعقة فيما حاججت به وأفلجت القوم.. ولمّا لم تجد لذلك أذناً واعية بدأت تستنجد الهمم، وتستصرخ الضمائر.. وما كان ذلك لشأنٍ من شؤون الدّنيا.. بل في مبدأ أساسي من مباديء الدين الجديد متمثلاً في ظاهرة تجحد تارة.. ويتغاضى عنها تارة.. ويعترف بها أحياناً.. وهي واجبة عند قومٍ، ومستحبّة عند آخرين.. إنّها الخلافة كما يقولون! والإمامة كما نقول.. بل هي الولاية الإلهية كما ترى الزهراء، ونرى عين رؤيتها.

وما مطالبة الزهراء بفدك إلاّ ذريعة لهذا المدخل الصعب! فالروايات في شأن فدك لها صيغها المختلفة بين العرض وبين الأخذ والرد حتّى بين المعنيين بالفصل في الموضوع.

وما يدرينا فلعلّ للزهراء عدّة مواقف يؤكّد قسم منها على الحقّ المتواضع في فدك لتأتي من خلاله على الهدف الأكبر؟. فقد روي ((أنّ الزهراء عليها السلام بلغها أنّ أبا بكر قبض فدكاً.. فخرجت في نساء من بني هاشم حتّى دخلت على أبي بكر.. فقالت: يا أبا بكر تريد أن تأخذ منّي أرضاً جعلها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتصدّق بها عليّ من الوجيف الذي لم يوجف المسلمون عليه بخيلٍ ولا

ركاب؟ أما كان قال رسول الله ﷺ: **المرء يحفظ في ولده؟**.

وقد علمت أنّه ﷺ لم يترك لولده شيئاً غيرها؟.

فلمّا سمع أبو بكر مقالتها والنسوة معها، دعا بدواة ليكتب به لها.. فدخل عمر فقال: يا خليفة رسول الله ﷺ لا تكتب لها حتّى تقيم البينة بما تدّعي! فقالت فاطمة: نعم أقيم البينة، قال: من؟ قالت: علي وأمّ أيمن! فقال عمر: لا تقبل شهادة امرأة أعجمية لا تفصح! وأمّا عليّ فيجرّ النار إلى نفسه[١].

وفي الشافي للمرتضى قدس سره أنّ أبا بكر رضي الله عنه كتب لها كتاباً بفدك.. فأخذ عمر الكتاب، وبصق فيه ومحاه))[٢].

في ظلّ هذه الرواية أوشكت الزهراء عليها السلام أن تحقّق الجزء الأول من المهمة.. وكان لعمر رضي الله عنه رأيٌ آخر.. إذ لم يشأ الاستجابة للزهراء في شيءٍ ما! لئلا يفتح عليه بابٌ لا يسدّ من مطالب سيّدة النساء عليها السلام فقد نظر إلى الموضوع بعمق.. وهو يقرأ ما بين السطور.. فقرر إغلاق الباب، وأحكم رتاجه!.

ولكنّ الزهراء لم تصمت.. ولم تتردد ولم تعبأ بإجراءات الخلافة.. وظلّت تستغيث ولا تغاث.. ولكنّها أوقدت شعلة الوعي وهاجة.. وقدحت زند الاحتجاج وارياً.

---

(١) سليمان كتاني/فاطمة الزهراء.. وَتَرٌ في غمد: ١٣٩- ١٤٤، مؤسسة الوفاء، الطبعة الثالثة، بيروت، ١٩٨٣م.

(٢) ظ: المجلسي، بحار الأنوار: ٢٨/٣٠٢.

فدك والإرث وسهم ذوي القربى

لم تكن المطالبة بفدك تمثل هدفاً مركزياً لدى الزهراء عليها السلام.. تسعى إليه كمغنم مادي يدرُّ عليها من وارداته.. ولم تشأ كسباً اقتصادياً يحقق لها مصدراً مادياً ضخماً أو اعتيادياً.. ولكنّها سيّرت ذلك جزءاً من الاحتجاج السياسي ضدّ السلطة، ونظرت بمعيارٍ مزدوج مشروع في تسجيل مظلوميتها من وجهين يكون الأول منهما مدخلاً إلى الثاني وهو الأهم!:

الوجه الأول: يتمثل بتصفية فدك والميراث وسهم ذوي القربى.. مما هو لها قطعاً في النحلة والنصّ القرآني.

الوجه الثاني: يتمثل بالقضية الكبرى.. وهو النصّ على استخلاف علي عليه السلام من قبل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في عدّة مواطن. وأنّه صاحب الإمامة والولاية وحده.. للنصّ في ضوء ما يتمتّع به من خصائص: السابقة في الإسلام.. الجهاد في سبيل الله.. التضحية والفداء بين يدي رسول الله.. كونه أعلم الأمة.. وأقضاها.. ظواهر العصمة التكوينية.. وسوى ذلك من المؤهلات في المنهج والسلوك والمبدأ والأقدمية والعدالة المجمع عليها باصطفاف إسلامي.

إذن هنالك للزهراء هدف أرفع ذو أبعاد رسالية محدّدة.. ولم يكن هدفاً هامشياً ذا بعد اقتصادي!.

وكانت الزهراء بهذا أحصف رأياً.. وأقوى شكيمة.. وأمضى عزيمة في تفكيرها الإنساني بمصير الرسالة ليس غير.. وتطبيق أحكامها كما رسمها رسول الله ﷺ.. واستمرارية أدائها نقياً خالصاً على الوجه الأكمل.. لهذا كلّه نعتبر ما أثارته الزهراء بالمطالبة بحقوقها وحقوق بني هاشم بوابة الحديث عن الحقّ الإلهي في المنصب الإلهي.. ويؤيّد هذا المنحى من الاعتقاد الجازم عندنا ما أبقاه لنا التاريخ من شذرات تؤكّد هذا المعنى.. لاسيّما في محاورة جرت بين الإمام الكاظم موسى بن جعفر عليه السلام وبين حاكم عصره هارون الرشيد. فقد ألحّ هارون الرشيد بإلحافٍ على الإمام الكاظم عليه السلام بالقبول في ردّ فدك إليه.. وجرى الحوار الآتي:

قال الإمام موسى بن جعفر: يا أمير لا آخذها إلاّ بحدودها!.

قال الرشيد: وما حدودها؟.

قال الإمام: إن حدّدتها لم تردّها!.

قال الرشيد: بحقّ جدّك إلاّ فعلت.

قال الإمام: أمّا الحدّ الأول فعدن!.

فتغيّر وجه الرشيد، وقال: هيه؟.

قال الإمام: والحدّ الثاني سمرقند!.

فأربد وجه الرشيد! وقال: هيه؟.

قال الإمام: والحدّ الثالث إفريقية!.

فاسوّد وجه الرشيد! وقال: هيه؟.

قال الإمام: والرابع سيف البحر مما يلي الخزر وأرمينية!.

قال الرشيد: فلم يبقَ لنا شيء فتحوّل إلى مجلسي.

قال الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام: قد أعلمتك أنّي إن حددتها لم تردّها!. فعند ذلك عزم الرشيد على قتل الإمام[1].

وإذا صحّت هذه الرواية بهذا الشكل؛ فإن الإمام الكاظم عليه السلام قد أبان الحقيقة في إهابها الذي ترفل به.. ناظراً إلى مسألة فدك باعتبارها قضية قيادية لا أرضاً زراعية.. وهو يصرّح أنّها طريق للمطالبة بموقع الإمامة وواقعها.. وذلك يبسط النفوذ القيادي والإداري والسياسي على هذه الدول الكبرى للعالم الإسلامي آنذاك.. لا امتلاك تلك الأراضي الواسعة.. بل المراد حكمها كما أراد الله تعالى.. وأنّ الحكم فيها للإمام نفسه لا لهارون الرشيد!.

هذه الإرادة التي قصدها الإمام الكاظم عليه السلام هي التي غيّرت معادلة

(١) ظ: السيد المرتضى، الشافي في الإمامة: ٤٠٨.

الرشيد في حساباته التي أراد بها التقرُّب إلى الإمام بهدف سياسي يوحي بأنّه أعطى زعيم بني هاشم وإمامهم ما طالبوا به.. ولكن لم يحصل له ما أراد.. فأربد وجهه تارة.. واسودّ تارة أخرى.. وعرف جازماً أن لا سلطان له مع هذا العرض.. إذ لم يبق له ما يملك في أرضه فيما يزعم حتّى خاطب السّحابة في السّماء: (أين ما تمطرين ففي أرضي.. أو ففي ملكي).

وبعد هذا فليس أمامه إن صدق فيما قال: إلاّ أن يتحوّل من مجلسه في دست الحكم، وإدارة الدولة للإمام الذي أعلمه مسبقاً أنّ لو حدّد له فدكاً فسوف لا يردّها عليه.

وفهم الرشيد من هذا أنّ الأصل هو الإمام لا الأرض! حينذاك عزم على قتل الإمام الكاظم عليه السلام ونفّذ ذلك.

هكذا يجب أن ينظر إلى موضوع فدك والإرث وسهم ذوي القربى.. وهو موضوع شائك في نظر قوم.. والواضح في نظر قوم آخرين! فكيف كانت البداية؟.

البداية متعدّدة الأبعاد وعريضة الجوانب، عرضها التاريخ والمؤرّخون وعلماء الكلام ورجال الحديث بصورٍ شتّى؛ ولكن المؤدّى واحد! وسوف لن أطيل في تفصيلات ذلك، بل أعرض منه جزءاً من النماذج الموثقة لا أكثر ولا أقل.

١ ـ فعن محمد بن إسحاق بأسانيده قال:

(لمّا فرغ رسول الله ﷺ من خيبر. . قذف الله الرعب في قلوب أهل فدك، فبعثوا إلى رسول الله ﷺ فصالحوه على النصف من (فدك) فقدمت عليه رسلهم بخيبر، أو بالطريق، أو بعد رجوعه إلى المدينة. . فقبل ذلك منهم.

وكانت فدك لرسول الله ﷺ خالصة له. . لأنّه لم يوجف عليها بخيلٍ ولا ركاب)[1].

٢ ـ ولمّا نزل قوله تعالى ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ لَهُۥ. . ﴾[2].

أورد السيد المرتضى علم الهدى (ت ٤٣٦هـ) ما رواه أبو سعيد الخدري وسواه من الصحابة ((فأعطى رسول الله ﷺ فاطمة عليها السلام فدكاً، هذا ما رواه أبو سعيد الخدري وسواه[3]. وتسلّمتها الزهراء عليها السلام! ووضعت يدها عليها في حياة رسول الله ﷺ فعادت خالصةً لها. . فيها عمّالها. . وبها الفلاّحون عياناً. . والمسلمون كلّهم شهود على ذلك، بما فيهم الشيخان أبو بكر وعمر.

٣ ـ حتّى إذا استخلف الأول منهما استولى عليها بخبرٍ آحاد يرويه وحده، كما روى خبر آحاد الإرث وحده.

---

(١) ظ: الكليني، الكافي: ١/٥٤٣، الزمخشري، ربيع الأبرار: ١/٣١٥، ابن شهراشوب، المناقب: ٣/٤٣٥، المجلسي، البحار: ٤٨/ ١٤٤، وانظر مصادره.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة للإمام علي عليه السلام: ١٦/٢١٠.

(٣) سورة الإسراء: ٢٦.

وكان لهذا الاستيلاء المفاجيء أثره الرهيب عنده سيّدة النساء، فقد كان قراراً ارتجالياً لم يخضع للأناة والدراسة.. لا في التخطيط له.. ولكن بتبعاته التي سعّرت جذوة الخلاف بين المسلمين.. إذ ليس الغرض بما فيها هو الأرض.. فهو فرع القصة.. وهناك الأصل.. وهو خلافة رسول الله.

٤ ـ وبدأت مطالبة الزهراء عليها السلام بفدك على عدّة وجوه تروى، صورها شتّى ونتائجها واحدة، وقد تجري معها قضيّة الإرث لتنتهي بالنحلة، فقد أورد ابن أبي الحديد عن أبي بكر الجوهري.. بسند يصححه محاورةً جرت بين الزهراء وأبي بكر على هذا النحو:

((دخلت فاطمة على أبي بكر بعد ما استخلف، فسألته ميراثها من أبيها.. فمنعها.. فقالت له: لئن مُتَّ من كان يرثك؟ قال أبو بكر: ولدي وأهلي!.

قالت الزهراء: فَلِمَ ورثَت أنتَ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دون ولده وأهله، فقال: فما فعلتُ يا بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم! قالت الزهراء: بلى، إنّك عمدت إلى فدك.. وكانت صافية لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأخذتها، وعمدت إلى ما أنزل الله من السّماء فرفعته (فدفعته) عنّا!.

فقال أبو بكر: يا بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم أفعل! حدّثني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّ الله تعالى يطعم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ما كان حيّاً.. فإذا قبضه الله إليه رفعت.

فقالت الزهراء: أنت ورسول الله أعلم.. ما أنا بسائلتك بعد مجلسي.. ثمّ انصرفت))[١].

---

(١) السيد المرتضى، الشافي: ٢٣٥.

والذي يحقّق في سياق الموضوع يجد أنّ الزهراء عليها السلام عرفت من لحن الخطاب بل من تصريحه أن أبا بكر قاطع باستملاك فدك، فقالت بهذه الرواية: ما أنا بسائلتك بعد مجلسي بينما يروي ابن أبي الحديد عن أبي بكر الجوهري نفسه بسنده الذي يصحّحه عن أنس بن مالك، خلاف هذا كما سترى.

٥ ـ قال ابن أبي الحديد ((واعلم أنّ الناس يظنّون أنّ نزاع فاطمة أبا بكر كان في أمرين: في الميراث والنحلة! وقد وجدت في الحديث: أنّها نازعت في أمرٍ ثالث وهو سهم ذوي القربى.

قال أبو بكر الجوهري يروي عن أنس بن مالك، قال:

((إنّ فاطمة أتت أبا بكر فقالت: لقد علمت الذي ظلمتنا عنه أهل البيت من الصدقات، وما أفاء (الله) علينا من الغنائم في القرآن من سهم ذوي القربى.. ثمّ قرأت عليه قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ (١).

فقال لها أبو بكر: بأبي وأمّي ووالدٍ ولدك. السمع والطاعة لكتاب الله، ولحقّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحقّ قرابته، وأنا أقرأ من كتاب الله الذي تقرئين منه.. ولم يبلغ علمي منه أنّ هذا السّهم من الخمس يسلّم إليكم كاملاً!.

قالت: أفلك هو ولأقربائك؟.

(١) ابن أبي الحديد المعتزلي، شرح نهج البلاغة: ١٦/٢٣٣.

قال: لا بل أنفق عليكم منه، وأصرف الباقي في مصالح المسلمين!.

قالت الزهراء: ليس هذا حكم الله تعالى...(١).

وأضاف أبو بكر الجوهري بسنده عن عروة، قال: أرادت فاطمة أبا بكر على فدك وسهم ذوي القربى، فأبى عليها وجعلها في مال الله)) (٢).

وروى أبو بكر الجوهري نفسه بسنده عن الحسن بن محمد بن (الحسن) بن علي بن أبي طالب:

((أنّ أبا بكر منع فاطمة وبني هاشم سهم ذوي القربى، وجعله في سبيل الله في السلاح والكراع))(٣).

٦ـ ويبدو أنّ الزهراء عليها السلام قد أنحت باللائمة على الأنصار بخاصة لأنّهم بايعوا رسول الله صلى الله عليه وآله على أن يحاموا عنه، وعن آله، وأن يفدوه بأنفسهم؛ لذا توجّهت للأنصار، وهم (بنو قيلة) وخصّتهم بهذا الاستنهاض والعتاب الصارخ: (إيهاً بني قيلة! اهتضم تراث أبي، وأنتم بمرأى ومسمع، تبلغكم الدعوة، ويشملكم الصوت، وفيكم العدّة والعدد، ولكم الدار والجنن، وأنتم نخبة الله التي انتخب، وخيرته التي اختار).

فلمّا تكلّمت الزهراء بما كلّمتهم، قال لها أبو بكر: (يا خيرة النساء وابنة

(١) سورة الأنفال: ٤١.
(٢) ابن أبي الحديد المعتزلي، شرح نهج البلاغة: ١٦/ ٢٣٠-٢٣١.
(٣) المصدر نفسه: ١٦/ ٢٣٠-٢٣١.

خيرة الآباء.. والله ما عدوت رأي رسول الله ﷺ وما عملت إلاّ بأمره.. ومنعها فدكاً)[1].

٧- وكان مما خاطبت به الزهراء أبا بكر قولها له: «**من يرثك إذا مُتّ؟** قال: ولدي وأهلي..، قالت الزهراء له: **فما لك ترث رسول الله ﷺ دوننا؟**».

قال أبو بكر: يا ابنة رسول الله، ما ورّث أبوك داراً، ولا مالاً، ولا ذهباً، ولا فضّة!.

قالت الزهراء عليها السلام: بلى، سهم الله الذي جعله لنا، وصار فيئنا الذي بيدك!.

فروى لها أبو بكر خبر آحاد يرويه وحده قائلاً:

(سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنّما هي طعمة أطعمناها الله، فإذا متُّ كانت بين المسلمين)[2].

٨- ويبدو في جملة من الروايات الصحيحة أنّ أبا بكر قد كتب كتاباً بفدك للزهراء بعد الإشهاد لها بذلك من قبل أمير المؤمنين عليه السلام.

هذا الخبر روي متقارباً بوجوه مختلفة لفظاً.. متحدّة معنًى.. وبطرق كثيرة، منها ما أسند إلى أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام إنّه قال: «**جاءت فاطمة**

---

(١) المصدر نفسه: ١٦/ ٢٣٠-٢٣١.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٦/ ٢١٠-٢١٤.

إلى أبي بكر وقالت: إنّ أبي أعطاني فدكاً، وعليّ وأم أيـمن يشهدان.

فقال: ما كنتِ لتقولي على أبيك إلاّ الحقّ؛ قد أعطيتكها! ودعا بصحيفة من أدم فكتب لها فيها؛ فخرجت، فلقيت عمر؛ فقال: من أين جئت يا فاطمة؟.

قالت: جئت من عند أبي بكر.. أخبرته أنّ رسول الله ﷺ أعطاني فدك؛ وأنّ علياً وأمّ أيمن يشهدان، فأعطانيها وكتب لي بها، فأخذ عمر منها الكتاب، ثمّ رجع إلى أبي بكر.. فقال: أعطيت فاطمة فدك، وكتبت بها لها؟ قال: نعم، فقال عمر: إنّ علياً يجرّ إلى نفسه، وأم أيمن امرأة.. وبصق في الكتاب فمحاه.. وخرّقه[1]».

وفي هذا النصّ ثلاث ظواهر لها دلالتها:

الأولى: أنّ أبا بكر جعل لعمر حقّ النقض (الفيتو) إذ نقض كتابه للزهراء ومحاهُ وخرّقه.

الثانية: أنّ عمر يتحدّث عن علي عليه السلام بأنّه يجرّ إلى نفسه.. وكأنّه لم يسمع قول رسول الله «**عليٌّ مع الحقّ والحقّ مع علي**».

الثالثة: أنّ عمر قد استهان بأبي بكر والزهراء معاً.. فقد بصق في الكتاب، وهو صكٌّ من أبي بكر، وهو حقٌّ للزهراء عليها السلام، وما اكتفى بذلك حتّى محاهُ وخرّقه!.

---

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٢١٨/١٦.

ويؤكّد هذا الخبر ما روي عن أبي عبد الله الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال . . **«إنّ أبا بكر كتب لها كتاباً بردّ فدك إليها، فلقيها عمر، فقال: يا بنت محمد! ما هذا الكتاب الذي معك؟ قالت: كتابٌ كتب لي أبو بكر بردّ فدك! فقال: هلمّيه إليّ! فأبت أن تدفعه إليه! ثمّ أخذ الكتاب فخرّقه»**[١].

٩- كان أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام.. دقيق النظر، بعيد مرمى الطرف، جعل مصلحة الإسلام العليا في الحفاظ على الظاهر على الأقل فوق كلّ الاعتبارات الذاتية والاجتماعية والأسرية. . وحينما آلت الخلافة إليه بشكلها الرسمي لم يعرض لما قرّره أبو بكر وعمر في سهم ذوي القربى فضلاً عن فدك. . فقد روى أبو بكر الجوهري بسند يصححه عن محمد بن إسحاق، قال:

((سألتُ أبا جعفر محمد بن علي عليهما السلام (الإمام محمد الباقر) قلت: أرأيت علياً حين ولي العراق، وما ولي من أمر الناس.. كيف صنع في سهم ذوي القربى؟.

قال: سلك بهم طريق أبي بكر وعمر!.

قلتُ: وكيف؟ ولِمَ؟ وأنتم تقولون ما تقولون؟.

قال: والله ما كان أهله يعني أمير المؤمنين يصدرون إلاّ عن رأيه، فقلت: فما منعه؟ قال: كان يكره أن يُدّعى عليه مخالفة أبي بكر وعمر))[٢].

---

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٦/٢٧٤.

(٢) المفيد، الاختصاص: ١٨٥، المجلسي، البحار: ٢٩/١٩٢.

١٠- هذا في سهم ذوي القربى.. أمّا في النحلة فهي ثابتة تاريخياً وشرعياً، ووضع اليد بعدّة طرق وأسانيد صحيحة، كما رأيت!!.

وقد طولبت الزهراء بالشهود والبينة على دعواها، بينما أخذ أمير المؤمنين بالنحلة: سيف رسول الله! وعمامة رسول الله.. وبغلة رسول الله.. فما طالبه أحد بإثبات ذلك حتّى قال المرتضى متعجباً: ((ومن العجائب أن تدّعي فاطمة فدك نحلةً، وتستشهد على قولها أمير المؤمنين وغيره! فلا يصغى إلى قولها.. ويترك السيف والبغلة والعمامة في يد أمير المؤمنين عليه السلام على سبيل النحلة بغير بينة ظهرت.. ولا شهادةٍ قامت))[1].

ولا كبير أمرٍ في تعليل ذلك.. فإنّ النحلة للزهراء وهي فدك ذات نخيل وبساتين.. وربّما أفاد منها الإمام علي في تقوية جبهة المعارضة بإمدادها مالياً فيما يفكّرون به! ولم يفكّروا بالمعنى الاعتباري في شرف نحلة أمير المؤمنين عليه السلام بالسّيف والعمامة والبغلة.. وأنّه نفس رسول الله صلى الله عليه وآله، لهُ ما له.. وأنّ سيفه هو سيفه، وعمامته عمامته!.

١١ ـ وأمّا مسألة الإرث.. فكتاب الله ناطقٌ بها، وآياته صادعة تخترق الأسماع.. وحسبنا كتاب الله الذي اكتفوا به دون السّنة.. وكلّ قولٍ يعارض محكمات القرآن نضربُ به عرض الجدار! فهو إمّا ضعيف السند! وإمّا لا أصل له في متنه.. أيّ أنّه منحول أو موضوع! أو كلاهما.. وآيات الإرث في القرآن

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٦/٢٣٢، وانظر مصادره.

أشهر من أن تذكر.. وأوضح من أن تعلّل.. وما علمنا من تخصيص لعامّها.. إلاّ في موارد نصّ عليها الفقهاء.. وقد استشهدت بها الزهراء وكفى.

وأمّا تخصيص الكتاب بخبر الواحد.. فلا يستند إليه لا فنّاً، ولا صناعة عند علماء الحديث.. لأنّ خبر الواحد إن لم يحتمل فيه الكذب والأشباه ظنّي الإفادة.. والقرآن العظيم قطعي الدلالة.. ولا يعدل عن المقطوع به إلى المظنون.

وبتعبير أوضح: إنّ القرآن معلوم الصدور قطعاً.. وإنّ خبر الواحد مظنون الصدور، ولا يمكن أن نعدل عن العلم إلى الظنّ.. ولا يترك المعلوم بالمظنون، وعلى هذا فلا يخصص خبر الواحد عموم القرآن.. ولا يقيّد مطلقه.

قال السيد المرتضى قدّس سرُّه وليس يجوز أن يرجع عن ظاهر القرآن بما يجري هذا المجرى، لأنّ المعلوم لا يخصُّ إلاّ بمعلوم، وإذا كانت دلالة الظاهر معلومة لم يجز أن يخرج عنها بأمرٍ مظنون. وهذا الكلام مبنيٌّ على أنّ التخصيص الصحيح للكتاب والسنة المقطوع بها، لا يقع بأخبار الآحاد، وهو المذهب الصحيح))[1].

على أنّ مضمار هذا البحث وإن بحث كلامياً هو علم الأصول، وللكلاميين الحق بالاستدلال به في مجال المحاججة العلمية.

(١) السيد المرتضى، الشافي: ٢٣٣.

١٢ ـ وكان أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) موضوعياً في هذا الملحظ.. وناقداً خبيراً غير متّهم، لأنّه ليس من أولياء أهل البيت عليهم السلام، وقد أورد برسالته (العباسية) تفصيلاً لهذا الأمر في منع أبي بكر الزهراء ميراثها ونحلتها وسوى ذلك، فقال: فلمّا منعها ميراثها، وبخسها حقّها واعتدى عليها، وجنح في أمرها، وعاينت الهضم وأيست من النزوع، ووجدت مسّ الضعف وقلّة الناصر، قالت لأبي بكر: والله لا أكلّمك أبداً، قال: والله لا أهجركِ أبداً. فإن يكن ترك النكير فيهم على أبي بكر دليلاً على صواب طلبها.. وأدنى ما يجب عليهم في ذلك تعريفها ما جهلت وحاشاها وتذكيرها ما نسيت، وصرفها عن الخطأ، ورفع قدرها عن النداء، وأن تقول هجراً، أو تجور عادلاً، وتقطع واصلاً، فإذا لم تجدهم أنكروا على الخصمين جميعاً، فقد تكافأت الأمور، واستوت الأسباب والرجوع إلى أصل حكم الله في المواريث أولى بنا وبكم، وأوجب علينا وعليكم....

فإن قالوا: فكيف يظنّ بأبي بكر ظلمها والتعدّي عليها؟ وكلّما ازدادت فاطمة عليها السلام غلظةً ازداد ليناً ورقّة.. ثمّ يتحمّل منها هذا القول الغليظ والكلام الشديد في دار الخلافة، وبحضرة قريش والصحابة؛ مع حاجة الخلافة إلى البهاء والتنزيه، وما يجب لها من الرفعة والهيبة، ثمّ لم يمنعه ذلك أن قال معتذراً أو متقرّباً كلام المعظّم لحقّها، المكبر لمقامها، الصائن لوجهها، المتحنّن عليها:

فما أحدُ أعزّ عليّ منك فقراً. . ولا أحبّ إلي منك غنى، ولكنّي سمعت رسول الله يقول: إنّا معاشر الأنبياء لا نوّرث، ما تركناهُ صدقة.

قيل لهم: ليس ذلك بدليل على البراءة من الظلم، والسلامة من الجور، وقد يبلغ من فكر الظالم ودهاء الماكر إذا كان أريباً للخصومة معتاداً أن يظهر كلام المظلوم، وذلّة المنتصف، وحدب الوامق ومقة المحقّ[1].

وقد قدّم الجاحظ (ت ٢٥٥ ـ هـ) وهو من رواة الدرجة الأولى باعتباره أقرب المؤرخين للحدث هذه المقارنة السليمة في دعوى الزهراء ومنع أبي بكر. . وأكد على الرجوع إلى كتاب الله مع تكافؤ الفرص، واستواء الأسباب في عدم الإنكار على الخصمين المتنازعين في حجج كلّ منهما.

وأبان أنّ المعتدي قد يبدو كالحمل الوديع براءة. . والظالم كالمظلوم المنتصف. . مما يبلغه فكر الظالم، ودهاء الماكر. . . الخ.

١٣ ـ يقول ابن أبي الحديد المعتزلي (ت ٦٥٦ ـ هـ):

(وقلتُ لمتكلّم من متكلّمي الإمامية يعرف بعلي بن تقي من بلدة النيل: وهل كانت فدك إلاّ نخلاً يسيراً وعقاراً ليس بذلك الخطير؟ فقال لي: ليس الأمر كذلك، بل كانت جليلة جدّاً، وكان فيها من النخل نحو ما بالكوفة الآن من النخل!.

(١) السيد المرتضى، الشافي: ٢٣٠.

وما قصد أبو بكر وعمر بمنع فاطمة عنها إلاّ أن لا يتقوى عليٌّ بحاصلها وغلّتها على المنازعة في الخلافة!.

ولهذا أتبعا ذلك بمنع فاطمة وعليّ وسائر بني هاشم وبني عبد المطلب حقّهم من الخمس!؟.

فإنّ الفقير الذي لا مال له نصف همّته، ويتصاغر عند نفسه، ويكون مشغولاً بالاحتراف والاكتساب عن طلب الملك والرياسة)[1].

وهذا الرأي كما ترى عرض وجه الموضوع جلياً.. والوجه الآخر واضحاً ونكتفي بهذه الظواهر والعوامل في قضية فدك نحلةً وأصلاً وموضوعاً للجدل والخصام والاحتجاج.. لنقف على وجه آخر من الموضوع.

* * *

وبغية أن يتكامل الموضوع من وجهين؛ وجه الحقّ والمجادلة فيه.. ووجه مصير فدك في مسيرتها التاريخية.. لتكون الرؤية متكاملة.. في تقلّبات الأجيال والحكّام والملوك فيها من الاحتجان تارةً، والردّ بها إلى ذويها تارةً أخرى.. والمنع والعطاء بإيجاز معمّق.

سبق القول إنّ أمير المؤمنين عليه السلام لدى تولّيه الخلافة لم يعرض لفدك..

---

(١) الجاحظ، رسائل الجاحظ، الرسالة العباسية: ٢٢، تحقيق: حسن السندوبي، المطبعة الرحمانية، القاهرة، ١٣٥٢هـ، المرتضى، الشافي: ٢٣٣.

لا من قريب ولا من بعيد، وكذلك الحال في سهم ذوي القربى، وإنّما أجراهما على ما كان عليه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما فلم يشأ الإمام علي عليه السلام أن يتّسع الخرق في مخالفة الشّيخين.. وكذلك الحال في خلافة الإمام الحسن عليه السلام في تلك الحقبة القصيرة.

فلمّا احتجن معاوية بن أبي سفيان الخلافة لنفسه.. وجعلها ملكاً عضوضاً.. تحت طائلة نقض العهود والمواثيق، والكذب في المواعيد، والغدر بكلّ ما عاهد عليه الحسن بن علي عليهما السلام[1].

واستولى على فدك فأقطعها طريد رسول الله (مروان بن الحكم) ثلثاً.. وأقطع عمرو بن عثمان بن عفّان ثلثها الثاني، وأقطع ولده الفاسق الفاجر يزيد ثلثها الأخير.

كان ذلك بعد استشهاد الإمام الحسن عليه السلام عام خمسين للهجرة.. وبقيت بأيدي هؤلاء يتداولونها بالتناوب.. وهذا يؤيّد كون فدك كانت واسعة مترامية الأطراف في نخيلها وبساتينها.. وهو ما يفسّر لنا حدب الخلفاء من الأمويين والعباسيين على اقتطاعها حيناً.. وإرجاعها لأهلها حيناً آخر.

ومهما يكن من أمرٍ، فقد ظلّت فدك بيد الأمويين.. حتّى عادت خالصة لمروان بن الحكم.. وقد وهبها لولده عبد العزيز.. فوهبها عبد العزيز لابنه عمر بن عبد العزيز.. فلما ولي الخلافة بين (٩٩- ١٠١ ـ هـ).. كانت أول

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٦/٢٣٦، وما بعدها.

ظلامة ردّ على العلويين. وأترك الكلام من هنا إلى أبي بكر الجوهري في إيجاز موضوع فدك، قال:

فدعا يعني عمر بن عبد العزيز الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام، وقيل: بل دعا علي بن الحسين زين العابدين فردّها عليه.

وكانت بيد أولاد فاطمة عليها السلام مدّة ولاية عمر بن عبد العزيز ن فلمّا ولي يزيد بن عاتكة قبضها منهم.. فصارت في أيدي بني مروان حتّى انتقلت الخلافة (الملك) إلى بني العباس.

فلما ولي أبو العباس السّفاح ردّها على عبد الله بن الحسن بن الحسن.. ثمّ قبضها أبو جعفر (المنصور) لما حدث من بني حسن ما حدث.. ثمّ ردّها ابنه المهدي على ولد فاطمة عليها السلام، ثمّ قبضها موسى بن المهدي وأخوه هارون.. فلم تزل في أيديهم حتّى ولي المأمون، فردّها إلى الفاطميين... فلم تزل في أيديهم حتّى كان في أيام المتوكل، فأقطعها عبد الله بن عمر البازيار.. وكان فيها إحدى عشرة نخلة غرسها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بيده، فكان بنو فاطمة يأخذون تمرها، فإذا قدم الحجاج أهدوا لهم من ذلك التمر.. فيصلونهم فيصير إليهم من ذلك مال جزيل.

فصرم[1] عبد الله بن عمر البازيار ذلك التمر.. وجه رجلاً يقال له (بشران بن أبي أمية الثقفي إلى المدينة فصرمه.. ثمّ عاد إلى البصرة ففلج)[2].

(١) ظ: تفصيل ذلك في كتابنا الإمام الحسن رائد التخطيط الرسالي، رؤية معاصرة في قيادته الإستراتيجية، مؤسسة العارف، بيروت، ٢٠٠٢م، ضمن (موسوعة أهل البيت الحضارية) للمؤلف.

(٢) صرم: جذّه وقطعه.

هذه هي مسيرة فدك في التاريخ.. تؤخذ وتغتصب ويتداولوها أبناء الطلقاء من أمويين وعباسيين!.

أرأيت تعاقب الأيدي عليها؟ أرأيت تلاقفها بين اللصوص؟ أرأيت تكالب الملوك وأبناء الملوك على فدك باسم الخلافة؟ أرأيت كيف جذّت وقطعت واجتثت النخلات المباركة، التي غرسها رسول الله ﷺ بيده الكريمة؟ لئلا يشبع جائع، أو يرفه محروم، أو يتمتع بائسٌ إلى حين.

ولك أن تنظر جذ النخل، وأصرمه واسترح!.

لا تبقي أثراً لفدك.. ففدك صوت الظلامة الصارخ! ولعلّه السرّ السّرمدي في كلّ هذه الإجراءات الصارمة والمصادرات المتتابعة من قبل سلاطين الجور!.

ودع عنك أمرٌ هذه النخلات في فدك كثيرة أو قليلة فإنّها كانت دون أدنى شكّ رمزَ ما جرى على الزهراء عليها السلام من مصائب.. وهي تحكي تهميش دور أهل البيت في قيادة الأمّة.

ولمّا كانت مصادرة فدك من الشهرة بمكان.. فقد عادت موئل إنعاش روح النضال ضدّ التسلّط الرسمي.. وعنوان الحركة الدائبة في مجابهة التحدّي بالتحدّي الأكبر.. ومقابلة الابتزاز اللا مسؤول بالصوت الرافض عبر العصور والأجيال حتّى اليوم.

دعوى الزهراء

هذا بحثٌ كلامي ذو مشكلات متناقضة الأطاريح.. تتأقلم بين الإفراط والتفريط.. وتتقلّب بين النقض والإبرام.. وتتراوح بين التأكيد والاستبعاد.. وتتمثل بين الإقرار والإنكار.

وقد يصعب على الباحث ضبط الرؤية دون حسّاسية.. ومعالجة الموضوع دون إثارة.. إلاّ أنّي أرجو بعرضه متجرّداً أن لا أثير حفيظة المتطرفين في جحدهم له، ولا تساؤل الآخرين ممن يؤمن ببعض ويكفر ببعض.. ولا إشكاليات اللاهثين وراء الشّتم والسباب.. عسى أن أجد طريقاً وسطاً بين ذلك كلّه.. وأحسب أنّ التوفيق سوف يحالفني إن شاء الله تعالى ببركة الزهراء وأبيها وبعلها وبنيها صلوات الله عليهم أجمعين ـ مع مراعاة الموقع الأخلاقي في المسؤولية أمام الضمير والواقع الإسلامي الذي بعثرته الأهواء، ودعوات التضليل المبرمج في الفضائيات ومواقع الإنترنيت المتخبطة في دياجير الظلام، والابتعاد عن حضيرة الدين الحنيف، داعين إلى وحدة المسلمين في ظلّ الشهادتين: (أشهد أن لا إله إلاّ الله، وأشهد أنّ محمداً رسول الله)، وهذا هو التوحيد الداعي إلى وحدة الكلمة وجمع الشّمل.

ونرى وبكلّ صراحة أنّ الذي يفرّق بين أهل القبلة على أساسٍ مذهبي، أو عرقي، أو طائفي، أو قومي، أو سلطوي، أو فئوي، أو سياسي. . هو أعرق الناس خيانة للإسلام، وأشدّ أعداء محمد وآله الطاهرين، وصحبه المنتجبين، ومن تبعهم بإحسان.

وبما أنّ السلف الصالح من العلماء والكلاميين قد ابتكروا علم الكلام وفن الاحتجاج والجدل بدافع نصرة عقائدهم. . ولم يلمهم أحد على ذلك؛ لأنّ العقيدة تنبع من صميم النفس الإنسانية، ولا تفرض بالقوة. . ولا تحارب بالتهويل والادعاءات الباطلة. . ولا تصدّ بالتطرّف الديني والتهجّم الرخيص. . وبدعاوى التكفير والبدع والضلال؛ فإنّي أطرح هذا الموضوع بكثيرٍ من الشفافية والدبلوماسية. . بعد أن تناولوه بكثيرٍ من الشدّة والعنف.

وينبغي للتفكير الحرّ أن يعلن واثقاً بأنّ المسلمين: كتابهم واحد. . وقبلتهم واحدة. . ودينهم واحد في صلاته وصومه وحجه وزكاته وخمسه. . وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. . وفي سائر العبادات والمعاملات والإيقاعات والقصاص والإرث وسواها، وإن حصل الاختلاف في بعض الفروع. . فأمامنا قول أحمد شوقي:

واختلاف الرأي لا يفسدُ للودّ قضيّةْ

وما هذه الأحداث الدموية بين طوائف المسلمين في كلّ من باكستان وأفغانستان واليمن والعراق وسوريا وإفريقيا. . وفي جملة من بلدان شرق

آسيا إلاّ بذرة من بذور الشرّ التي غرستها في أراضيهم الدعوات المتطرفة بوحي من الاستعمار العالمي، ومن ورائه (إسرائيل).

إنّ القرآن ليشجب الاعتداء على الجنس البشري.. فكيف بالاعتداء الدموي على المسلمين، والله يقول: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾[1].

أين نحن اليوم من قيم الإسلام ومثل القرآن؟ أهكذا تسفك الدّماء بلا حرمة.. وتنتهك الأعراض دون مبرّر؟ أيهجم على المساجد والجوامع ودور العبادة وأولياء أهل البيت عليهم السلام بالتفجير والمفخخات والإبادة الجماعية؟ ألا رشيد في القوم؟ ألا قائل: هذا يصلّي لربّه في مسجده.. وهذا يعبد الله في جامعٍ ما وذلك يتقرّب إلى الله تعالى بإحياء الشعائر الدينية ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾[2].

إنّه التخطيط الاستعماري للسياسة العالمية التي شاءت ومنذ مائة عام أن تطبّق مبدأ (فرّق تسد) وهكذا كان! فقد أوقدوا الفتنة بين الشعوب الإسلامية.. وأبرزوا ذلك في إشعال العنف الطائفي.. فمتى يستيقظ المسلمون

(١) أبو بكر الجوهري، السقيفة، أورده ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٦/ ٢١٦.
(٢) سورة المائدة: ٣٢.

من هذه الغفوة المدمّرة.. واليد الاستعمارية التي تجرّ بلاد الإسلام إلى كوارث من شريعة الغاب.. وانتكاسات بشرية يتحدّث عنها لدى الهنود الحمر قبل اكتشاف الدنيا الجديدة: أميركا!.

ومهما يكن من أمرٍ.. فإنّ دعوى الزهراء.. تتلخص بنقاطٍ ثلاث:

١ ـ النحلة ٢ ـ الميراث ٣ ـ سهم ذوي القربى.

وما كان للزهراء أن تتحدّث بالمطالبة في هذا بإلحاف كما رأيت في الخطبة في المسجد النبوي وسواها.. لو لم تكن واثقة تمام الثقة.. ومتيقنة عين اليقين.. بشرعية ما ادّعت.. وموضوعية ما طرحت.. والزهراء لها وظيفتها القيادية فيما تقرّر.. ولها تكليفها الإسلامي فيما تناظر وتحاور.. ولها ممارستها المتفوّقة بسبر الأحكام الإلهية ومعرفة دلالتها في ضوء القرآن والسنة.

وأبو بكر رضي الله عنه ليس بالرجل الذي يجهل هذا الموروث الديني لدى الزهراء عليها السلام وهو يعتقد بنفسه جازماً أنها ربيبة العقيدة بكلّ معاني الكلمة.. والعاملة على ترسيخ أسسها في الضمائر.. وتطبيق مفردات الشرع بحذافيرها.. بالتعاون الرسالي مع أمير المؤمنين عليه السلام قائد الحملات الجهادية في مشاهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وحامل رايته العظمى في الغزوات والحروب والمعارك...

وأبو بكر قد وعى هذا وذاك بدقّةٍ متناهية.. وقد حضر نفسه مجريات الأحداث كافة.. وقد انتشرت أنباؤها في الحضيرة الإسلامية انتشار النار في الحطب الجزل...

وهو أعلم الناس في عصره بموقع علي والزهراء عليهما السلام من الإسلام والكتاب والسنّة.. والسابقية إلى الإيمان!.

ومراعاة لهذا العلم الذي يدركه إدراكاً جيّداً.. كان عليه أدبياً أن تسمح نفسه بإعطاء الزهراء ما طالبت به.. وإرضاءها بكلّ صورة مع قطعه بصحّة دعواها، وصدق حديثها.. وهو بمنصب الخليفة المطاع والسلطان المطلق.. وللسلطان أن يهب ما يشاء لمن يشاء، وأن يعطي ما يشاء لمن يشاء.. كما أعطى ووهب وأجزل لغير بنت نبيينا محمد صلى الله عليه وآله إذ كان لا يعتقد أحقيتها الشرعية! ولكن كيف المصير مع النصوص القرآنية الجمّة التي أوردتها الزهراء.. وقاعدة وضع اليد.. وقاعدة التصرّف عياناً وبعلم المسلمين.. والشهود بكلّ ذلك؛ وفي طليعتهم أمير المؤمنين عليه السلام.

ولكنّ أبا بكر رضي الله عنه كان أذكى من أن يسجل على نفسه الاستجابة لدعوى الزهراء.. فلو تطامن وأذعن لهذا الحقّ المشروع، لطالبته الزهراء بالحق المشروع الأعظم.. وهو التخلّي عن الخلافة! يقول ابن أبي الحديد المعتزلي (٦٥٦هـ):

(وسألتُ علي بن الفارقي مدرس المدرسة الغربية ببغداد، فقلت له: أكانت فاطمة صادقة؟ قال: نعم؛ قلت: فَلِمَ لم يدفع إليها أبو بكر فدكاً.. وهي عنده صادقة؟. فتبسّم؛ ثم قال كلاماً لطيفاً مستحسناً، مع ناموسه وحرمته، وقلّة دعابته! قال: لو أعطاها اليوم فدكاً بمجرّد دعواها لجاءت إليه غداً..

وادّعت لزوجها الخلافة.. وزعزعته عن مقامه! ولم يمكنه الاعتذار والموافقة بشيء.. لأنّه قد أسجل على نفسه أنّها صادقة فيما تدّعي كائناً ما كان؛ من غير حاجةٍ إلى بيّنة، ولا شهود.

وهذا كلام صحيح؛ وإن أخرجه مخرج الدعابة والهزل)[١].

وقد عقّب على هذا ابن أبي الحديد نفسه لدى مناقشته للقاضي عبد الجبار المعتزلي، وللسيّد المرتضى في الموضوع، وقال:

(لقد كان التكرّم ورعاية رسول الله ﷺ وحفظ عهده.. يقتضي أن تعوّض ابنته بشيءٍ يرضيها إن لم يستنزل المسلمون عن فدك.. وتسلّم إليها تطييباً لقلبها.. وقد يسوغ للإمام أن يفعل ذلك من غير مشاورة المسلمين إذا رأى المصلحة فيه)[٢].

وما أبداه ابن أبي الحديد في هذا التعقيب مخالفٌ لما علّق به على رأي علي بن الفارقي بقوله: (وهذا كلام صحيح)، فإن كان كلام الفارقي صحيحاً.. فكلام ابن أبي الحديد غير صحيح، وذلك أنّ ابن الفارقي أجاب عن سؤاله: أكانت فاطمة صادقة؟ قال: نعم؛ قلت: فَلِمَ لم يدفع إليها أبو بكر فدكاً.. وهي عنده صادقة؟.

فالفارقي تبعاً لأبي بكر يرى أنّها صادقة، وابن أبي الحديد تبعاً لابن الفارقي

(١) سورة الحج: ٣٢.
(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٦/٢٨٤.

يرى أنّها صادقة! ويرى ذلك كلاماً صحيحاً.. ثمّ يناقض نفسه ويعتبر فدكاً للمسلمين.. ومن التكرم ورعاية حقّ رسول الله ﷺ أن تعوّض ابنته بشيءٍ يرضيها تطييباً لقلبها! وهنا نجده يسرّ حسواً في ارتغاء! فبينا يعتبرها صادقة.. فهي مالكة فدك إذن.. وإذا به يريد من أبي بكر تطييب قلبها.. وهذا من قبيل تهدأة الخواطر بالأشدّ، وتضميد الجراح بالأنكى.. وهو بذلك كالأعرابي حينما يهذّ الشعر هذّا.

ولقد استدلّ السيّد المرتضى أنّ الزهراء عليها السلام ما ادّعت من نحل فدك غلاّ ما كانت مصيبة فيه.. وإن مانِعَها ومطالبها بالبينة متعنّت.. لأنّها لا تحتاج إلى شهادة وبيّنة؛ لأنّها كانت معصومة من الغلط، مأموناً منها فعل القبيح؛ ومن هذه صفته لا يحتاج ـ فيما يدّعيه إلى شهادة وبيّنة[1].

* * *

(١) المصدر نفسه: ١٦/ ٢٨٤.

صدق الزهراء

من الثوابت التي لا تحتاج إلى كبير عناء (صدق الزهراء) عليها السلام واستقراء ذلك تاريخياً وإسلامياً يشكّل حقيقة ناصعة لا يناقش في أصالتها.. الزهراء عليها السلام صادقة في شتّى ميادين الحياة.. وفي الحقل الإسلامي بخاصة، حتّى عاد صدى انتشار هذه الحقيقة مدوّياً في الآفاق.. يبدو بشفافية صافية لا تزيّد فيها ولا إضافة.

هنالك نصّان متقاربان في الدلالة الاجتماعية تؤكّدهما أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها بهالةٍ من الدقّة والتحديد.. فتقول:

١ ـ ((ما رأيتُ أحداً أصدق لهجةً من فاطمة.. إلاّ أن يكون الذي ولدها)) [١].

٢ ـ ((ما رأيت أحداً أصدق لهجة من فاطمة غير أبيها)).

والنصّان ينطقان بكون الزهراء عليها السلام أصدق العالمين حصراً.. والذي أصدق منها هو أبوها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خاتم النبيين، وأصدق العالمين.

---

(١) ظ، السيد المرتضى، الشافي: ٢٣٥.

وهذا ما ترويه كتب الجمهور عن عائشة.. وإذا كان القول صادراً عن عائشة رضي الله عنها فإنّها غير متّهمة بالتعصب للزهراء عليها السلام أوّلاً. وإذا كانت عائشة هي التي تقرّر هذه الحقيقة فأوّل العارفين بذلك ثانياً أبوها أبو بكر رضي الله عنه، وإذا كان الأمر كذلك؛ وهو كذلك.. فلم يكن جديراً بأبي بكر رضي الله عنه أن يطلب من الزهراء الإشهاد في دعواها تارةً، وبالبيّنة تارةً أخرى.. مع علمه يقيناً بصدقها.. وللحاكم أن يحكم بعلمه دون إشهادٍ أو بيّنة.. وأبو بكر هو القائل للزهراء عليها السلام بعد خطبتها في المسجد النبوي: (صدقت يا بنت رسول الله).

وهناك أحداثٌ معاصرة لحقبة الزهراء التاريخية لها أهميّتها الموضوعية.. تؤيّد الأخذ بمجرّد قول الزهراء وحده دون بيّنة أو إشهاد، فكيف بوجودهما معاً!.

وأبرز هذه الأحداث التصاقاً بالموضوع:

١ ـ شهادة خزيمة بن ثابت الأنصاري وحده للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وإمضاء النبي لتلك الشهادة حتّى سميّ خزيمة ذا الشّهادتين.. فعادله هذا فيما بعد إسماً يعرف به، وهو: (خزيمة ذو الشهادتين).

وأمر ذلك فيما روي متواتراً: أنّ أعرابياً نازع الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم في ناقة.. فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**هذه لي، وقد خرجت لك عن ثمنها**. فقال الأعرابي: من يشهد لك بذلك؟ فقال خزيمة بن ثابت: أنا أشهد بذلك!.

فقال النبيّ ﷺ: **من أين علمت بذلك؟ وما حضرت ذلك!** قال خزيمة: لا، ولكن علمت ذلك من حيث علمت أنّك رسول الله! فقال رسول الله ﷺ: **قد أجزتُ شهادتك، وجعلتها شهادتين، فسميّ ذا الشهادتين»**(١).

وعقّب السيّد المرتضى علم الهدى (ت ٤٣٦هـ) على ذلك بقوله: وهذه القصة شبيهة لقصّة فاطمة عليها السلام لأنّ خزيمة اكتفى في العلم بأنّ الناقة له ﷺ وشهد بذلك من حيث علم أنّه رسول الله.. ولا يقول إلاّ حقّاً.. وأمضى النبيّ ﷺ ذلك له من حيث لم يحضر الابتياع والثمن! فقد كان يجب على من علم أن فاطمة عليها السلام لا تقول إلاّ حقّاً، أن لا يستظهر عليها بطلب شهادة أو بيّنة.

هذا وقد روي أنّ أبا بكر لما شهد أمير المؤمنين عليه السلام.. كتب بتسليم فدك إليها.. فاعترض عمر قضيّته.. وخرّق ما كتب(٢).

وعلمُ أبي بكرٍ رضي الله عنه بصدق الزهراء عليها السلام لا يدانيه ريبٌ، فطالما قال لها عند المحاججة: صدقتِ يا ابنة رسول الله! وعلمه هذا مقدّمٌ على البيّنة.. باعتبار غلبة الظنّ على الشهادة.. والعلم أرقى من البيّنة! وهو منه إقرار.. فكما لا يحتاج مع العلم إلى بيّنة فهو كذلك لا يحتاج مع الإقرار إلى بينة.. لأنّ الإقرار سيّد الأدلة كما يقول فقهاء القانون.

---

(١) ظ، ابن عبد البر، الاستيعاب: ٢/ ٧٥١، طبعة حيدر آباد الدكن، والهيثمي، مجمع الزوائد ٢٠١/٩، وأبو نعيم، حلية الأولياء: ٤١، مطبعة السعادة، القاهرة، والحاكم النيسابوري، المستدرك: ١٦٠/٣، طبعة حيدر آباد.

(٢) ظ، السيد المرتضى، الشافي: ٢٣٥، وانظر أسانيده المعتبرة عند الجمهور.

٢ ـ هناك شهادة لأمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام بصدق أبي ذرّ رضي الله عنه.. تجري هذا المجرى من الوقائع، وذلك عندما روى أبو ذرّ رضي الله عنه عند عثمان رضي الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «**إذا بلغ بنو أبي العاص ثلاثين رجلاً جعلوا مال الله دولاً، وعباده خولاً، ودينه دَخَلاً**».

فقال عثمان لمن حضر: أسمعتموها من رسول الله؟ قالوا: لا.

فقال عثمان: ويلك يا أبا ذرّ أتكذب على رسول الله؟.

فقال أبو ذرّ: أم تدرون أني صدقت؟ قالوا: لا، والله ما ندري!.

فقال عثمان: ادعوا لي علياً، فلمّا جاء؛ قال عثمان لأبي ذرّ: أقصص عليه حديثك في بني أبي العاص، فأعاده، فقال عثمان لعلي: أسمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: لا، وقد صدق أبو ذرّ!. فقال: كيف عرفت صدقه؟ فقال أمير المؤمنين عليه السلام سمعتُ رسول الله يقول: «**ما أظلّت الخضراء، ولا أقلّت الغبراء من ذي لهجة.. أصدق من أبي ذرّ**».

فقال من حضر: أمّا هذا فسمعناه كلّنا من رسول الله.

فقال أبو ذرّ: أحدّثكم أني سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فتتهموني؟ ما كنتُ أظنّ أن أعيش حتّى أسمع هذا من أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم(١).

ومن خلال هذا الحدث والحديث معاً نجد أمير المؤمنين عليه السلام قاطعاً

(١) المصدر نفسه: ٢٣٥، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٦/٢٧٣.

بصدق أبي ذرّ وصدق روايته، لعلمه بكون أبي ذر صادقاً استناداً إلى الحديث الشريف سماعاً من النبيّ ﷺ مباشرة.. وهذا ما ينطق بأرقى مراتب صدق أبي ذرّ دون شكّ.. ولا يحتاج معه إلى ضمائم أخرى لتصديق ما رواه لعثمان في بني أبي العاص.. فشهادة النبيّ ﷺ لا تعادلها شهادة، أو رواية!.

وعوداً على بدء فإنّ عائشة رضي الله عنها لا تكتفي بما قالت سابقاً.. بل أضافت إليه خصائص الزهراء المشابهة لخصائص أبيها فقالت (ما رأيت أحداً كان أشبه سمتاً وهدياً، ودلاً، وحديثاً، وكلاماً برسول الله ﷺ من فاطمة كرم الله وجهها)[1].

فهي تضيف إلى الصدق شمائل رسول الله الخَلقية والخُلقية والنفسية؛ فالسمت في الهيبة والوقار، والهدى في الحركة والسكون.. والدلّ في الحيثية والكيفية والهوية.. والحديث في الصدق ونبرات الصوت.. والكلام في البلاغة والأداء والتبليغ.

هذه الخصائص التي أشارت إليها أمّ المؤمنين تشارك الزهراء فيها أباها رسول الله ﷺ تكوينياً.

والبحث في إطاره الإثباتي ليس بحاجةٍ إلى تأكيد هذه الصفات؛ لأنّها كالشمس في رائعة النهار تدلّ بذاتها على ذاتها، وبأنوارها على أطوارها.

---

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٢٥٨/٨، وانظر مصادره وأسانيده.

أمّا صدق اللهجة عند الزهراء فهو من المسلّمات الأولية لدى الإمامية، وعند الجمهور.. بل هو في الذروة العليا لأبرز مصاديق الصدق والتصديق في مفهومه العام.. فضلاً على المفهوم الخاص، فحسبها أنّها الصادقة الصدّيقة وكفى.

وهذا الملحظ في ضوء موازينها الموضوعية يدعم فعلاً بنصوص القرآن الكريم.. فكونها من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً.. نصّ على صدقها؛ لأنّ الآية في سياق الحديث عن العصمة.. والصدق من مصاديق العصمة دون ريب، والقرآن نصٌّ، ولا اجتهاد في مقابل النصّ.

ويدعم هذا بالسنة القطعية الصدور البالغة حدّ التواتر في السعة والانتشار والرواية.. وهذا ظاهر الدلالة بالسيرة الذاتية للزهراء عليها السلام إذ لم يسجّل لها أعداؤها زللاً في قول.. ولا شططاً في حديث، فضلاً عن أوليائها.. فهي صادقة ومصدّقة إجماعاً باصطفاف وقائع الأحداث العريضة في عصرها.. الناطقة بعفّة اللسان وصدق اللهجة.. وذلك من الثوابت.. والثوابت لا تتحوّل.. وعلى هذا تكون كلّ دعوى صادرة عن الزهراء دعوى صادقة بامتياز.. فالأدلّة قد سبقتها.. وقرائن الحال قد تقدّمتها.. والنتائج السليمة تبنى على المقدمات السليمة.. وهذا ما يقرّره العقل البشري المتنوّر.. ويؤيّده علماء المنطق الأرسطي.

فإذا أضفنا إلى هذا عصمة الزهراء في كلّ جزئية وكليّة.. قادنا البحث في عصمتها إلى القول بصدقها قطعاً..

وآية التطهير صادعة بقصر الإرادة الإلهية من وجهين:

الأول: قصر الإرادة في إذهاب الرجس والتطهير.

الثاني: قصر هذه الإرادة بأهل البيت خاصة.

والإرادة في الآية مطلقة غير محدودة.. وبذلك تتعيّن عصمتهم عليهم السلام، والمراد والله العالم إزالة كلّ آثار الرجس.. ويقابله التطهير الشامل، وذلك جارٍ في القول والعمل.. والصدق قولٌ وعمل.

وهنا نجد الآية قد قابلت إذهاب الرجس بإثبات التطهير، قال السيّد الطباطبائي قدّس سرُّه في هذا المحور:

(إنّ الله سبحانه تستمرّ إرادته أن يخصّكم بموهبة العصمة بإذهاب الاعتقاد الباطل، وأثر العمل السيء عنكم أهل البيت.. وإيراد ما يزيل أثر ذلك عليكم هو: العصمة)[1].

وإذا زاوجنا بين النصّ القرآني في آية واحدة تطبق المفصل في الأداء.. وقد جمعت أروع فنون البلاغة العربية في التعبير والمعنى الإيحائي.. إذا زاوجنا بين هذا وبين السّنة القطعية الصدور.. وأكتفي بحديث واحد متواتر

---

(١) أبو داود، السنن: ٧٦٦/٢،والترمذي ن السنن: ٥/ ٧٠٠، والاستيعاب: ٢/ ٧٥١.

روي عنه ﷺ بعشرات الطرق الصحيحة وعشرات الأسانيد الموثقة: «**فاطمة بضعة منّي.. من آذاها فقد آذاني.. ومن آذاني فقد آذى الله عزّ وجل**»[١].

قال السيد المرتضى معقّباً على الحديث الشريف:

(وهذا يدلُّ على عصمتها يعني الزهراء عليها السلام لأنّها لو كانت ممن تقارف الذنوب لم يكن من يؤذيها مؤذياً له على كلّ حال.. بل كان متى فعل المستحق من ذمّها، أو إقامة الحدّ عليها، وأنّ كان الفعل تقتضيه ساراً له ومطيعاً.. على أننا لا نحتاج أن ننبّه في هذا الموضع على الدلالة على عصمتها.. بل يكفي في هذا الموضع العلم بصدقها فيما ادعته.. وهذا لا خلاف فيه بين المسلمين.. لأنّ أحداً لا يشكُّ أنّها لم تدعِ ما ادّعته كاذبة.. وليس بعد أن لا تكون كاذبة إلاّ أن تكون صادقة.. وإنّما اختلفوا في هل يجب مع العلم بصدقها تسليم ما ادعته بغير بيّنة، أم لا يجب ذلك)[٢].

وصدق الزهراء وحركية عصمتها يمكن للبحث أن يأطّره بما هو أشمل دلالة.. بحيث تتهاوى الولائج الدفينة.. وتتهافت الدعاوى المضادة في ضوء ما روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام بقوله: «**وإنّما سمّيت فاطمة لأنّ الخلق فطموا عن معرفتها**»[٣].

---

(١) الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن: ١٦/ ٣١٣.

(٢) المرتضى، الشافي: ٢٣٥، والطبري، دلائل الإمامة: ٤٥، والمجلسي، بحار الأنوار: ٤٣/١٧٠، وانظر مصادرهم.

(٣) المرتضى، الشافي: ٢٣٥، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٦/٢٧٣.

وتعبير الإمام هذا يوحي بالاستقصاء الشامل في عدم معرفتها من قبل الكائنات.. لتقاصرها عن إدراك كنهها بتفصيلاته المركبة من مجموعة الامتيازات النوعية لدى الزهراء مقترنة بالألطاف الإلهية اللا متناهية في العطاء والإمداد الغيبي.

وهذا يجرّنا إلى التحقيق العلمي المجرّد في الأصل من دعوى الزهراء الذي جعلت من فدك مدخلاً له في الاحتجاج والتصدّي.

دعوى الزهراء .. رسالية لا مالية

قد يقال بأنّ الزهراء عليها السلام قد كفّت عن المنازعة والمشاحنة بعد أن روى أبو بكر رضي الله عنه متردّداً أو متسامحاً على لسان النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: (نحن معاشر الأنبياء لا نورّث ما تركناه صدقة).

وقد علمت علماً يقينياً أنّ القوم قد أجمعوا عليه والأخذ به لئلا يفتح عليهم باب لا سبيل إلى غلقه.. إلاّ إنّ الزهراء لم تسلّم لهذا الأمر.. ولا خضعت لبوارقه (لكنّها انصرفت مغضبة.. متظلّمة.. متألّمة، والأمر في غضبها وسخطها أجلى من أن يخفى على منصف.. فقد رواه أكثر الرواة الذين لا يتّهمون بتشيّع.. ولا عصبية فيه من كلامها في تلك الحال. وبعد انصرافها عن مقام المنازعة والمطالبة ما يدلُّ على ما ذكرناه من سخطها وغضبها)[1].

وقد بذل السيّد المرتضى قصارى جهده في التحقيق بأصل الدعوى وفرعها حين أوردها عن طريقين:

الطريق الأول، قال فيه، وفي سنده:

((أخبرنا أبو عبيد الله محمد بن عمران المرزباني، قال: حدّثني محمد

(١) المجلسي، بحار الأنوار: ٥٨/٤٣، وانظر مصادره وأسانيده.

بن أحمد الكاتب، قال: حدّثني أحمد بن عبيد بن ناصح النحوي، قال: حدّثني الزيادي، قال: حدّثنا الشرقي بن القطامي عن محمد بن إسحاق، قال: حدّثنا صالح بن كيسان، عن عروة، عن عائشة رضي الله عنها قالت: (لمّا بلغ فاطمة إجماع أبي بكر على منعها فدك.. لاثت خمارها على رأسها.. واشتملت بجلبابها.. وأقبلت في لمّةٍ من حفدتها). (اتفقا من هنا).

الطريق الثاني، قال المرتضى:

وأخبرنا المرزباني، قال: حدّثنا أبو بكر أحمد بن محمد المكي، قال حدّثنا أبو العيناء بن القاسم اليماني، قال: حدّثنا ابن عائشة، قال: (لمّا قبض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أقبلت فاطمة إلى أبي بكر في لمّةٍ من حفدتها، ثمّ اجتمعت الروايتان من ههنا، ونساء قومها.. تطأ ذيولها ما تخرم مشيتها مشية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى دخلت على أبي بكر، وهو في حشدٍ من المهاجرين والأنصار وغيرهم، فنيطت دونها ملاءة فجلست، ثمّ أنّت أنّة أجهش لها القوم بالبكاء، وارتجّ المجلس ثمّ أمهلت هنيهة.. حتّى إذا سكنّ نشيج القوم، وهدأت فورتهم، افتتحت كلامها بالحمد لله عز وجل، والثناء عليه، والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم قالت:« ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1]. **فإنّ تعزوه وتعرفوه تجدوه أبي دون آبائكم، وأخا ابن عمّي دون رجالكم،، فبلغ الرسالة صادعاً**

(١) السيد المرتضى، الشافي: ٢٣٠.

بالنذارة، مائلاً عن سنن المشركين. . ضارباً ثبجهم. . يدعو إلى سبيل ربّه بالحكمة والموعظة الحسنة. . أخذاً بأكظام المشركين[١]. يهشّم الأصنام، ويفلّق الهام، حتّى انهزم الجمع وولّوا الدبر. . وحتّى تفرّى الليل عن صبحه، وأسفر الحقّ عن محضه، ونطق زعيم الدين، وخرست شقاشق الشياطين[٢]، وتمت كلمة الإخلاص ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾[٣]، نهزة الطامع. . ومذقة الشارب. . وقبسة العجلان. . وموطأ الأقدام، تشربون الطرق[٤]. . وتقتاتون القِدّ. . أذلّة خاسئين، تخافون أن يتخطّفكم الناس من حولكم، حتّى أنقذكم الله برسوله ﷺ بعد اللتيا والتي، وبعد أن مُني ببهم الرجال، وذؤبان العرب، ومردة أهل الكتاب: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾[٥] حتى يطأ صماخها بأخمصه[٦]، ويطفيء عادية لهبها بحدّه، مكدوداً في ذات الله، وأنتم في رفاهية فاكهون آمنون»[٧].

وإلى هنا تنتهي رواية أبي العيناء لجزءٍ من الخطبة عن ابن عائشة.

وأمّا رواية عروة عن عائشة. . فزاد بعدها ما يأتي:

(١) سورة التوبة: ١٢٨.
(٢) الأكظام: جمع كَظَم بفتح الأول والثاني: مخرج النفس من الحلق.
(٣) شقاشق: جمع شِقشقة، وهي الوبد الذي يخرج من فم البعير عند هديره.
(٤) سورة آل عمران: ١٠٣.
(٥) الطرق: الماء المختلط ببول الإبل والحمير.
(٦) سورة المائدة: ٦٤.
(٧) الصماخ: الهام، وهو الرأس من الجسد.

«حتّى إذا اختار الله لنبيّه دار أنبيائه، ظهرت حسيكة النفاق[١]، وسمل جلباب الدين[٢]، ونطق كاظم الغاوين، ونبغ خامل الأفكين، وهدر فنيق المبطلين[٣]، فخطر في عرصاتكم، وأطلع الشيطان رأسه صارخاً بكم فدعاكم فألفاكم لدعوته مستجيبين، ولقربه متلاحظين، ثمّ استنهضكم فوجدكم خِفافاً، وأحمشكم فألفاكم غضاباً[٤]، فوسمتم غير إبلكم، وأوردتم غير شربكم، هذا والعهد قريب، والكلم رحيب، والجرح لمّا يندمل، إنّما زعمتم خوف الفتنة ﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾[٥].

فهيهات وأنّى بكم، وأنّى تؤفكون، وكتاب الله بين أظهركم: زواجره بيّنة، وشواهده لائحة، وأوامره واضحة، أرغبة عنه تريدون؟ أم لغيره تحكمون ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾[٦]. ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[٧].

ثمّ لم تلبثوا إلاّ ريثما تسكن نفرتها، تسرّون حسواً في إرتغاء، ونصبرُ

---

(١) المرتضى، الشافي: ٢٣٠، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٦/٢٤٩.

(٢) الحسيكة: ما تحسكه الدابة: أي تقضمه.

(٣) سمل الثوب: خلق وبلي.

(٤) الفنيق: الفحل من الإبل.

(٥) أحمشه: أغضبه، والنار قوّاها بالحطب.

(٦) سورة التوبة: ٤٩.

(٧) سورة الكهف: ٥٠.

منكم على مثل حزّ المُدى، وأنتم الآن تزعمون أن لا إرث لنا ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[١].

والتفت إلى أبي بكر ﷺ متسائلةً ومحتجّة: **أترث أباك ولا أرث أبي؟.. فدونكها مخطومة مرحولة، تلقاك يوم حشرك، فنعم الحكم الله، والزعيم محمد، والموعد القيامة، وعند الساعة يخسر المبطلون»**[٢].

ثمّ انكفأت إلى قبر أبيها ﷺ وقالت:

قد كان بعدكَ أنباءٌ وهنبثةٌ ... لو كنت شاهدها لم تكثرِ الخُطُبُ
إنّا فقدناك فقد الأرض وابلُها ... واختلّ قومك فاشهدهم ولا تغبِ

وها أنت ترى الخطبة برواية أبي العيناء عن ابن عائشة.. لا تذكر النحلة لا من قريب، ولا من بعيد، ولم تعرض لسهم ذوي القربى؛ بلى في نهايتها عرضت للإرث وحده.. إنكاراً لمخالفته النصّ القرآني: ظاهراً وواقعاً، وحجيّة ظواهر الكتاب تؤيّد ما ذهبت إليه الزهراء، ولا يعدل عن ظاهره الكتاب إلاّ بقرينة صارفة.. وليس هناك ما يمنع إرادة الإرث بمصطلحه الشرعي الدقيق.

والقضية المركزية الأولى في هذه الخطبة أو ما ذكر منها في الأقل التأكيد على جهاد النبي ﷺ، وجهاد الوصي عليه السلام.. هذا الجهاد الذي لا يجهله في عصره أدنى الناس إدراكاً.. فكيف بمن شاهدوه عياناً.. وهو جهاد مشترك

(١) سورة آل عمران: ٨٥.
(٢) سورة المائدة: ٥٠.

بين النبي وأمير المؤمنين صلوات الله عليهما بمفردات ضخمة ذات عمقٍ مكثّف مضغوط مراعاةً لمقتضى الحال في الإيجاز.

وقد كشفت الزهراء عليها السلام صفحةً أخرى أنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان إلى جنب الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله في الشدائد والمهمّات الصعبة دون سواه.. فأين أنتم عن هذا؟.

وأما ما زاده عروة عن عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها في روايته.. فيشير إلى ما أحدثه الانقلاب بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله من إنكفاء على العقب.. وإهدار لسنوات الكفاح الدامي دون مسوّغ تشريعي تحقيقاً للإيعاد الإلهي بقوله تعالى ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾[1].

مما شكّل عدّة ظواهر سلبية يمكن للبحث تسليط الضوء على أشدّها خطورة، وأعظمها انتكاسة في الحقل الاجتماعي في المدينة المنورة من جهة.. وفي حركات الردّة بزعامة الأسود العنسي وسواه ممن ادّعى النبوة من جهة ثانية.. وفي التشكيك بنبوة محمد صلى الله عليه وآله لدى الأعراب وأهل البوادي ثالثاً.. وفي الانفلات الأخلاقي والتطاول على أهل البيت في ملحظٍ آخر.. مما يعدّ بمجموعه خرقاً لتعليمات السماء.. ذلك ما أفرز النقاط الرئيسة الآتية:

١ ـ بروز ظاهرة النفاق مستطيراً في المدينة المنوّرة.

---

(١) المرتضى، الشافي: ٢٣١ ـ وما بعدها، وابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٦/ ٢٥٠-٢٥١.

٢ ـ عودة الاختلاف والبغضاء والمشاحنة بين المسلمين بأسوأ مما كان عليه قبل الإسلام وصيرورة الأخوان أعداءً.

٣ ـ تصريح الزهراء عليها السلام في متغيّرات الأحداث إلى ما اخلولق من لباسٍ الدين والتقوى حتّى عادا من الأسمال البالية.

٤ ـ تطاول الغاوين بالمنطق الفاضح.. ونبوغ الخاملين في الأفق الجديد.. وهدير المبطلين متعالياً بين الصفوف.

٥ ـ تطلُّع الشيطان برأسه صارخاً بهم، فاستجابوا لدعوته مهطعين.. واستنهضهم فأسرعوا إليه خفافاً، وهذا ما تراهُ الزهراء بحقّ عملاً ضدّ الإسلام على قدمٍ وساق.

٦ ـ وبهذا كلّه.. ونتيجة له.. فقد تمادى الاعتداء بالظلم والجور والهضم والاغتصاب.. فوسموا غير إبلهم، ووردوا غير موردهم.

٧- والأفظع من هذا أنّ ما حدث، وعهد القوم برسول الله قريب.. ومصابه بعد لم ينجبر.. والجرح ينزف دماً! اتقاءً للفتنة فيما زعموا.. إلاّ أنهم في الفتنة سقطوا.

٨- وفنّدت الزهراء عليها السلام بحديثها المتوازن جملة الاعتداءات المناقضة لدعواها مستندة على القرآن الكريم، وهو بين أيديهم.. بيّن الزواجر.. لائح الشواهد.. واضح الأوامر!.

٩- هذا ما دعا الزهراء عليها السلام أن تتوجه باستفهام إنكاري عن سبب استبدال أحكام القرآن.. فبئس البدل.. والله تعالى يقول: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[1].

١٠- وكان الختام أن بيّنت الظلامة بأصلها السياسي والديني لأهل البيت عليهم السلام فكان وقعها على مثل حزّ السكاكين.

هذا الاختزال المعمّق في هذه الخطوط العشرة مثّلت لك قضية لها ظاهر بسيط.. ولها واقع بعيد المدى في الأخذ والردّ والجذب والشدّ، وهي تتناول بالتعريض والتصريح والنقد والتجريح هفوات الحركة الانقلابية المضادّة لسيرورة قيادة أهل البيت عليهم السلام للأمة.. وتعرّي شبكة التضافر على عقوق المباديء العليا بالانقضاض على الحكم من أجل الحكم!.

ذلك ما كانت تعاني منه الزهراء أولاً وبالذات.. وتلك هي ظلامتها الكبرى.. وكان أبو بكر على مستوى سياسي عالٍ.. فلم يعرض لشيءٍ مما ذكّرته به الزهراء من المؤامرة والظلامة الحقيقية.. وإنّما تجاهل هذا الأمر تجاهل العارف الجاحد.. وابتعد عنه مسافات شاسعة جدّاً.. واقتصر على الجزء الأخير من خطابها.. لذلك أمسكت الزهراء ولم تردّ عليه.. فهي تتحدّث بشيءٍ.. وهو يدفع بشيءٍ آخر.. ترك المَعْلَم البارز في أصل الموضوع إلى مَعْلَم ثانوي فيه.. وعلمت الزهراء ما عليه القوم، ولم ترد عليه.. وخرجت غضبى ساخطة.

(١) سورة آل عمران: ١٤٤.

وقد روى علماء الجمهور والإمامية جواب أبي بكر لها على خطبتها: قالوا: (فحمد أبو بكر الله وأثنى عليه، وصلّى على النبي، وقال:

يا خيرة النساء، وابنة خير الأنبياء.. والله ما عدوت رأي رسول الله ﷺ ولا عملت إلاّ بإذنه، وإنّ الرائد لا يكذب أهله.. وإنّي أشهد الله وكفى بالله شهيداً، أنّي سمعتُ رسول الله يقول: نحن معاشر الأنبياء لا نورّث ذهباً، ولا فضّة، ولا داراً، ولا عقاراً، وإنّما نورّث الكتاب والحكمة، والنبوة)[١].

فامتنعت الزهراء عليها السلام عن جوابه.. وخرجت غضبى.

وعقّب السيد المرتضى على هذه الخطبة في معرض الردّ على القاضي عبد الجبار المعتزلي قائلاً:

(وقد روي هذا الكلام على هذا الوجه من طرق مختلفة، ووجوه كثيرة، فمن أرادها أخذها من مواضعها، فكيف يدّعي أنّها عليها السلام كفّت راضية؟ وأمسكت قانعة؟)[٢].

وإذا كان الحديث الذي رواه أبو بكر يمنع وراثة الذهب والفضة والدار والعقار.. فإنّه لا يمنع وراثة الكتاب والحكمة والنبوة! على ما ادّعى.. ولا نبي بعد رسول الله.. وأمير المؤمنين منه ﷺ بمنزلة هارون من موسى «**إلاّ إنّه لا نبي بعدي**».

---

(١) سورة آل عمران: ٨٥.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٦/٢٥٢.

فما معنى هذه المنزلة إن لم يورث علياً الكتاب والحكمة والإمامة؟ وما معنى الحديث به منه ﷺ لدى استخلاف علي على المدينة.. ألاّ يرشّحه هذا وحده للخلافة؟.

وقد يقال بأنّ كلام الزهراء موضوع أو مصنوع.. بمعنى انّه منتحل على الزهراء عليها السلام ولا أصل له.. وهذا مرفوض جملة وتفصيلاً.. لأنّ فيه تشكيكاً بالروايات المتواترة، وتكذيباً لآلاف الأخبار الصحيحة.. لا بدليل بل على جهة الاستبعاد.

وقد نبّه السيّد المرتضى (ت ٤٣٦هـ) قبل ألف عام على هذا الملحظ، وقال فيما روي له (ذكرت لأبي الحسين زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام كلام فاطمة عليها السلام عند منع أبي بكر إيّاها فدك.. وقلت له: إنّ هؤلاء يزعمون أنّه مصنوع.. وإنّه من كلام أبي العيناء.. لأنّ الكلام منسوق البلاغة[1]. فقال لي: رأيت مشايخ آل أبي طالب يرونه عن آبائهم، يعلّمونه أولادهم، وقد حدّثني به أبي عن جدّي يبلغ به فاطمة عليها السلام على هذه الحكاية، وقد رواه مشايخ الشيعة وتدارسوه قبل أن يوجد جدُّ أبي العيناء.

وقد حدّث الحسين بن علوان عن عطية العوفي أنه سمع عبد الله بن الحسن بن الحسن يذكر عن أبيه يعني الإمام الحسن بن أمير المؤمنين هذا الكلام)[2].

(١) المرتضى، الشافي: ١٣١.

(٢) أنظر إلى هؤلاء! كيف ينسبون إلى أبي العيناء بلاغة الكلام، وينفون البلاغة عن الزهراء بنت محمد بن عبد الله رسول ربّ العالمين، القائل (أنا أفصح من نطق بالضاد بيد أني من قريش).

ولا عجب بعد هذا أن يقول التاريخ غير الشيعي كلمته الأخيرة على لسان ابن أبي الحديد المعتزلي:

(وحينما منعت الزهراء: الإرث والنحلة وسهم ذوي القربى، وأبى أبو بكر أن يدفع إلى فاطمة شيئاً.. فوجدت من ذلك على أبي بكر.. وهجرته.. فلم تكلّمه حتّى توفيت[1] .

(١) السيد المرتضى، الشافي: ٢٣٢.

الزهراء .. ومنصب الولاية الإلهية

التزمت الزهراء عليها السلام في أصول احتجاجها الصادق أن تسعى جاهدة إلى إعادة الحقّ إلى نصابه في قضية كبرى تتمثل بأولوية (المنصب الإلهي) بعد الرسول الأعظم. وهو ما يسمّى عند الإمامية بـ ((الإمامة)) وعند الجمهور (الخلافة) وكلاهما يفرغ عن معنًى واحد في النتيجة.. وهي عند الإمامية لا تتوافر إلاّ بشروط.. وعند الجمهور بشروطٍ أخرى، تلتقي في وجهٍ، وتفترق في وجوه.. وليس هذا مورد بحثها.. فلها حديثها الخاص بها عند علماء العقيدة والكلام.. وقد بحثت بلا مزيدٍ عليه.. فما تنازل الإمامية عن شروطهم.. وما تنازل الجمهور عنها إلاّ لماماً.

وأقبلت الزهراء عليها السلام في دلائلها تترى.. واستقرأت وقائع الأحداث من خلال تصوّر القرآن والسنة في البرهان.. وجادلت السلطة في كبريات الإشكاليات الماثلة دون جزئياتها التي لا تستأثر باهتمامها الهادف.

وما كانت الزهراء لتريد من منازلتها الجريئة لأبي بكر رضي الله عنه أن تظفر بمالٍ تتسع من خلاله بحياةٍ فارهة حاشاها عن هذا ولم تكن تحاول السعي إلى غنيمة مادية تتباهى بثرائها، ولا تستهوي بفدك نحلةً تعدّها لمكاره الدهر!.

إذن ما المراد من هذه الثورة الغاضبة في مجابهة السلطان؟ أجل.. إنّه الهدف الأرقى الذي تختفي كلّ زخارف الدنيا عنده، وتعطف كلّ معالم الدين في موكبه.. علماً بأنّه ليس ميداناً للمنازلة لتحرز به قصب السبق.. ولا ساحة قتالٍ لتظفر بها بغنائم حرب.. ولا تريد بإثارته سفك الدماء ولا كثرة الجرحى، ولا اقتطاف الرؤوس!. بل تسعى الزهراء من وراء هذا الهدف إلى إخماد الفتنة قبيل أوارها.. والقضاء على الفرقة أول ميلادها.. والحفاظ على مقدرات الإسلام وقدراته قبل بدادها وشتاتها..

وقد كانت الزهراء بمستوى الحدث وموقع المسؤولية!. تريد أن يتسنّم أبو الحسن عليه السلام صهوتها، ويتسلّم قيادتها.. ويرفع لواءها.. ويمسك بزمام الأمر. كما سيتضح هذا في خطابها عند عيادة نساء المهاجرين والأنصار في مرضها الذي توفيت فيه، والتي سنقف عندها محللين ومعلقين في موقعه من البحث.

وما كانت في خطبتها التي سنأتي عليها لتتحدث عن فدك.. ولا كان أمير المؤمنين ليتحدّث عن ذلك لدى تسلّمه الحكم بعد ربع قرن من الزمان.. وكان شان الزهراء عليها السلام في ذلك شان أمير المؤمنين حينما قال:

(بلى كانت في أيدينا فدك من كلّ ما أظلّته السماء.. فشحّت عليها نفوس قوم، وسخت نفوس قومٍ آخرين، ونعم الحكم الله، وما أصنع بفدك وغير فدك، والنفس مظانّها في غير جدث تنقطع في ظلمته آثارها، وتغيب

أخبارها، وحفرة لو زيد في فسحتها، وأوسعت يدا حافرها لأضغطها الحجر والمدر، وسدّ فرجها التراب المتراكم.. وإنّما هي نفسي أروضها بالتقوى لتأتي آمنة يوم الخوف الأكبر، وتثبت على جوانب المزلق)(١).

ونظرة الزهراء عليها السلام لفدك لا تعدو نظرة أمير المؤمنين عليه السلام ولكنّها مفتاح النكير لتجاهل منزلة أمير المؤمنين الوريث الشرعي لرسالة السماء.. ليس لأنّ علياً زوجها.. بل لأنّه أول القوم إسلاماً.. وأقدمهم إيماناً.. وأسبقهم إلى الدين والهجرة.. ثبت إذ فرّوا.. وصمد إذ تطايروا رعباً وفزعاً.. حتّى قام الإسلام بسيفه وجهاده.. وهو صاحب الوصية في أهل البيت.. وهو بعد وليد البيت؛ وهي سمة لا مثيل لها، لم يسبقه إليها الأولون، ولا ينالها الآخرون، وفوق هذا كلّه؛ فقد نشأ في ظلال النبي صلى الله عليه وآله وإلى جنبه وفي بيته.. وهو أخوه عند المؤاخاة.. وهو وزيره في مؤتة.. وهو خليفته في (غدير خم)، و، و.. الخ.

أمّا كفايته السياسية فهو الحاذق الخبير بتصريف شؤون الدولة بعدله وكياسته.. والعالم المتفرّد بأمور الدين.

ومن كانت هذه خصائصه ومميزاته؛ فهو في نظر سيدة النساء: القائد المحنّك.. والمؤهل ربّانياً لمنصب الولاية الإلهية.. ولو تولّاها لفتحت السماء بركاتها عليهم من الجهات الربع بالخيرات، والبركات كما هو مضمون قول أبي ذرّ، ولحملهم على المحجة البيضاء، كما قال عمر رضي الله عنه.

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٦/٢٣٢.

وما كان عزل أمير المؤمنين عليه السلام عن القيادة العليا، وإعلان مرجعية الصحابة، مستنداً إلى نصّ قانوني، أو شرعي، أو اجتماعي، ولكنّها إثرة قريش حتّى قال عمر رضي الله عنه (يأبى الله أن يجمع لكم النبوة والإمامة يا بني هاشم).

وإذا كان الأمر كذلك؛ لماذا قرّر عمر نفسه أن يكون عليٌّ سادس ستةٍ في الشورى.. فبينا هو ينفي إرادة الله بجمع النبوة والإمامة في بني هاشم.. وإذا به يوصي لعلي عليه السلام أن يكون أحد الستة أولي الشورى؟ ولكنّهم استبدلوا وبدّلوا وقدّموا، وأخروا كما شاءوا...

فصكّتهم الزهراء عليها السلام بالقرآن صادعاً:

﴿أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[1].

وتريد الزهراء بهذا الاستشهاد البليغ أن تقف عند مسألة مهمة في قيادة الأمة في ضوء ما صرّح به القرآن في نوعي الهداية على نحوين: هداية بالأصالة، وهداية بالعارض، وسيأتي الحديث عن ذلك عند دراسة خطبة الزهراء في نساء المهاجرين والأنصار في الفصل القادم بإذن الله تعالى.

والخلاصة يرى البحث أنّ ما أثارته الزهراء متظلّمة وهو حقّ كان أمراً ذرائعياً لتأكيد الظلامة الكبرى في مسألة الولاية الإلهية.. وكان هذا معلماً

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٢٠٨/١٦.

عقلائياً من معالم التدرّج بإثبات الحقّ الهضيم.. وإن سلكت فيه ذلك المسلك الرفيع بالمطالبة.. لأنّ الاحتجاج عليه هو الأظهر، والإفصاح عنه هو المنظور إليه.

وفي ضوء ما تقدّم رأت الزهراء عليها السلام أن تتصدر المعارضة في ظلّ مشاهد القوم الانقلابية.. وكانت هذه المعارضة سلمية.. انطلاقاً من وظيفتها الشرعية تجاه الأمة والإسلام.. وهو ما نشاهد بعض ظواهره في الفصل القادم بعونه تعالى.

* * *

الفصل الثالث

الزهراء.. تتصدّر المعارضة

١ ـ بيت الزهراء

٢ ـ غضب الزهراء

٣ ـ تأثير الزهراء

٤ ـ إصرار الزهراء

٥ ـ نساء المهاجرين والأنصار في عيادة الزهراء

٦ ـ صدى خطبة الزهراء في النساء

٧- اعتزال الزهراء

٨- الزهراء بين المرض والشهادة

بيت الزهراء

كان الهوس القبلي المتطرف ينخر في جسم الأمة العربية في الجاهلية.. وكان حبّ الانتقام هو السائد المتعارف.. ونظرية الأخذ بالثأر روح الكيان الجاهلي.. وقد استطاع الإسلام أن يخفّف من هذه الغلواء بعد اللتيا والتي.. واستخفّ بذلك عرب البوادي وحماة القبيلة؛ فأعادوها جذعة بعد الإسلام، وتلك حال مأساوية تدعو إلى الأسف العظيم.

وكانت أحقاد الجاهلية تتعدّى الحدود في هذا الواقع المرير، وغذّى ذلك حبّ الجاه والسلطان.. فبرزت بعد التحاق الرسول الأعظم ﷺ بالرفيق الأعلى ظاهرة أطاحت بالكيان الذي بناه النبي ﷺ في هيكلية شامخة إلاّ في جزء من الثوابت.. وإذا بالبناء يكاد يتهاوى جرّاء حمله منظمّة تستهدف علياً، والزهراء عليهما السلام.

كان الغرض من هذه الحملة الظالمة إقصاء مرجعية أهل البيت عليهم السلام عن قيادة الأمة، وإدارة شؤون الدولة.

وكان لهذا الهوس القبلي المتجدّد بعد الإسلام جذوره الممتدّة عبر عهد الرسالة منذ معركة بدر الكبرى، ووقعة أحد الدامية، ومعركة الأحزاب الفاصلة

حيث ((**برز الإيمان كلُّه إلى الشرك كُلِّه**»، كما قال الرسول الأعظم ﷺ وحيث أشار القرآن: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾[1].

وكان ذلك بسيف أمير المؤمنين علي عليه السلام حيث أجهز على فارس يليل عمرو بن عبد ود العامري.. وهو في قيادة الجيش الجاهلي المحارب.. وفي ظلّ فتح خيبر حيث فرّ الصحابة وتقاعس آخرون.. إلاّ أمير المؤمنين عليه السلام بعد أن قال النبي ﷺ: «**والله لأعطين الراية غداً رجلاً يحبُّ الله ورسوله، ويحبُّه الله ورسوله.. كرّاراً غير فرّار.. لا يرجع حتى يفتح الله على يديه**»[2].

وكان الأمر كما وعد رسول الله ﷺ إذ برز أمير المؤمنين عليه السلام إلى قائد اليهود (مرحب) وضربه ضربته المشهورة.. فقدّه نصفين.. وقع نصفه على الجانب الأيمن، والآخر على الأيسر فانهزم اليهود.. وكبر المسلمون تكبيرة واحدة.. وتقدّم أمير المؤمنين إلى باب حصن خيبر.. فاقتلعه بقوّة غيبية وتوفيق إلهي لا بقوّة جسدية فحسب.. وكان موكلاً بفتح الباب واغلاقه ما أشار إليه ابن أبي الحديد بقوله مخاطباً أمير المؤمنين عليه السلام:

يا قالعَ الباب الذي عن هزّهِ — عجزتْ أكفٌّ أربعون وأربعُ

واستسلم أهل فدك، وألقى الله الرعب بقلوبهم لدى فتح خيبر، فصالحوا النبي ﷺ على أرض واسعة من فدك.. وكانت مما لم يوجف عليه بخيل ولا

---

(١) سورة يونس: ٣٥.

(٢) سورة الأحزاب: ٢٥.

ركاب.. فمنحها الله لرسوله، ووهبها رسوله لابنته الزهراء نحلةً خالصة.

وفي حصار بني قريظة حكم فيهم سعد بن معاذ رضي الله عنه بقتل الرجال وسبي الذرية، فروي أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم حينئذٍ قال: «**لقد حكم فيهم سعد بحكم الله من فوق سبع أرقعة**». وأمر علياً عليه السلام أن يضرب أعناق طغاة بني قريظة.. وهكذا.

وفي وقعة ذات السلاسل.. وكان قائدها أمير المؤمنين إذ هرب القواد قبله وولوا الدبر فانتصر أمير المؤمنين نصراً عظيماً.. ونزلت سورة (العاديات) تتحدّث عن ذلك النصر، وتفصيلها عند المفسرين والمؤرخين وأصحاب المغازي.

وفي فتح مكة.. دخلها سعد بن عبادة برايته من أحد الأبواب مرتجزاً:

اليوم يوم الملحمهْ ... اليوم تسبى الحُرمهْ

فانتزعت الراية منه.. وأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم علياً عليه السلام.. فدخلها باللواء مرتجزاً فيما يروى:

اليوم يوم المرحمهُ ... اليوم تحمى الحُرمهْ

ووقف النبي في الحرم المكي متوجّهاً إلى قريش بالقول:

«**ما تظنُّون أنّي صانعٌ بكم؟** قالوا: أخٌ كريم، وابن أخٍ كريم.

فقال قولته الشهيرة التي ضربت مثلاً: **اذهبوا فأنتم الطلقاء»**.

وكان ذلك سُبّةً مع الدهر على الطلقاء وأبناء الطلقاء.

وقامت معركة (حنين) بعد الفتح.. إذ أعجبت المسلمين كثرتهم.. فلم تغنِ عنهم شيئاً؛ وضاقت بهم الأرض بما رحبت، وولوا الدبر في هزيمة نكراء.. وأنزل الله سكينته على رسوله والمؤمنين.. فانتصروا بقيادة الصفوة منهم وفي طليعتهم أميرهم أبو الحسن عليه السلام وبالملائكة جنوداً لم يروها.. وقد عبّر الله عن ذلك بقوله تعالى ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[١].

هذا وسواه بحيث كان أمير المؤمنين علي عليه السلام يحصد الجبابرة بسيفه حصداً.. فتطيح الرؤوس، وتخلع الأكتاف، وتقطع الأيدي والأرجل من قريش وطغام العرب واليهود.

ولقد سئل الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليهما السلام وابن عبّاس أيضاً: لم أبغضت قريش علياً؟.

قال: لأنّه أورد أوّلهم النار، وقلّد آخرهم العار[٢].

(١) ظ: وقعة خيبر عند الطبري، وابن الأثير، وأبي الفداء وسواهم.

(٢) سورة التوبة: ٢٥-٢٦.

هذا المناخ الملتهب جعل علياً عليه السلام شوكة دامية في عيون قريش.. وهم قريبو عهد بالجاهلية؛ فكانت الأحقاد الجاهلية تنمو وتشب وتترعرع بين ظهرانيهم.. وظهرت مبرمجة بأبشع صورها لدى وفاة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم بما توقعه الإيعاد الإلهي الحاسم في قوله تعالى:

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾[١].

هذا ما دعا سيّدي الوالد الشيخ علي الصغير رحمه الله تعالى أن يقول[٢]:

قفْ بي على بيعة الرضوان نسألها

عن معشرٍ بايعوا الرحمن وانقلبوا

وإذا بحرمة النبي تنتهك، وإذا ببضعته الزهراء عليها السلام تروّع.. وإذا ببيت الزهراء يُهاجم!.

ومن المفروض بداهة أن تكون لبيت الزهراء هيبته وحرمته.. وأن تستمر له حصانته وصيانته.. كونها سيدة نساء العالمين.. وابنة رسول الأمة.. وعلى الأمة توفير الأمن والحماية لهذا البيت ما استطاعت لذلك سبيلاً!.

---

(١) ابن شهراشوب، المناقب: ٢/٣٧٥.

(٢) سورة آل عمران: ١٤٤.

وإذا بالنداء كما يرويه شيخ المعتزلة النظام النيسابوري: (أحرقوا دارها بمن فيها.. وما كان في الدار غير علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام)[١].

وصرّحت بعض الروايات بوجود الزبير بن العوام معهم[٢].

وأشار بعضها إلى وجود عدد من بني هاشم في بيت الزهراء[٣].

وقد أعطى ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) تفصيلاً مهذّباً، فقال: إنّ أبا بكر تفقد قوماً تخلّفوا عن بيعته عند علي كرم الله وجهه ـ، فبعث إليهم عمر.. فجاء فناداهم وهم في دار علي.. فأبوا أن يخرجوا، فدعا بالحطب وقال: (والذي نفس عمر بيده.. لتخرجنّ أو لأحرقناها على من فيها، فقيل له: يا أبا حفص: إنّ فيها فاطمة! فقال: وإن. فخرجوا فبايعوا إلاّ علياً.. فوقفت فاطمة عليها السلام على بابها فقالت: لا عهد لي بقومٍ حضروا أسوأ محضراً منكم)[٤].

وروى ابن قتيبة مرّة أخرى الهجوم بصورة أكثر أدباً، فقال: بأنّ عمر رضي الله عنه نادى (يا فاطمة بنت رسول الله.. أخرجي من اعتصم ببيتك ليبايع، ويدخل فيما دخل فيه المسلمون.. وإلاّ والله أضرمت عليهم ناراً)[٥].

وأمّا ابن عبد ربّه الأندلسي (ت ٣٢٨هـ) وهو من مؤرّخي الدرجة الأولى

---

(١) علي الصغير، الديوان المخطوط، بحوزة المؤلف.

(٢) الشهرستاني، الملل والنحل: ١/٥٧، ٨٤.

(٣) ظ، المفيد، الأمالي: ٤٩.

(٤) المفيد، الجمل: ١١٧.

(٥) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة:١/٣٠، وابن طيفور، بلاغات النساء: ١٢٧/٣.

بعد ابن قتيبة، فذكر الذين تخلّفوا عن بيعة أبي بكر وهم: علي والعباس والزبير (فقعدوا في بيت فاطمة حتى بعث إليهم أبو بكر عمر بن الخطاب ليخرجهم من بيت فاطمة، وقال له: إن أبوا فقاتلهم! فأقبل بقبسٍ من نارٍ على أن يضرم عليهم الدار.. فلقيته فاطمة، فقالت: يا ابن الخطاب؛ أجئت لتحرق دارنا؟. قال: نعم، أو تدخلوا فيما دخلت فيه الأمة...)[١].

وكذلك روى من هو أقدم منه، وهو أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري (ت ٢٧٩هـ): (أنّ عمر جاء ومعه قبس، فتلقته فاطمة على الباب، فقالت: يا ابن الخطاب: أتراك محرّقاً عليّ بابي؟ قال: نعم: وذلك أقوى فيما جاء به أبوك)[٢].

وكان السيد المرتضى (ت ٤٣٦هـ) قد أورد رواية فيها رقّة، حيث قال عمر للزهراء:(يا بنت رسول الله، والله ما من الخلق أحبّ إليّ من أبيك أو منك! وأيم الله ما ذلك بمانعي إن اجتمع هؤلاء النفر عندك؛ أن أمر بهم أن يحرّق عليهم الباب)[٣].

وقد أيّده في ذلك ابن أبي الحديد (ت ٦٥٦هـ)، وفيما نقل عنه[٤].

وجاءت الروايات تترى في حرق الباب، والاعتداء على الزهراء عليها السلام،

(١) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة:١/١٢.
(٢) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد: ٤/٢٥٩-٢٦٠.
(٣) البلاذري، أنساب الأشراف: ١/٥٨٦، والمتقي الهندي، كنز العمال: ٣/١٤٩.
(٤) المرتضى، الشافي: ٤/١١٠.

ولا أطيل في هذا الشأن، فالحديث ذو شجون، وأكتفي بما ذكره شاعر النيل حافظ إبراهيم (١٣٥١هـ) في قصيدته العمرية:

وقـولـةٌ لـعـلـيٍّ قـالـهـا عـمـرٌ
أكـرمْ بسامعها، أكـرم بملقيها
حـرّقـتُ دارك لا أُبـقـي عليك بها
إن لمْ تبايعْ وبنت المصطفى فيها
ما كـان غير أبـي حفصٍ يفوهُ بها
أمـام فـارس عـدنـانٍ وحاميها

وكان علي لم يبايع أبا بكر في حياة الزهراء إجماعاً.

ويبدو أن ما جرى كان بإخبارٍ نبوي سابق، فقد روي أنّه قال: «**أما ابنتي فاطمة.. وإني لمّا رأيتها ذكرت ما يصنع بها بعدي، كأنّي بها وقد دخل الذلّ بيتها، وانتهكت حرمتها، وغصب حقّها، وكسر جنبها.. وأسقط جنينها**»[١].

ويبدو كما في بعض الروايات مما أورده الشيخ المفيد (ت ٤١٣هـ): أنّ أمير المؤمنين علياً عليه السلام قد غادر بيت الزهراء عليها السلام حينما هدّدوا بإضرام البيت عليهم ناراً، قال:

(١) حافظ إبراهيم، الديوان: ١/٥٧، دار الكتب المصرية، القاهرة.

وخرج علي بن أبي طالب عليه السلام نحو العالية.. فلقيه ثابت بن قيس بن شماس، فقال له: ما شأنك يا أبا الحسن؟. فقال أمير المؤمنين: أرادوا أن يحرقوا عليّ بيتي، وأبو بكر على المنبر يبايع له، ولا يدفع عن ذلك، ولا ينكره!.

فقال له ثابت: لا تفارق كفّي يدك حتى أقتل دونك!.

فانطلقا جميعاً حتى عادوا إلى المدينة، فإذا فاطمة عليها السلام واقفة على بابها، وقد دخلت دارها من أحد من القوم! وهي تقول: «**لا عهد لي بقوم أسوأ محضراً منكم؛ تركتم رسول الله صلى الله عليه وآله جنازةً بين أيدينا.. وقطعتم أمركم بينكم لم تستأمرونا، وصنعتم ما صنعتم! ولم تروا لنا حقّاً**»[1].

وإذا صحّت هذه الرواية ففيها عدّة ظواهر:

الظاهرة الأولى: أنّها تؤيّد رأينا فيما سبق بيانه بأنّ الزهراء في دعواها كانت لا تنزع إلى مشروع مالي أو اقتصادي في إبداء ظلامتها، فالدنيا لا تساوي عندها شيئاً؛ وإن كانت مطالبتها بالنحلة والإرث وسهم ذوي القربى حقّاً مشروعاً: إلاّ إنّ هناك ملحظاً دينياً محضاً تهدفُ إليه، وهو الاحتجاج لأمير المؤمنين بالولاية الإلهية، إذ لم يُستأمر أهل البيت عليهم السلام في الاستخلاف، ولا قرار السقيفة بحسب قول الزهراء عليها السلام، وأنكرت صنيع القوم إذ لم يروا لأهل البيت حقّاً في الأمر.

(١) الصدوق، الأمالي: ١٠، الحمويني الشافعي، فرائد السمطين: ٢/٣٥، الديلمي، إرشاد القلوب: ٢/٢٩٥، الطبرسي، الاحتجاج: ١/٢١٢.

الظاهرة الثانية: إذا كان أمير المؤمنين عليه السلام خرج من داره إلى العالية! فإنّه بذلك قد أراد إطفاء النائرة.. وقد لا يخطر على ذهن أحد أنّ القوم يحرقون الدار ويجرؤن على ذلك.. وإذا غادرها أمير المؤمنين والمقداد والزبير وسواهم! فعلام الاعتداء؟.

الظاهرة الثالثة: قد يقال بأنّ أمير المؤمنين لم يدفع عن الزهراء! وإذا كان الإمام خارج بيت الزهراء آنذاك فما يصنع؟ وحينما رجع إليها، ووجد الأمر قد حدث والواقعة قد نزلت! فماذا يراد منه، وقد قيّدته وصية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

قيّدتهُ وصيّةٌ من أخيه   كلّفته ما ليس بالمقدورِ

كما قال الشاعر السيد باقر الموسوي الهندي رحمه الله.

وأبسط ما روي في مأساة الزهراء عليها السلام: أنّها مدّت يديها من خلف الباب، فضربوا كفّيها بالسياط[1].

أمّا سُليم بن قيس الكوفي (٩٠هـ) وهو من أوائل من أورد الخبر مسنداً بتفصيلاتٍ مضنية، فقد قال فيما قال:

(فألجأها قنفذ لعنه الله إلى عضادة باب بيتها ودفعها فكسر ضلعها من

(١) المفيد، أمالي المفيد: ٥٩، وما بعدها، وانظر سنده.

جنبها، فألقت جنيناً من بطنها؛ فلم تزل صاحبة فراشٍ حتى ماتت صلّى الله عليها من ذلك شهيدة)[١].

وقد أشار الشيخ المفيد إلى استشهاد الزهراء لدى زيارتها بقوله:

(السلام عليك أيّتها البتول الشهيدة الطاهرة)[٢].

وما أورده سليم في كتابه من عمل قنفذ صرّح به أمير المؤمنين:

«إنّهم لم يصادروا أملاك قنفذ كما صنعوا بسائر الولاة الخونة؛ لأنّهم شكروا له ضربته للزهراء»[٣].

وكان عمر يصادر أموال ولاته إذا رأى فيها ما يفتضح به صاحبها، أو لدى اتهامه بسرقة أموال المسلمين.. وهكذا صنع بأبي هريرة لدى ولايته على البحرين، فقد صادر أمواله، وضربه ضرباً شديداً بعصاه (درّة عمر).

ومما لا شكّ فيه تاريخياً أنّ الزهراء روّعت وانتهكت حرمتها.. وأحرق باب دارها.. وهو ما يذكره علماء الجمهور فضلاً عن الإمامية، وقال من قال:

(والله لتحرقن عليكم أو لتخرجنّ إلى البيعة)، أو أنّه قال: (أو لتخرجنّ إلى البيعة أو لأحرقنّها على من فيها)!. فيقال للرجل: إنّ فيها فاطمة! فيقول: وإن[٤].

(١) المجلسي، بحار الأنوار: ٣٠/٢٩٣، وانظر مصادره.
(٢) كتاب سليم: ٢/٥٨٨، تحقيق: محمد باقر الأنصاري، مؤسسة الهادي، ١٤١٥هـ.
(٣) المفيد، المقنعة: ٤٥٩، والمفيد، المزار: ١٥٦.
(٤) المجلسي، بحار الأنوار: ٣٠/ ٣٠٢، وانظر مصادره.

وقد ذكر ابن أبي الحديد المعتزلي: أنّه قرأ على شيخه أبي جعفر النقيب قصّة زينب ربيبة النبي حين روّعها هبّار بن الأسود. . فقال له أبو جعفر (إن كان رسول الله ﷺ أباح دم هبّار؛ لأنّه روّع زينب، فألقت ذات بطنها، فظاهر الحال أنّه لو كان حيّاً لأباح دم من روّع فاطمة حتّى ألقت ذات بطنها! فقلت: أروي عنك ما يقوله قومٌ: أنّ فاطمة روّعت فألقت المحسن؟ فقال: لا ترويه عنّي، ولا تروي بطلانه! فإنّي متوقّف في هذا الموضع لتعارض الأخبار عندي فيه!)[١].

على أن الطبرسي يروي ذلك ويؤكّده فيما يرويه[٢].

ويبدو أنّ الأئمة من ذريّة علي وفاطمة صلوات الله عليهم قد استوعبوا ما جرى على الزهراء متأكدين منه، وإذا كان أمير المؤمنين يصرّح بذلك عند دفنها كما سيأتي. . فهكذا شأن الأئمة، فالإمام الحسن بن علي عليهما السلام يروى عنه أنه احتجّ على جماعة ممن هجموا على الزهراء. . ومنهم المغيرة بن شعبة إذ قال له الإمام: وأنت الذي ضربت فاطمة بنت رسول الله ﷺ حتّى أدميتها، وألقت ما في بطنها، استذلالاً منك لرسول الله ﷺ، ومخالفة لأمره، وقد قال لها رسول الله: «**يا فاطمة أنت سيّدة نساء أهل الجنة**»[٣].

---

(١) ظ: ابن قتيبة، الإمامة والسياسة: ١/١٣، والطبري، تاريخ الرسل والملوك: ٣/١٩٨، وابن عبد ربّه، العقد الفريد: ٤/٢٥٤، وابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١/١٣٤، وتاريخ أبي الفداء: ١/١٥٦، وعمر رضا كحالة، أعلام النساء: ٣/ ١٢٠٥-١٢٠٧.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٤/١٩٣.

(٣) الطبرسي، الاحتجاج: ١/٢١٢.

وعن الإمامين محمد بن علي الباقر وجعفر الصادق عليهما السلام أنّهما قالا: إنّ فاطمة قالت فيما قالت: «**أما والله يا ابن الخطاب: لولا أني أكره أن يصيب البلاء من لا ذنب له، لعلمتَ أني سأقسم على الله، ثمّ أجده سريع الإجابة**»[١].

وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: في حديث طويل ليونس بن يعقوب: «**يا يونس، قال جدّي رسول الله صلى الله عليه وآله: ملعون من يظلم بعدي فاطمة ابنتي، ويغصبها حقّا ويقتلها**»[٢].

وعن الإمام أبي الحسن موسى الكاظم عن أبيه الإمام جعفر الصادق، قال: لمّا حضرت رسول الله صلى الله عليه وآله الوفاة دعا الأنصار، وقال: «**يا معشر الأنصار قد حان الفراق**... إلى أن قال: **آلا إن فاطمة بابها بابي، وبيتها بيتي، فمن هتكه فقد هتك حجاب الله**».

ثمّ بكى أبو الحسن طويلاً، وقال: «**هتك والله حجاب الله، هتك ــ والله حجاب الله، هتك والله حجاب الله.. يا أمّه صلوات الله عليها**»[٣].

وقد يدور في الأذهان تساؤل في فتح باب الزهراء من قبل الزهراء نفسها دون أمير المؤمنين أو الحسن أو الحسين أو فضّة أو من في الدار سواهم؟

---

(١) الطبرسي، الاحتجاج: ١/٤١٤، المجلسي، بحار الأنوار: ٤٣/١٩٧، وانظر مصادره.

(٢) الكليني، الكافي: ١/٤٦٠.

(٣) الكراكجي، الخرائج والجرائح: ١/٤٩، دار الأضواء، بيروت، الخوانساري، روضات الجنات: ٦/١٨٢.

وقد تثار حول ذلك إشكاليات واعتراضات.. وقد يضاف إليها التقول والتنطع والتطفل على التاريخ.. والجواب على هذا قد يكون متنوعاً بحسب قرائن الأحوال التي صاحبت الحدث.. على أنّ ما لا يشكّ به البحث أنّ الزهراء كانت تتصدّر المعارضة بحسب تكليفها الشرعي فنهضت هي بالأمر.. وهل يدور في خلد أحد أنّها تُقابل بمثل ما قوبلت به من التطاول على حرمتها؟.

وللتاريخ فقد كفانا مئونة الرد المفعم بالأدلة والبراهين سماحة الأخ السيد جعفر مرتضى العاملي دام علاه فمن أراد الاستزادة والتنوير فعليه بما ذهب إليه[١].

ومهما يكن من أمرٍ فقد وقع ما وقع، واستشهدت الزهراء غضبى، وذهبت في موجدتها مظلومة محتسبة.. وهجرت أبا بكر وعمر.. وكان هجرانها لهما غضباً عليهما.. وقد اعتبر أهل البيت والمقرّبون منهم ذلك بديهياً لا غبار عليه، فهذا عبد الله بن الحسن بن الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب يقول: (كانت أمّي صديقة بنت نبيّ مرسل.. فماتت وهي غضبى على إنسان، فنحن غضابٌ لغضبها، وإذا رضيت رضينا)[٢].

وهو ما رجّحه ابن أبي الحديد وقوّاه من مجموع الروايات، ومما أورده السيد المرتضى في احتجاجه فقال: (وأمّا إخفاء القبر.. وكتمان الموت،

(١) المجلسي، بحار الأنوار: ٤٧٦/٢٢، وما بعدها.
(٢) جعفر مرتضى العاملي، مأساة الزهراء: ٢٦٥/١ ـ ٣٠٠.

وعدم الصلاة، وكلّ ما ذكر المرتضى فيه، فهو الذي يظهر ويقوى عندي؛ لأنّ الروايات به أكثر وأصحّ من غيرها، وكذلك القول في موجدتها وغضبها)[1].

وهذه النتائج كانت مترتبة على غضب الزهراء! فما هو مدى هذا الغضب؟ وبم يعلّل؟ وكيف كان؟ وهل انقطع أو استمر؟ ربما يجيب المبحث الآتي عن شيءٍ من هذا كلّه أو بعضه، فما لا يذكر كلّه لا يترك كلّه.

* * *

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٢١٨/١٦.

غضب الزهراء

هنالك لمحٌ غيبي لا نشكّ فيه يقترن مباشرة بالأحاديث النبوية الشريفة الصادرة عن النبي دون وساطة بحقّ الزهراء عليها السلام؛ لأنّ فيها دلالة إيحائية مستقبلية تشير بوضوح أو بالضمن إلى أن الزهراء ستظلم حتماً بعد وفاة أبيها صلى الله عليه وآله وسلم.. وذلك من خلال التأكيد فيها على ذكر غضبها، وأنّ غضبها غضب رسول الله، وأنّ غضب رسول الله غضب الله تعالى!.

وهنالك لغةٌ قويّة الأسر شديدة الوقع في النكير على من سيغضبها في قابل الزمان.. هذه اللغة بهذا النكير.. وهو بعد لم يقع.. ألا يصحّ أن نعتبره إحدى دلائل الإعجاز على نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم إذ أخبر عما سيحدث قبل حدوثه؟ وقد حدث بالفعل.. إنّ سيلاً من هذه الأحاديث فيها تحذيرٌ وإرجاف.. تحذير من غضب فاطمة.. وإرجاف بغضب فاطمة.. إنّه الأمر الواقع الذي تنطق به الأحاديث.. إنّه الوتر الحساس الذي سيغيّر وجه التاريخ.. إنّه النذير من الانقلاب على الأعقاب!.

قال الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم: «**يا فاطمة إنّ الله يغضب لغضبك، ويرضى لرضاك**»(١).

(١) المصدر نفسه: ٢٨٦/١٦، وانظر مصادره.

إنّه لمؤشّر خطير جدّاً.. لو درست أبعاده، وسبرت أغواره.. فالله يغضب لغضب فاطمة، ويرضى لرضاها.. والمسلمون بمنتدى وبجمع.. وهم يسمعون ذلك.. ولكنّ الزهراء غضبى!.

لقد خرّج هذا الحديث الحجّة الشيخ عبد الحسين الأميني عن ستة عشر مصدراً في ستة عشر إسناداً[١].

وكما خرّج هذا الحديث فقد خرّج الحديث الآتي عن النسائي وسواه، فعن النبي ﷺ أنّه قال: «**فاطمة بضعةٌ منّي، فمن أغضبها فقد أغضبني**»[٢].

وروى أحمد بن حنبل عن النبي انّه قال: «**فاطمة بضعة منّي، يقبضني ما يقبضها، ويبسطني ما يبسطها**»[٣].

ويروى أنّ النبي أخذ الزهراء عليها السلام بيدها، وقال: «**من عرف هذه فقد عرفها، ومن لم يعرفها فهي بضعة منّي، هي قلبي وروحي التي بين جنبي، فمن آذاها فقد آذاني**»[٤].

(١) ظ: الحاكم النيسابوري، المستدرك: ٣/١٥٤، ابن عنبة، كفاية الطالب: ١٩، المتقي الهندي، كنز العمال: ٧/١١١، ينابيع المودة: ١٧٣.
(٢) ظ: عبد الحسين أحمد الأميني، الغدير: ٣/١٨٠.
(٣) ظ: المرجع نفسه: ٣/٢١، وانظر مصادره.
(٤) ابن حنبل، المسند: ٤/٣٣، ابن حجر، الصواعق المحرقة: ١١٢.

وروى أحمد بن حنبل في مسنده تأكيد النبي لذلك في قوله: «**فاطمة بضعة منّي، يريبني ما رابها، ويؤذيني ما آذاها**»[١].

وعن النبي أنّ قال: «**فاطمة بضعة منّي، يسرّني ما سرّها**»[٢].

وهذه الأحاديث توحي بما لا يقبل الشكّ بالملامح الآتية:

١ ـ بيان مكانة الزهراء من النبي ﷺ إعلاءً لمنزلتها.. وإشادةً بذكرها.. وتعريفاً بكيانها الخاص الذي لا يضارعه كيان.

٢ ـ الإيحاء بعصمتها المطلقة فهي نفس النبي ﷺ وبضعة منه، وما لا يقع عليها، وما يصيبها يصيبه.. وليس الأمر تعبيراً عن علاقة هذه البنوة بالأبوة فحسب.. بل كون الزهراء في عصمة خالصة.. لأنّها تشارك النبي المعصوم في هذا وذاك.

٣ ـ الإنباء والإخبار أنّ هناك من سوف يغضبها بعد وفاته، وأنّ هناك من سوف يؤذيها.. وأنّ ذلك الغضب والأذى يلحقان به.. وغضب رسول الله ﷺ غضبٌ لله وأذى.

٤ ـ وهنالك ما هو أشدّ وقعاً وأعظم أثراً فيما رواه أحمد بن حنبل عن أبي هريرة: أنّ النبيّ ﷺ نظر إلى علي وفاطمة والحسن والحسين، فقال: «**أنا حرب لمن حاربكم.. وسلمٌ لمن سالمكم**».

---

(١) ابن الصباغ المالكي، الفصول المهمة: ١٥٠، الشبلنجي، نور الإبصار: ٤٥.

(٢) أحمد بن حنبل، المسند: ٤/٣٢٨، الإصابة: ٤/٣٧٨.

وكذلك أخرجه الطبراني في المعجم الكبير.. ونصّ عليه كما أخرجه الترمذي من حديث زيد بن أرقم.. وهو نفسه في ترجمة الزهراء من الإصابة: أنّ رسول الله ذكر علياً وفاطمة والحسن والحسين، فقال «**أنا حربٌ لمن حاربهم.. وسلمٌ لمن سالمهم**».

وكذلك أخرجه ابن حبّان في صحيحه.. والحاكم في المستدرك(١).

إنّ هذه الإرهاصات بغضب الزهراء قد تحققت فيما بعد بما رواه البخاري في الجامع الصحيح، وأحمد بن حنبل في مسنده، وأكده مسلم في صحيحه، فقد روى البخاري في باب (فرض الخمس) عن عائشة: (أنّ فاطمة ابنة رسول الله سألت أبا بكر الصديق بعد وفاة رسول الله ﷺ أن يقسم لها ميراثاً مما ترك رسول الله ﷺ مما أفاء الله! فقال لها أبو بكر: إنّ رسول الله ﷺ، قال: لا نورث ما تركناه صدقة، فغضبت فاطمة بنت رسول الله ﷺ، فهجرت أبا بكر، فلم تزل مهاجرة حتى توفيّت) (٢).

وروى البخاري فيما بعد تأكيد ذلك وإتمامه بقوله: (فأبى أبو بكر أن يدفع إلى فاطمة منها شيئاً.. فوجدت على أبي بكر.. فهجرته، فلم تكلّمه حتى توفيّت)(٣).

---

(١) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني: ١٥٦/٨.

(٢) ظ: محمود أبو ريّة، شيخ المضيرة: ١٦٥، الطبعة الثانية، صور، لبنان، د. ت. كتبه أول رمضان ١٣٨١هـ.

(٣) ظ: البخاري، الجامع الصحيح: ٥/٥، مسلم، الصحيح: ١٧٢/٢، أحمد بن حنبل، المسند

وقد سجّلت أغلب المصادر القريبة المهمة أنّ الزهراء ماتت وهي غضبى على أبي بكر وعمر، فدفنها عليّ عليه السلام ليلاً سرّاً، ولم يؤذنهم بموتها، وعمّى قبرها[1].

وقد أكّد الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام غضبها، فروي أنّه قال: ((كانت له أمّة بارة خرجت من الدنيا وهي غضبى، ونحن لا نرضى حتّى ترضى))[2].

وقد شعر الشيخان أنّهما أغضبا الزهراء.. فالتمسا رضاها بما أورده ابن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦هـ) قال:

((إنّ عمر قال لأبي بكر رضي الله عنه:

انطلق بنا إلى فاطمة.. فأنا قد أغضبناها فانطلقا جميعاً.. فاستأذنا على فاطمة فلم تأذن لهما.. فأتيا علياً فكلّماهُ فأدخلهما عليها، فلمّا قعدا عندها حوّلت وجهها إلى الحائط.. فسلّما فلم ترد عليهما السلام .. في حديث طويل...

ثمّ سألتهما الزهراء «**نشدتكما الله ألم تسمعا رسول الله يقول: رضا**

١/٩٦، الطبري، تاريخ الرسل والملوك: ٣/٢٠٢، الأميني، الغدير: ٧/٢٢٦.

(١) ظ: المصادر المتقدّمة، والبخاري، الجامع الصحيح: ٦/١٩٦.

(٢) ظ: أحمد بن حنبل، المسند ١/٦، وما بعدها، وابن سعد، الطبقات الكبرى: ٨/٢٨، والبلاذري، أنساب الأشراف: ٢٥٠، والحاكم النيسابوري، المستدرك: ٣/١٦٢.

فاطمة من رضاي، وسخط فاطمة من سخطي، فمن أحب فاطمة ابنتي فقد أحبّني، ومن أرضى فاطمة فقد أرضاني، ومن أسخط فاطمة فقد أسخطني؟.

قالا: نعم، سمعنا من رسول الله؟

قالت: **فإنّي أشهد الله وملائكته أنّكما أسخطتماني، وما أرضيتماني، ولئن لقيت النبي لأشكونّكما إليه!.**

فقال أبو بكر: أنا عائذٌ بالله تعالى من سخطه وسخطك يا فاطمة، ثمّ انتحب أبو بكر يبكي حتّى كادت نفسه أن تزهق، وهي تقول: **والله لأدعونّ عليك في كلّ صلاةٍ أصلّيها».**

ثمّ خرج باكياً، فاجتمع الناس إليه، فقال: لا حاجة لي ببيعتكم، أقيلوني بيعتي[1].

ولهذا نجد أبا بكر نفسه عند مرض موته يقول: (.. فوددت أني لم أكشف بيت فاطمة عن شيءٍ، وإن كانوا قد أغلقوه على الحرب)[2].

وكانت الزهراء قد نادت أبا بكر ﷺ من ذي قبل: «**يا أبا بكر: ما أسرع**

(١) الطرائف: ٢٥٢.

(٢) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة: ١٣/١، تحقيق طه الزيني، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، وعمر رضا كحالة، أعلام النساء: ١١٥/٤، طبعة بيروت، عبد الحسين الأميني، الغدير: ٢٢٩/٧.

ما أغرتم على أهل بيت رسول الله؟ والله لا أكلّم عمر حتّى ألقى الله»[١].

وكانت عليها السلام قد توجّهت نحو قبر أبيها، وقالت: «**يا أبتي رسول الله! ماذا لقينا بعدك من ابن الخطاب وابن أبي قحافة؟**»[٢].

وروى ابن قتيبة: (وقضت فاطمة الزهراء وهي واجدة على أبي بكر تدعو عليه بعد كلّ صلاةٍ صلّتها)[٣].

وفي مقابلة للشيخين مع الإمام علي عليه السلام حين اشتدّ بالزهراء المرض، سألا علياً عنها، وقالا: قد كان بيننا وبينها ما قد علمت، فإن رأيت أن تأذن لنا فنعتذر إليها من ذنبنا؟.

قال أمير المؤمنين ذاك إليكما، فجلسا بالباب، وقال الإمام للزهراء: (أيتها الحرّة؛ فلان وفلان بالباب، يريدان أن يسلّما عليك.. فما ترين؟ قالت عليها السلام: البيت بيتك، والحرّة زوجتك، فافعل ما تشاء، فدخلا بعد مراسم الاستئذان.. وتحجّبت الزهراء.. وقامت باستدراجهما بالإقرار والاعتراف.. فأقرّا واعترفا بما جرى فأبدت غضبها.. وعدم رضاها، فخرج أبو بكر داعياً بالويل والثبور وجزع جزعاً شديداً، فقال عمر رضي الله عنه: أتجزع يا خليفة رسول الله من قول امرأة؟)[٤].

---

(١) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة: ١/١٤، الطبري، التاريخ: ٤/٥٥.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١/٣٤، ٢/١٩.

(٣) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة: ١/١٤، الطبري، التاريخ: ٣/١٩٨، ابن عبد ربّه، العقد الفريد: ٤/٢٥٧، أبو الفداء، التاريخ: ١/١٦٥.

(٤) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة: ١/١٤، وعمر رضا كحالة، أعلام النساء: ٣/٢١٥.

وفي نصّ تاريخي آخر.. أنّ الزهراء عليها السلام كلّمت علياً عليه السلام ليأخذ الإقرار من الشيخين بعد أن تحدّثت بحديث السخط والرضا «**ومن أحبّ فاطمة ابنتي فقد أحبّني، ومن أرضى فاطمة فقد أرضاني**!. وأقرّا أنهما سمعا ذلك من رسول الله صلى الله عليه وآله فقالت لهما: **فإنّي أشهد الله وملائكته إنّكما أسْخطتماني وما أرضيتماني، ولئن لقيت النبي لأشكونكما إليه...**))[1].

وفي رواية عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: أنّ الشيخين دخلا على الزهراء بشفاعة أمير المؤمنين عليه السلام وقالا لها: كيف أنتِ يا بنت رسول الله؟ فقالت: بخيرٍ والحمد لله.

وجرت بينهما محاورة ساخنة صريحة!.

فخرجا من عندها.. وهي ساخطة عليهما[2].

وفي هذه الروايات وقد ذكرت جزءاً منها دلالات متعدّدة يستخلصها البحث الموضوعي، أهمّها:

١ ـ أنّ الشيخين رضي الله عنهما عَلِما علْماً ثابتاً أنّ الزهراء عليها السلام غاضبةٌ ساخطة حتّى انتشر النبأ في الآفاق.. فأرادا استدراك ما فات بالاعتذار لتسوية الأمر.

(١) ظ: سليم بن قيس، كتاب سليم: ٨٦٩/٢، تحقيق الأنصاري، الصدوق، علل الشرائع، وعبد الله شبر، جلاء العيون: ٢١٢/١، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، ١٣٧٣هـ، والمجلسي، بحار الأنوار: ١٩٧/٤٣، وما بعدها.

(٢) ظ: ابن قتيبة، الإمامة والسياسة: ١٤/١، الصدوق، علل الشرائع: ١٨٦/١، الطبري، دلائل الإمامة: ٤٤، باقر المجلسي، مرآة العقول: ٣٢٣/٥، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، ١٣٩٤هـ.

٢ ـ وقد علما أيضاً أنها لا تأذن لهما بالدخول عليها، والاعتذار منها.. فجعلا أمير المؤمنين وسيطاً في الموضوع.

٣ ـ أنّ أمير المؤمنين قَبَلَ هذه الوساطة.. وتشفّع لهما عند الزهراء.. وما أراد ردّهما.. حتى يقفا على الحقيقة بذاتهما.

٤ ـ أنّ الزهراء عليها السلام استنزعت إقرارهما بما سمعا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من حديث الرضا والغضب.. فأقرّا بذلك.

٥ ـ أنّ الزهراء بقيت على معارضتها لهما في الحكم والاستخلاف فما رضيت عنهما.. وأبدت السخط وعدم الرضا والغضب.

٦ ـ أنّ أبا بكر رضي الله عنه ندم على ما بدر منه، وجزع جزعاً شديداً، وأنّ عمر قد عذله في ذلك!.

بعد هذا تجدر الإشارة أنّ الزهراء عليها السلام أعلم الناس بالقرآن العظيم.. وأفقه الناس بسنّة أبيها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والحديث الشريف المشهور كما يقول الخواجوئي وهو من علماء الجمهور:

(اعلم أن الملايين من المسلمين مع اختلاف مذاهبهم قد اتفقوا على صحة ما نقل عن النبي: «**من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية**»)[١].

فهل يا ترى أنّ الزهراء ماتت ميتةً جاهلية؟ وهل يعتقد ذلك مسلمٌ في

(١) الطبري دلائل الإمامة: ٤٥، المجلسي، بحار الأنوار: ٤٣/ ١٧٠.

الأرض.. وهي لم تبايع أبا بكر ولا اعتبرته إماماً لها.. وهي غضبى عليه.. وهل كانت بحيث لا تعلم من هو إمام زمانها؟ وكيف يصحُّ ذلك؟ وهي ترى أنّ علياً عليه السلام إمامٌ مفترض الطاعة! وهو نفسه لم يبايع أبا بكر بحياتها، وقد تقوّى بها على ذلك! فكيف بها؟.

وقد أجمعت المصادر بأنّ الزهراء قد أوصت أن تدفن ليلاً.. وأن لا يدخل عليها أحد.. ولا يصلّي عليها أبو بكر، فدفنت ليلاً.. ولم يشعر بذلك الشيخان.. وصلّى عليها عليٌّ عليه السلام. وكبّر خمس تكبيرات.. وهو الذي غسّلها، وساعدته على ذلك أسماء بنت عميس.. ألخ[1].

وفي رواية مفصّلة الأجزاء والإشارات والعهود: أنّ الزهراء قد أخذت على أمير المؤمنين عليه السلام فيما أخذت عهد الله ورسوله أن لا يحضر جنازتها إلاّ: أمّ سلمة أم المؤمنين، وإلاّ أم أيمن، وفضّة خادمة الزهراء، والحسنان وسلمان والمقداد وحذيفة بن اليمان.

وقد صلّى عليها عليٌّ عليه السلام وكبّر خمساً[2].

وقد سجّلت أقدم المصادر التاريخية غير الإمامية مما نعتبره مصادر الدرجة الأولى في تدوين الأحداث والسيرة والأثر:

---

(١) ظ: جعفر مرتضى العاملي، مأساة الزهراء: ١/٢٦٥، وانظر مصادره.

(٢) ظ: ابن عبد البر، الاستيعاب: ٢/٧٥١، ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة: ٤/٣٧٨، أبو نعيم، حلية الأولياء: ٢/٤٣، القسطلاني، إرشاد الساري في شرح صحيح البخاري: ٦/٣٦٢، ابن الأثير، أسد الغابة: ٥/٢٥٤، الديار بكري، تاريخ الخميس: ١/٣١٣، الخوارزمي، المقتل: ١/٨٣.

(أنّ الزهراء عليها السلام ماتت وهي غضبى على قومٍ ! فدفنها عليٌّ عليه السلام ليلاً . . ولم يؤذن أبا بكر وعمر بموتها . . وعمّى قبرها)[1].

ولا عجب بعد هذا أن يقول ابن أبي الحديد المعتزلي:

(وحينما منعت الزهراء الإرث والنحلة وسهم ذوي القربى، وأبى أبو بكر أن يدفع إلى فاطمة شيئاً . . فوجدت من ذلك على أبي بكر وهجرته، فلم تكلّمه حتّى توفيّت)[2].

ولم تكن الزهراء قد هجرته لما ذكر فحسب . . بل هجرته، وغضبت للمركز الأعلى في الإسلام . . وهو قيادة الأمة . . ولم يذهب غضبها هدراً ! . .

* * *

(١) ظ: ابن الأثير، جامع الأصول: ٢/ ٩، الوزير الإربلي، كشف الغمّة: ٢/ ١٢٨، ابن الصباغ، الفصول المهمة: ١٣١ ـ وسواها.

(٢) ظ: أحمد بن حنبل، المسند: ١/ ٦، الطبري، التاريخ: ٣/ ٢٠٨، ابن سعد، الطبقات الكبرى: ٨/ ٢٨، البلاذري، أنساب الأشراف: ٢٥٠، ابن كثير، البداية والنهاية: ٥/ ٢٨٥، الحاكم النيسابوري، المستدرك: ٣/ ١٦٢.

تأثير الزهراء

لم يذهب غضب الزهراء هدراً.. ولا هديرها برداً وسلاماً.. فقد اندلع لهيب المعارضة بحدود، وإربّد أفق المدينة غائماً.. وتناخت الصفوة في أفراد من المهاجرين والأنصار، ينكرون ويحتجّون، ويعارضون.. والزهراء أمامهم.. والإمام عليٌّ إلى جنبهم يرقب الأحداث ويشهدها متلهفاً على ضياع الحقيقة.. ومحاذراً من اضطراب الأمة، وقلقاً من تلكؤ المسيرة، ومشفقاً من انفجار الفتنة.

فحينما امتنع أمير المؤمنين عن البيعة.. وأعلنت الزهراء عن مجابهتها.. ونُمي إلى القوم أسف الأنصار صدقاً أو كذباً.. وأنكر بعض المهاجرين تأثّماً وتحرُّجاً؛ تحرّكت دعوتان لمسلمة الفتح، وهي تذبُّ عن مرشح قريش للخلافة، وتدعوان إلى الإبادة الجماعية، وقتال الأنصار بخاصة.

فهذا سهيل بن عمرو صاحبهم في (الحديبية) يدعو في نخوة.. ويتصرّف بجفوة.. ويتحدّث إلى قريش بقوّة.. ويقول:

(يا أهل مكّة.. كنتم آخر من أسلم في الناس، فلا تكونوا أول من ارتدّ

من الناس؛ يا أهل مكّة والله ليتمنّ الله عليكم هذا الأمر كما قال رسول الله؛ ومن رابنا ضربنا عنقه).

قال ذلك لأهل مكّة عامة، ولقريش بخاصة؛ وقد شاهد ملامح التغيير تدبُّ في نفوس جملة من الأنصار بعد إخفاق مرشّحهم في السقيفة: سعد بن عبادة.. وأردف سهيل بن عمرو قائلاً ومحرّضاً: يا معشر قريش: إنّ هؤلاء الناس قد دعوا إلى أنفسهم، وإلى علي بن أبي طالب، وعليٌّ في بيته لو شاء لردّهم! ألا فادعوهم إلى صاحبكم وإلى تجديد بيعته، فإن أجابوكم، وإلاّ فاقتلوهم، فو الله إنّي لأرجو الله أن ينصركم كما نصرتم به).

وهنا وعدٌ وتهديد بالقتال بلا تردُّد أو استثناء.. وفيه تحذير لقريش من أمير المؤمنين.. فقد دعا إليه بعض الأنصار بعد فوات الأوان طبعاً.. ولكنّه لم يردّ دعوتهم فيما قال سهيل بن عمرو.

وكان الدعوة الثانية؛ تبعاً لسهيل بن عمرو في الاتجاه نفسه.. من قبل عكرمة بن أبي جهل.. محرّضاً على قتال الأنصار قائلاً:

(لولا قول رسول الله: الأئمة من قريش ما أنكرنا إمرة الأنصار، اعذروا القوم؛ فإنّ أبوا فاقتلوهم). وفصل القول في هذا المنحى الخطر: الحارث بن هشام المخزومي قائلاً:

(أيّها الناس إن يكن الأنصار قد تبوءوا الدار والإيمان من قبل، ونقلوا

رسول الله إلى دورهم من دورنا فآووا ونصروا، فإنّهم قد لهجوا بأمرٍ إن ثبتوا عليه، فإنهم قد خرجوا مما وسموا به، وليس بيننا وبينهم معاتبة إلاّ السيف).

واستيقظ الأنصار من الغفوة إذ أصبح في قبالهم مسلمة الفتح من الطلقاء.. ولكن ثابت بن قيس قد خفّف من وقع هذا الخطاب عليهم.. وألطف لهم القول: (يا معشر الأنصار، إنّما كبر عليكم هذا القول، لو قاله أهل الدين من قريش!).

ولكنّ أهل الدين من قريش قلّة وأيّة قلّة.. فهذا خالد بن سعيد بن العاص الأموي القرشي أمير رسول الله على اليمن، وهو من الزمرة الخيّرة التي اعتصمت بعليّ عليه السلام يتجه بالقول: (يا بني عبد مناف؛ طبتم نفساً عن أمركم يليه غيركم؟). فقال له الإمام علي عليه السلام: (يا خالد هذا أمرنا أبت قريش أن تؤتيناه!)).

فاسترجع قائلاً: (يا ويح قريش.. وهل في الناس أحد أولى بمقام محمد منك؟)[1].

وكان موقف خالدٍ هذا فريداً.. وقد استلهم هو وآخرون روح الزهراء في مقاومة القوم! بين يدي أمير المؤمنين عليه السلام، وأمام أبي بكر صلى الله عليه وآله في المسجد.. ولكن كم عدد هؤلاء المقاومين.. إنّهم قلّة من ذوي الأحلام الرصينة.. ولو ضحّى بهم أمير المؤمنين لضحّى حينذاك بالإسلام كلّه.

---

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٦/٢٣٢.

ومهما يكن من أمرٍ.. فإنّ عصابة ذات ثبات في المبدأ، وصلابة في العقيدة . . أدركت مسار القضية التي تبنتها سيدة النساء في أحقية أمير المؤمنين بمنصب الولاية الإلهية.. واستجابت للنداء الاحتجاجي.. وسألقي الضوء الخافت السريع على ألق من هذه الصرخات المتعالية إلى جنب الزهراء (ع) وهي تصدع بالأمر:

خالد يبن سعيد بن العاص الذي رأيت موقعه قبل قليل مع علي عليه السلام وبني عبد مناف.. وهو يخاطب أبا بكر رضي الله عنه وهو على المنبر بكلّ صراحةٍ وجراءة، وموضوعية قائلاً: (اتّقِ الله يا أبا بكر. . فقد علمت أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال ونحن محتوشوه يوم بني قريظة حين فتح الله، وقد قتل عليٌّ صناديدهم ورجالهم: يا معشر المهاجرين والأنصار إنّي موصيكم بوصيّة فاحفظوها، ومودعكم أمراً فاحفظوه، آلا إنّ علي بن أبي طالب أميركم بعدي، وخليفتي فيكم؛ بذلك أوصاني ربّي). فأسكته عمر رضي الله عنه.

٢ ـ وانطلق سلمان المحمدي يهدر مجاهراً:

(يا أبا بكر، إلى من تسند أمرك إذا نزل بك ما لا تعرفه؟ وإلى من تفزع إذا سئلت عما لا تعلمه؟ وما هو عذرك في تقدم من هو أعلم منك؟ وأقرب إلى رسول الله، وأعلم بكتاب الله عز وجل وسنّة نبيّه، ومن قدّمه النبي في حياته، وأوصاكم به عند وفاته، وقد أعذر من أنذر).

فصمت القوم، وكأنّ على رؤوسهم الطير، وأرادوا امتصاص النقمة.. ومداراة الوقعة فما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

٣ ـ وقام أبو ذرّ الغفاري في صلابته المعهودة قائلاً:

(لقد علمتم وعلم خياركم أنّ رسول الله ﷺ قال: الأمر بعدي لعلي، ثمّ الحسن والحسين ثمّ للطاهرين من ذريّتي! فأطعتم الدنيا الفانية، ونسيتم الآخرة الباقية).

٤ ـ ثمّ قام المقداد بن عمرو صادعاً بما هو أعرف به من غيره، إلى من هو أعرف به من غيره:

(يا أبا بكر؛ سلّمِ الأمر لصاحبه الذي أولى به منك).

٥ ـ وقام بريدة الأسلمي متسائلاً ومستنكراً ومذكّراً، فقال:

(إنّا لله وإنا إليه راجعون! ماذا لقي الحقّ من الباطل؟ يا أبا بكر: أنسيت أم تناسيت؟ وخدعت أم خدعتك نفسك؟ أو لم تذكر ما أمرنا به رسول الله ﷺ من تسمية عليّ بإمرة المؤمنين...). فوجم القوم وما حاروا جواباً!.

٦ ـ ونهض عمّار بن ياسر فنادى محتّجاً بقوله:

(يا معاشر قريش.. ويا معاشر المسلمين إن كنتم علمتم وإلاّ فاعلموا: أنّ أهل بيت نبيّكم أولى به، وأحقّ بإرثه، وأقوم بأمور الدين... وعليٌّ أقرب

منكم إلى نبيّكم، وهو بينهم وليّكم بعهد الله ورسوله. فصمت القوم، ولم ينسبوا ببنت شفة.

٧- ثمّ قام أبي بن كعب آمراً وناهياً بقوله:

(يا أبا بكر؛ لا تجحد حقّاً جعله الله لغيرك، ولا تكن أول من عصى رسول الله في وصيّه وفيه، وصدف عن أمره! أردد الحقّ إلى أهله تسلم).

فما أعار أحد لقوله إذناً صاغية!.

٨- ثمّ نهض ذو الشهادتين خزيمة بن ثابت مستشهداً وشاهداً بقوله:

(أيّها الناس ألستم تعلمون أنّ رسول الله ﷺ قبل شهادتي وحدي، ولم يرد معي غيري؟ قالوا: بلى، فأشهدوا أني سمعت رسول الله يقول:

(أهل بيتي يفرّقون بين الحق والباطل، وهم الأئمة الذين يقتدى بهم، وقد قلت ما علمت، وما على الرسول إلاّ البلاغ المبين). فما أخذ أحد بشهادة خزيمة ذي الشهادتين!.

٩- وقام أبو الهيثم بن التيّهان يدلي بشهادته الكبرى فيما سمع ورآه من رسول الله ﷺ في أمير المؤمنين، وما قيل في ذلك من قبل الحاضرين، وما أفاده رسول الله ﷺ من القول القاطع، قال ابن التيّهان (وأنا أشهد على نبيّنا ﷺ أنّه أقام علياً يوم غدير خم! فقالت الأنصار: ما أقامه إلاّ للخلافة! وقال بعضهم: ما أقامه إلاّ ليُعلم الناس أنّه مولًى من كان رسول الله مولاه!

وكثر الخوض في ذلك؛ فبعثنا إلى رسول الله نسأله، فقال: **عليٌّ ولي المؤمنين بعدي، وأنصح الناس لأمّتي**). فما تولاّه حينئذٍ إلاّ القليل؛ ولا استنصحه إلاّ اليسير!.

١٠- وقام سهل بن حنيف الأنصاري، فأشهد على ما سمعه من رسول الله ﷺ في الروضة بين القبر والمنبر قائلاً:

(اشهدوا عليّ أنّي أشهد على رسول الله ﷺ في هذا المكان (الروضة) وقد أخذ بيد علي بن أبي طالب، وهو يقول: **أيّها الناس عليٌّ إمامكم من بعدي، ووصيّي في حياتي وبعد وفاتي، وقاضي ديني، ومنجز وعدي، وأول من يصافحني على حوضي، فطوبى لمن تبعه ونصره، والويل لمن تخلّف عنه وخذله**). وقد صكّ هذا الخطاب الرائد المسلمين دون حراك يؤثر!.

١١ ـ وقال أخوه عثمان بن حنيف الأنصاري معلناً:

(سمعنا رسول الله ﷺ يقول: «**أهل بيتي نجوم الأرض فلا تتقدّموهم، فهم الولاة من بعدي...**»). وذهب حديثه في خضم الأحداث متناثراً!!.

١٢ ـ ونهض أبو أيوب الأنصاري ناصحاً.. آمراً بالمعروف..ناهياً عن المنكر.. صادعاً بالقول الصراح:

(اتقوا الله عباد الله في أهل بيت نبيّكم.. واردّوا إليهم حقّهم الذي جعل الله لهم.. والنبيّ ﷺ يقول: «**أهل بيتي أئمتكم من بعدي**» ويومي

إلى عليّ ويقول: **هذا أمير البررة.. وقاتل الفجرة.. مخذول من خذله.. منصور من نصره..»**).

ومرّ كلّ هذا الاحتجاج على شدّته المؤثرة، ووقعه المتناهي وصراحته العلنية كأن لم يكن.. وذهب أدراج الرياح في يوم عاصف.. ولكنه أبقى للتاريخ حقيقة تقول: يخطيء من يظن أنّ الأمر كان مستوسقاً للقوم دون معارضة أو أنّه كان أجماعياً دون نقض.. أو مسلماً به دون خصام؛ فهذه الأصوات بقيت أصداؤها حتى اليوم.. وستبقى طويلا بعد اليوم.. ولو اشتدّت عاصفتها لأوشكت أن تطيح بالأمر، وإن عضُّوا عليه بأطراف النواجذ، وأمسكوه بيدٍ من حديد!.

ولم تكن هذه الأصوات وحدها تدوّي في الأفق الملتهب.. بل تطاول غيرها.. وتحرّك أمثالها في وقتٍ عزّت به الكلمة الصادقة.. فقد كان هناك اجتماع حافل لجماعةٍ من المهاجرين، في فضاء بني بياضة في أطراف المدينة المنوّرة ذو أثرٍ عميق في سير الأحداث بالحدود التي بمستواه.

وكان بلال الحبشي مؤذّن رسول الله ﷺ يقيت هذه الحدث بعزمٍ وحزم، فقد دعي إلى البيعة، وهو مولًى لأبي بكر من ذي قبل، فامتنع عن البيعة، فأخذ عمر رضي الله عنه بتلابيبه، وقال له: هذا جزاء أبي بكر منك أن أعتقك فلا تجيء تبايعه؟ فقال بلال: إن كان قد أعتقني أبو بكر لله فليدعني لله! وإن كان

أعتقني لغير ذلك فها أنا ذا! وأما بيعته: فما كنت أبايع من لم يستخلفه رسول الله ﷺ والذي استخلفه، بيعته في أعناقنا إلى يوم القيامة!.

فقال عمر: لا أباً لك ؟! لا تقم معنا.

فارتحل بلال إلى بلاد الشام، وسكن فلسطين، وله وإلى اليوم مسجد معروف في (الخليل) يشار إليه بالبنان، وإسرائيل تعتدي على من فيه من المسلمين من حينٍ إلى حين، وقد زرته عام ١٩٦٦م.

ومهما يكن من أمرٍ، فقد كان إنكار بلال هذا محفّزاً ومشجّعاً للمجتمعين في فضاء بني بياضة، وكان قد اجتمع هناك: البراء بن عازب، وعمّار بن ياسر، وحذيفة بن اليمان، والمقداد بن عمرو، وأبو الهيثم بن التيّهان، وعبادة بن الصامت، وسلمان الفارسي، ولفيف من المهاجرين والأنصار ممن تخلّف عن بيعة أبي بكر.

وكانوا يرون أنّ علياً لا سواه صاحب هذا الأمر!.

وتداول المجتمعون أمرهم فيما بينهم، وكان لكلّ منهم موقفه كالآتي مع الإيجاز:

١ ـ تكلّم عمّار بن ياسر في جرأة نادرة، فقال:

(ما لتيم وهذا ألأمر؟ إنّه قد كان لرسول الله وهو من بعده في خير الناس بعد رسول الله ﷺ يعني بذلك علياً عليه السلام).

٢ ـ ابتدره البراء بن عازب قائلاً:

(إنّما انتزعه الرجل بحقّ قريش، وعاونه صاحباه يعني عمر وأبا عبيدة بن الجرّاح ولكنّ البيعة ولم يشهدها المهاجرون الأولون فليس لها صحة).

٣ ـ واستظهر حذيفة بن اليمان قائلاً:

(إنّ الأنصار لتريد أن تنقض ما كان منها).

وهذا الاستظهار صحيح، فقد بدر من الأنصار مشادّات كلامية توحي بنقض بيعة أبي بكر.

٤ ـ فقال عندئذ المقداد بن عمرو:

(فهذا والله خير.. وليردّن الحقّ إلى صاحبه).

٥ ـ وتساءل سلمان (فإن أبى الرجل؟) يعني أبا بكر.

٦ ـ فقال أبو ذرّ مجاهراً بامتياز كما يقال:

(فدعوه إنّه ليس ولا صاحباه إلاّ ثلاثة من المهاجرين! والله لا يراني أبداً أبايع ابن أبي قحافة وفي الناس ابن أبي طالب).

٧- وقال عمّار: (هذه الأنصار تهمّ أن تنقض الأمر أمر السقيفة! وكان طلحة بحيث يستمع إلى ما دار بين هذه الصفوة، فتطوّع بإبلاغه أبا بكر، وأنذر به عمر، وسار أبا عبيدة! وسارع القوم إلى المسجد فبدأهم بقوله:

(أيّها الناس؛ إنّ الله قد جمع أمركم على خيركم، صاحب رسول الله ثاني اثنين إذ هما في الغار، فقوموا فبايعوا...

واسترسل أبو بكر بسياسته الوئيدة قائلاً:

أمّا بعد، فإنّي قد وليت عليكم، ولست بخيّركم..

وكان هذا ما يشبه التصريح بأفضلية علي، وأحقيّته فهو نقطة الانطلاق.. وهكذا بدأت الفتنة تكشّر عن أنيابها كالغول.. فكانت تنام وتستيقظ في النفوس من جيل إلى جيل في خلافٍ مستحكم مستطيل حتّى قال الشهرستاني: (وأعظم خلافٍ بين الأمة خلاف الإمامة، إذ ما سُلّ سيف في الإسلام على قاعدة دينية مثلما سلّ على الإمامة في كلّ زمانٍ)[1].

وهذا ما حذّرت منه الزهراء.. بل هو ما أوعدت بوقوعه.. وهكذا كان[2].

وفي ضوء ما تقدّم، وجد البحث أنّ تأثير الزهراء كان بالغاً فيما صدعت به.. وبليغاً فيما نطقت به، وكان إنكارها قد أضرّم النفوس شرراً.. ونبّه المشاعر يقظة.. من خلال دفاعها المستميت عن القضية التي نذرت نفسها من أجلها.. فكان ما كان في ذات الله وحده لا أكثر ولا أقلّ.

(١) ظ: المؤلف، الإمام علي عليه السلام سيرته وقيادته في ضوء المنهج التحليلي: ١١٠-١١١، مؤسسة العارف للمطبوعات، بيروت، ٢٠٠٢م.

(٢) الشهرستاني، الملل والنحل: ١/ ٢٤.

وهذا كلّه مقتطف من سيرتها الجهادية في الرفض والمعارضة في المبتدأ والمنتهى.. والمتتبع لهذه السيرة في أبعادها النضالية العطرة.. يجدها محبوكة رصينة، أضفى عليها رسول الله ﷺ برداً من البرّ الأبوي الكريم، فبصّرها بأمور الدنيا والدين..وعلّمها سبل الرسالة الغرّاء.. فما عملت، وما نطقت، وما اعترضت، وما جابهت، وما قاومت إلاّ في ضوء وظيفتها القيادية، وفي حكم التكليف الشرعي الخالص.. ولا عجب في ذلك إذ كانت وليدة تربية رسول الله ﷺ، وفي ظلّ هذه التربية الفضلى عادت الزهراء منزّهة عن الزلل في خطواتها كلّها.. تقول صدقاً، وتنطق حقّاً.

إصرار الزهراء

كان إصرار الزهراء متواصلاً فيما نهدت به من مهمّات أساسية.. وما تقدّمت به من حلول رسالية.. أعذرت فيها لنفسها، وأعذرت فيها للمسلمين، وأعذرت فيها لشريعة السماء.. مما انتشر صداه خارقاً آفاق الأقاليم الإسلامية.. ولم يقف عند حدود المدينة المنوّرة.

فهناك مئات الآلاف في الجزيرة العربية يتطلّعون بلهفة إلى أخبار المدينة غثّها وسمينها.. فكيف بالحدث الأكبر.. وهو خلافة رسول الله ﷺ؟ وهناك مئات الآلاف من الصامتين وقلوبهم على أحرّ من جمر الغضا يتلهفون إلى قراءة مجريات الأحداث بعد وفاة الرسول الأعظم ﷺ، ولا بارقةً في الأفق تشير إلى الانفراج.. إلاّ صوت الزهراء عليها السلام في الإصرار على المعارضة، والتطلّع إلى التغيير، والإلحاح في تسيير الحجة بعد الحجة.. ومجابهة قريش بما لا يستطاع تغافله! مما أوجد حالة متلاحقة من التساؤل؟ فالزهراء عليها السلام خريجة مدرسة أبيها محمد ﷺ في القناعة والزهد والإعراض عن مباهج الحياة والترف!.

فما هذا السيل المنحدر من الأعالي في النداء الاحتجاجي؟ وما هذا

النكير المكثّف في الاستغاثة وتحريض الضمائر؟ أكلّ هذا الضجيج في الأجواء من أجل نحلة قد صودرت.. أو ميراث قد احتجن؟ أو ما شابه ذلك من الحقوق المالية التي اغتصبت؟ أليست هي زوجة أمير المؤمنين القائل «**يا صفراء يا بيضاء غرّي غيري**»، أليس هو القائل «**فو الله ما أدّخرت من غنائمكم وفراً.. ولا أعددت لبالي ثوبي طمرا**».

أليس هو صاحب عبد الله بن عباس، وقد رآه في رحبة الكوفة، وعليه قطيفة، وهو يرتعد من البرد، فقال له: يا أمير المؤمنين: ((إنّ لك في بيت المال لحقّاً... قال الإمام: لا والله لا أرزؤكم من مالكم شيئاً.. إنّما هي قطيفتي التي خرجت بها من المدينة(١)!.

أليس هو القائل كما سبق بيانه «**بلى كانت في أيدينا فدك..**». فليت شعري: أترى الزهراء عليها السلام غافلة عن هذه المظاهر في التقشف والزهد والأعراض عن زينة الحياة الدنيا.... الخ.

(١) ظ: في نصوص هذا المبحث المتقدمة وقارن كلاً من:
البلاذري، أنساب الأشراف، وابن قتيبة، الإمامة والسياسة، والصدوق، الأمالي، والطبري، تاريخ الرسل والملوك، والصدوق، الخصال، وابن عبد البر، الاستيعاب، وابن الأثير، الكامل، وابن سعد، الطبقات الكبرى، والمسعودي، مروج الذهب، وابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، والواقدي، المغازي، والطبراني، المعجم الكبير، وابن هشام، السيرة النبوية، وأبو نعيم، حلية الأولياء، وابن حجر، الصواعق المحرقة، وابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة لأمير المؤمنين الإمام علي، وابن الصباغ المالكي، الفصول المهمة، والمجلسي، بحار الأنوار، والقندوزي، ينابيع المودة، والأمين الحسيني العاملي، أعيان الشيعة، وعبد الحسين الأميني، الغدير في الكتاب والسنة والأدب، وطه حسين، الفتنة الكبرى، وجعفر مرتضى العاملي، مأساة الزهراء، وعبد الفتاح عبد المقصود، الإمام علي بن أبي طالب، والمؤلف: الإمام علي سيره وقيادته في ضوء المنهج التحليلي.

كلاّ ولا.. إنها كانت نصب عينيها صلوات الله عليها ولكن لديها واجباً مقدّساً، وهي تحوم عليه في تنبيه المسلمين إلى الظلامة الكبرى.. وهي مسألة الخلافة التي تترشّح عن الولاية الإلهية لأمير المؤمنين عليه السلام عملاً بقول رسول الله يوم الدار، وقد جمع الملأ من قريش.. متوجّهاً لعلي عليه السلام: «**أنت وصيي وخليفتي من بعدي، وأنت وزيري**»(١).

وهي أدرى بما حدث لدى غزوة تبوك، وقد خلّف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم علياً عليه السلام ولم يصحبه معه.. وهو حامل لواء الحمد.. فقال علي عليه السلام: «**أتخلّفني بعدك؟** فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **ألا ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى.. إلاّ أنّه لا نبي بعدي**»(٢).

والغدير بأحداثه أمامها.. وخيبر بين يديها.. وجهاد علي في تثبيت أركان الإسلام بين جوانحها!.

إذن هي صاحبة هدف.. ورائدة قضيّة.. والرائد لا يكذب أهله.. وذو الهدف الأمثل لا يغيّر موقفه، ويبقى متصدّراً لإنجاز ما يريد، سُمع منه ذلك أو لم يسمع!. علماً بأنّ المسلمين سابقاً ولاحقاً قد سمعوا وراجعوا أنفسهم.. وقد سبق السيف العذل!.

---

(١) هكذا قال الإمام: نصاً، أو معنى.

(٢) الطبري، تاريخ الرسل والملوك: ٢/٦٢، المتقي الهندي، كنز العمال: ١٣/٥٨، الإربلي، كشف الغمة: ١/٦٢، وسواها.

وكان موقف الزهراء عليها السلام ويشاركها في ذلك الإمام علي عليه السلام.. ولم يكن في مقدور الإمام التحرّك بأكثر من رفض البيعة في حياة الزهراء عليها السلام.

أمّا الزهراء فأنطلقت في اصطفاف تاريخي عريض؛ تناضل وتستنكر، وتقول، وتنظّر، وتجادل، وتحتجّ، وتحاور ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً. ولكنّها عرّضت نفسها للأحزان والمصائب.. واستطال القوم في انتهاك حرمتها المقدّسة!.

ولكنّ الزهراء قد وقفت في كشف الأقنعة والنكوص على الأعقاب، بنشاط جهادي ليل نهار طيلة أيمها المعدودة بعد وفاة أبيها صلى الله عليه وآله.

وكانت وراء هذا النشاط رؤية رسالية ثاقبة لم تتزحزح عنها طرفة عين أبداً في ظرف عصيب معقّد، فقد قدحت بمقرّرات السقيفة.. وسفّهت اختيارها.. ورأت فيه انحرافاً خطيراً لا يمكن السكوت عليه.. فثارت لهذا الحقّ المضاع! وفنّدت التحكم في مقدّرات الدين الجديد.

ولم يكن لغير الزهراء عليها السلام أن يقوم بعبء هذه التعبئة الثقيلة على الإطلاق.. ووقوفها بإزائه كان في أقصى درجات الخطورة.. وأروع مدارك الوعي السياسي الرافض.

ولولا موقف الزهراء المتوازن، وتأييد أمير المؤمنين لخطواتها الجبّارة، لكان بالإمكان أن تختفي الحقيقة.. وأن تندرس كثير من الآثار في ظلّ التاريخ الإسلامي.

كيف لا: وقد تواكل الجمع وتخاذل المسلمون حتّى نفد صبر الزهراء، فالتحمت في معركة المجابهة الخلاقّة.. وواصلت المعارضة البنّاءة بإصرار وإلحاح وإلحافٍ في موقف بعد موقف، وصوت إثر صوت.. واحتجاج تلو احتجاج.. أنبّت بذلك الشاهد، ونبّهت الغائب، وثبّتت قلوب المؤمنين بقضية أهل البيت الكبرى التي انحرف عنها القوم، فاتخذت غير مسارها التشريعي في أثرةٍ لا نظير لها.

ومع ضياع الحقّ جهاراً.. واشتداد المحنة ضراوة، إلاّ إنّ إصرار الزهراء العنيف هو الذي أجهز على بعض غلواء المؤامرة التي كادت أن تطوّح بالإسلام؛ وذلك بافتعال ضبابية مختلقة افتعلها الملأ من المتزعمين.. وعملوا على تسخيرها إعلامياً من أجل التستر على الأحداث المضادّة ولو بستار رقيق عسى أن تختفي معالم القرار المبيّت باستبعاد قيادة أمير المؤمنين مهما كنّف الأمر من الشدّة والعنت.. لهذا كان سبق الزهراء إلى جلاء الموقف وإشراقه إيذاناً بكشف الحقيقة الغائبة.. وقد دفعت حياتها في سبيل ذلك في نضرة شبابها، وعنفوان نشاطها، وربيع عمرها المخترم.

وفي قبال ذلك كان إصرار أبي بكر ﵁ على منع الزهراء حقوقها شديداً إلى درجة الاضطهاد، وإغضاب الزهراء، وكان بإمكانه إرضاؤها وهو بموقع السلطان، ويتمتّع بصلاحيات كبرى لا تطاول ولا تنازل، وللسلطان كما عليه القوم أن يعطي ما يشاء لمن يشاء، كما أعطى، ووهب وأجزل ما شاء لمن شاء،

ولكن أبا بكر كان أذكى من أن يسجّل على نفسه الاستجابة لدعوى الزهراء في النحلة بناءً على قاعدة وضع اليد. . والتصرف. . والإشهاد. . وأن يجري الإرث وسهم ذوي القربى وفق نصوص القرآن التي لا تقبل التأويل.

ولكنّ أبا بكر ﷺ كان يقرأ ما بين السطور. . ويتطلّع إلى ما في الصدور. . فلو تطامن لهذا الحقّ المالي المشروع؛ لطالبته الزهراء غداً بالحقّ المشروع الأعظم، ولعاد من خلافته صفر اليدين.

وفي نصوص التاريخ لقطات نادرة تتجلّى بكثير من الدلالات المهمّة، وقد يرى بعضهم فيها مشهداً عابراً. . ولكنّها قد تمثل الجزء الأكبر من إصرار الزهراء في الطلب. . وإلحاح أبي بكر في المنع . . وهو ما يقوله ابن أبي الحديد:

(سألتُ علي بن الفارقي مدرس المدرسة الغربية ببغداد، فقلت له: أكانت فاطمة صادقة؟ قال: نعم؛ قلت: فَلِمَ لم يدفع إليها أبو بكر فدكاً. . وهي عنده صادقة؟. فتبسّم؛ ثم قال كلاماً لطيفاً مستحسناً، مع ناموسه وحرمته، وقلّة دعابته! قال: لو أعطاها اليوم فدكاً بمجرّد دعواها لجاءت إليه غداً. . وادّعت لزوجها الخلافة. . وزعزعته عن مقامه! ولم يمكنه الاعتذار والموافقة بشيء. . لأنّه قد يكون أسجل على نفسه أنّها صادقة فيما تدّعي كائناً ما كان؛ من غير حاجةٍ إلى بيّنة، ولا شهود.

وهذا كلام صحيح؛ وإن أخرجه مخرج الدعابة والهزل)[1].

(١) روي الحديث بعشرات المصادر والطرق، وانظر صحيح مسلم: ٧/١٢٠.

وهذا ما يفسّر لنا جزءاً من وقائع الأحداث التي انتهت بظلامة الزهراء، وظلامة أمير المؤمنين معاً.

وكان بإمكان الزهراء عليها السلام أن تضرب صفحاً عن هذا الموضوع.. وتغضّ طرفاً عن هذه النازلة.. ولكن هيهات أن يقعدها عن وظيفتها الرسالية حاجز من خوف.. أو مانع من حذر.. أو مواربة في حقّ؛ ولم تكن لتستسلم للأمر الواقع .. وتلقي الحبل على الغارب.. وأمامها شوط طويل من العمل التعبوي الفعلي وعلى البعيد المستقبلي.. فقضية الإمامة في ضوء الولاية الإلهية كانت معروفة بدقّةٍ لدى الصفوة المختارة.. ولم تكن واضحة المعالم لدى الأكثرية من الشعب المسلم.. لما وضع أمامها من الشبهات والعراقيل وتأويل النصوص في القرآن والسنة!. فكان إصرار الزهراء عليها السلام على الأمر تنفيذاً للمشروع الإلهي فيمن يخلف رسول الله صلى الله عليه وآله.. وهو مبدأ دأبت الزهراء للتأكيد عليه. وأصل سعت لتثبيت أحقيته فيمن نصب للولاية الإلهية.. سواء أكان ذلك في آية إكمال الدين، وإتمام النعمة، أم في حديث الغدير المتواتر.. أم في وصايا رسول الله صلى الله عليه وآله المتكررة في استخلاف أمير المؤمنين ووصايته واستيزاره.. أم في السابقة إلى الإيمان والهجرة.. أم في الجهاد الدامي مع رسول الله صلى الله عليه وآله ومشاهده كلّها.. ولهذا كان امتناع علي عليه السلام عن البيعة في حياة الزهراء عليها السلام تأييداً لما نهضت به.. وإقراراً لعملها المشكور.. واعتداداً بموقفها الصلب في هذا الأمر.. حتّى جرى بينه وبين أبي بكر رضي الله عنه جدل وتداخل في موضوع البيعة.. فقطع عليه عمر الحديث قائلاً: بايعْ.. ودعْ عنك هذه الأباطيل!.

فقال له علي عليها: فإن لم أفعل فما أنتم صانعون؟.

قالوا: نقتلك ذلاً وصغاراً[1].

ولكنّ علياً عليه السلام لم يبايع في ظلّ موقف الزهراء.. وكان هذا الملحظ يرعبهم ويستفزّهم ويثيرهم؛ إذ سيترشح عليه عدم مشروعية البيعة لهم، وهذا ما يجعل السواد الأعظم يتساءل عن سرّ ذلك!.

وكان على الزهراء عليها كشف هذا السرّ في كلّ الذي أثارته من اعتراضات واحتجاجات على الحكم.. فبدت الحقيقة سافرةً.

الزهراء تخاصم وتقاوم وتناهض القوم.. وعلي عليه السلام لم يبايع وبقي متصلّب الموقف حتّى وفاة الزهراء!.

المسلمون تحسّسوا واقع الأمر.. وعرف أغلبهم شيئاً من الحقيقة المرّة.. فأظهر بعضهم المعارضة.. ولاذ الأكثرون بالصمت.. ونتج عن مجمل هذه المضاعفات شيءٌ من الإحساس.. وكثير من التساؤل.. وظلّت الزهراء غضبى.. والحديث يقول: «**فاطمة بضعة منّي.. فمن أغضبها أغضبني**»[2].

وغضب رسول الله صلى الله عليه وآله ينجم عنه غضب الله تعالى، وللقائل أن يستشهد بما قال القرآن ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾[3].

---

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٦/٢٨٤.

(٢) كتاب سليم بن قيس: ١٥٣، المجلسي، بحار الأنوار: ٢٨/٢٧١.

(٣) البخاري، صحيح البخاري: ٤/٢١٠، الطبراني، المعجم الكبير: ٢٢/٤٠٤، المتقي الهندي، كنز

وكان بإمكان الزهراء سياسياً أن تتخلّى عن هذا الإصرار الحثيث؟ وأن تهادن القوم شيئاً ما.. وأن تخفّف من صرامة القول، وحدّة الجدل.. كان ذلك بالإمكان ولو افتراضاً.. وحاشاها إذن لا نفتحت الدنيا والأعطيات والصلات على مصراعيها.. ولا اعتراض على ذلك؛ نظراً لمكانتها المرموقة.. وشخصيتها المحبوبة.. وعلوّ منزلتها.. ولكن لم يكن للزهراء أن تلوذ بالصمت.. وهي الكائن الوحيد آنذاك الذي يستطيع الإنكار بالمعنى العريض.. ليظلّ ذلك الصوت هادراً في مسمع التاريخ.. ومدوياً في سماء الوعي الإسلامي.

إنّ سياسة الزهراء في الرفض لقرارات السقيفة ومشروع القيادة البديلة.. واحتجان النحلة.. وإلغاء نظام الإرث.. ومصادرة سهم ذوي القربى.. كلّ ذلك كان يمثل ثورة عارمة تتسم بالجديّة والحدية.. لا سبيل فيها إلى المجاملة.. ولا مجال للتنازل عن تجليّة واقع الحدث المرير.. وكلّ ذلك تحتفظ به ذاكرة التاريخ غير الرسمي.. وتسجله في بعضه ملفات التاريخ الرسمي نفسه.

وحينما انتهت الزهراء من إبراز هذا الهدف بكلّ تفصيلاته.. وقوبلت بالردّ والجفوة والعناد.. عمدت إلى ظاهرة أخرى كان لها الأثر الكبير في تصوير ظلامتها.. وإكمال مسيرة إصرارها.. وتتجسّد تلك الظاهرة في إحياء الحزن على رسول الله ﷺ والبكاء عليه في هدفٍ إضافي تُشعر به مدى المصاب من جهة.. وتوحي بأثر فراقه على الأمة.. وتشير إلى وحدتها وغربتها بعده ثالثاً..

العمال: ١٢/١٠٨، القندوزي الحنفي، ينابيع المودة: ٢/٥٢.

وتؤكد فيها كظاهرة.. وتعبّر عنه كهدف مركزي لاستحضار مرحلة الإمامة بعد انقطاع النبوة.. فبموت رسول الله ﷺ وانتقاله إلى الرفيق الأعلى.. حُجِبَ عن الأرض وحي السماء.. ولا بدّ من راعٍ وقيّم على الشرع الحنيف بعد رسول الله ﷺ.. ولا بدّ من وعي أحكام هذا الدين فروعاً وأصولاً وتشريعات أخرى.. ولا يتسنّى ذلك إلاّ بمن يخلف رسول الله ﷺ في الأداء والتبليغ وحلّ المشكلات.. ولا بدّ في ذلك أن يتصدّى الأقوى الجامع للشرائط الخاصة والعامة؛ لتنفيذ ذلك، وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**أيّها الناس إنّ أحقّ الناس بهذا الأمر أقواهم عليه**»[1].

وهو عليه السلام يشير بذلك إلى نفسه.. ومن أصدق من عليّ لهجة.. ومن أولى بالأمر منه.. ومن أقوى عليه دونهم.. ومن جمع العلم والعمل والقضاء والعدل والإفتاء والمساواة بين الناس وإيثار الآخرين.. ورعاية اليتامى والمسكين وأبناء السبيل.. غير علي بن أبي طالب عليه السلام.. وإذا كان الأمر كذلك.. وهو كذلك.. فأمير المؤمنين هو الأقوى نفساً ومؤهلات وتضلّعاً وتميّزاً وأصالةً وهداية من سواه.

والزهراء تؤكّد أنّ علياً عليه السلام هو الأقوى.. وإذا كان هو الأقوى فهو الأحقّ.. ولا بدّ من تذكير الناس بهذا الملحظ.. وتعبئتهم نحو هذا الاتجاه.. وعلى هذا فالمصيبة بفقد رسول الله ﷺ مزدوجة الأحزان: حزنٌ على

---

(١) سورة التكوير: ٢٦.

فراقه.. وحزنٌ على شريعته.. وقد يعبّر الحزن عن استدراك هذا الأمر لئلاّ يضيع الحقّ الإلهي.. ولئلاّ ينقطع النبع الرسالي.. ولئلاّ يُستولى على الشأن التشريعي..

ومن خلال مظلومية الزهراء عليها السلام ونشر ظلامتها غصباً وغضباً.. وضرباتٍ وركلاً.. وحمرة عين وكسر ضلع.. وإسقاط الجنين.. كان الإصرار من قبلها على متابعة البكاء واستدامة الحزن.. رعاية لتلك الأهداف.

فقد روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنّه قال: «... **أمّا فاطمة فبكت على رسول الله صلى الله عليه وآله حتّى تأذّى بها أهل المدينة، فقالوا لها: قد آذيتنا بكثرة بكائك.. فكانت تخرج إلى المقابر، مقابر الشهداء.. فتبكي حتى تنقضي حاجتها.. ثمّ تنصرف**».

وإنّها لجرأة عظيمة ممن صكّها بقول (آذيتنا) فهلاّ حرصوا على حرمتها؟ فخفّفت من وجدها!.

وما كان من أمير المؤمنين عليه السلام إلاّ أن يبني لها (بيت الأحزان) خارج المدينة للبكاء على أبيها! لئلاّ يتأذى هؤلاء وهؤلاء! إنّ الحزن والبكاء على النبي صلى الله عليه وآله مشروع لا شكّ.. فلمّا يتأذى الآخرون منه؟ ذلك إنّ الإجهار به والإصحار بإذاعته.. والإصرار على انتشار نبأه بين الناس.. لم يكن اعتباطياً.. بل كان واجهة رسالية تصدّرتها الزهراء في سبيل قضية مركزية كما أسلفنا.. وقد بلغت بذلك الذروة في الإبلاغ.. والغاية الكبرى في النكير، وقد عرف

الجمع المؤمن هدفها.. ووعت الجماهير غرضها.. حتّى إذا أخذ منها الحزن كلّ مأخذ.. شاع في المدينة أنّها جليسة دارها.. فقد أقعدها الحزن والمرض والمعاناة.

وفي لمحةٍ من ملامح السياسة أقبل الشيخان يعتذران من الصديقة الطاهرة على ما بدر منهما، فلم تقبل ذلك، وابتدرتهما: ((نشدتكما الله؛ ألم تسمعا رسول الله يقول: رضا فاطمة من رضاي.. وسخط فاطمة من سخطي.. فمن أحبّ فاطمة ابنتي فقد أحبّني، ومن أرضى فاطمة فقد أرضاني، ومن أسخط فاطمة فقد أسخطني؟ .

قالا: نعم، سمعناه من رسول الله ﷺ قالت: «**فإنّي أشهد الله وملائكته أنّكما أسخطتماني، وما أرضيتماني.. ولئن لقيت النبي لأشكونكما إليه**»[١].

فعند ذلك دعا أبو بكر بالويل والثبور، وجزع جزعاً شديداً، فقال عمر: أتجزع يا خليفة رسول الله من قول امرأة[٢].

وكان هذا الموقف تكميلياً لمواقف سابقة بين أخذٍ ورد وجذب وشدّ.. ومن مجموع ما تقدّم بيانه تعريفة قيمة ما رواه البخاري:

---

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٣٢٨/٩.
(٢) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة: ٣١/١.

(فغضبت فاطمة بنت رسول الله فهجرت أبا بكر، فلم تزل مهاجرته حتى توفيّت)[١].

إنّه الغضب لله تعالى، ولرسوله الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم وللإمامة متمثّلة بأمير المؤمنين عليه السلام مضافاً إلى الحقّ المغتصب.. والأول هو الهدف الأولي.. والثاني أمر ثانوي.. وكلاهما كان موضوعاً لغضب الزهراء سيّدة نساء العالمين.

(١) المجلسي، بحار الأنوار: ٢٨/٣٠٢، وانظر مصادره.

نساء المهاجرين والأنصار في عيادة الزهراء

هالةٌ من الإشعاع الفكري يغمر آفاق الحياة الإسلامية بتحرّك الزهراء الرسالي.. ليضيء تلك القصبات في جزيرة العرب بسناء العزّة والشرف.. وينوّر أفكار المستضعفين في الأرض بوابلٍ من الوعي الذي لا بدّ منه.. فالزهراء الوادعة القديسة تنفجر كالبركان في أجواء المرأة الجديدة.. وكانت المرأة في ذلك المحيط الصحراوي الجاف حجراً يقذف به بمتاهات الطرق.. ونفاية تطرح بمزبلة التاريخ.

وليت العرف الجاهلي أعطى لمحاً من كرامة.. أو أَلَقاً من مكانة للمرأة في حياة عامة أو خاصة! إنّها الشيء المتهن في يبس البراري وحرارة الرمال.. خادم ذليل لا يتصرّف بشيءٍ.. وعبد مطيع لا يقدر على شيء؛ أمّا الأمومة المثلى والتربية الفضلى ورعاية البيت والأسرة.. فذلك مما رفضه المعجم الجاهلي في مفرداته الخشنة لتعود المرأة جماداً لا حراك فيه.. وهكذا كثير من الأمم في تعاملها النسوي.

وفوجيء المجتمع بالرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم وهو يدني شأن الزهراء عليها السلام ويرفع من مزلتها بما تقدّم وما سيأتي من أحاديث وهم بين مشكّك فيما يجري

من تكريم، وبين مستغرب متسائل عن هذه الظاهرة وهي تشقّ طرقها في تيار قبلي مائج.

وكانت هناك القلّة الواعية ممن ادرك هذا الاتجاه الجديد تجاه المرأة متمثلة بسيدة النساء.. وهو الحق من الله تعالى.

فالزهراء عليها السلام ليست امرأة من جنس ما اعتادوا عليه في شتّى المقاييس القائمة في موازينهم. وإذا بها شجنة من رسول الله صلى الله عليه وآله أولاً.. وهي سيّدة نساء العاملين أخيراً، وما بينهما من المنازل العليا التي تحدّث عنها رسول الله صلى الله عليه وآله.

تلك الخصائص الفريدة هي التي جعلت الزهراء تقفز بالمرأة إلى المستوى الأسمى.. ونهضت بها إلى حيث هي في الدين الجديد عنصراً فاعلاً مصوناً محترماً فيما له من حقوق، وما عليه من واجبات مع مراعاة العفّة والإحصان، إنّها ملك نفسها ومسؤولة ذاتها مع الالتزام بالمسؤوليات الأخرى في الحياة العامة والحياة الزوجية الكريمة.

هذا التحوّل السريع في النظرة للمرأة في عصر الزهراء القصير، أفاقت به المرأة من تلك الغفوة الشاملة في خطوة إلى الأمام.. واستيقظت من ذلك السبات العميق الذي دفع بها إلى الوراء.. فعادت ذات كيان سيادي مستقلّ منظور إليه في الرسالة الجديدة.. وأصبحت امتداداً طبيعياً للرجل الطبيعي في الآثار والأعمال والمؤهلات.. ومثالاً حيّاً يحتذى في الاتزان والإحصان والإيمان.. وبهذا الإطار من التراصف والتناسق انطبعت العلاقة الجديدة بين

الرجل والمرأة في شرارة تتجاذب القدح والآراء في بناء الأمة.. وقد ارتفعت في وحي القرآن العظيم إلى الحد الذي يُضرب به المثل للذين آمنوا في الفكر الديني بما نصّ عليه تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾[1].

وفي الآيتين الكريمتين من الدلائل الباهرة على عظيم منزلة المرأة، ما هو مذكور في موقعه من كتب التفسير وبلاغة القرآن.

وبانعطافٍ تاريخي رهيف نهدت الزهراء عليها السلام بمعيارٍ جديد للمرأة المسلمة على الصعيد الاجتماعي في ومضات تقيم من أود الشخصية وانحراف الاتجاه إلى برمجة الأحداث وصناعة التاريخ.. فانتقلت بالمرأة من المناخ البدوي إلى الحضري.. ومن التقوقع على الذات إلى الانطلاق في ميدان الكفاح! وإذا بالزهراء عليها السلام تضع المرأة أمام مسؤوليتها وجهاً لوجه.. وتأخذ بعضد نساء المهاجرين والأنصار إلى أداء الرسالة..وتوجيه النذير إلى الآباء والأبناء والأزواج في بيان مشروعها الرسالي الضخم في عودة الحقّ إلى نصابه.. وإنقاذ الأمّة مما وقعت فيه من الانحدار وراء العصبية القبلية وحبّ الثأر، وندّدت بابتعاد القادة عمّا خطّط له رسول الله صلى الله عليه وآله بوحي إلهي، وبأحاديث

---

(١) البخاري، صحيح البخاري: ٤٢/٤.

متواترة.. وبإشادة فعلية بمن تنافح عنه الزهراء عليها السلام وتكافح حفاظاً على روح الإسلام من رياح التغيير العشوائي، ومحدثات الأمور، ونصرةً لقانون السماء.. وغيرة على الأمة من الانجراف وراء الآراء المرتجلة.

انفجرت الزهراء عليها السلام أمام المرأة المسلمة تنشد الحق المضاع، وأباحت بأسرارها العميقة في معاني منازلتها الغضبى.. فهي ابنة أبيها لا تريد الاتساع لذاته بمال اقتطعوه.. ولا تحاول غنيمة تطاول القوم بابتلاعها.. ولا تستهوي نحلةً تستعينُ بغلّتها على مكاره الدهر، وجشوبة العيش.

فالزهراء عليها السلام نموذج لا كالنساء.. وقدّيسة لا كالأخريات، لها من أرومتها عزّة النفس.. ومن شرفها طيب المحتد.. ومن موضوعيتها أصالة القصد.. إنّه الهدف الأسمى الذي سعت مغذّةً إلى بيان مشروعيته في الكتاب والسنة.. وقد سيّرت بين يديها الحجة والبرهان جاهدة عاملة.. مؤكّدة النكير على تجاهله وتغافله.. مجابهة الفتنة عند ضرامها، والفرقة في أول ميلادها، والأثرة دون ولاة الأمر.. والصبح بعدُ لم يسفر، والليل لم ينكشف، والظلمة ضاربةٌ بأطنابها.. والأمل بعد لم يتضاءل؛ وهي أولى من يصرّح بالحقّ، وأحرى من يدع المجاملة الواهنة. كان ذلك هو الغاية من الحلبة، وقصب السبق في الميدان.. وقد اكتسبت الزهراء ذلك تاريخياً، وإن لم يتحقّق آنياً.. فهي تريد صراحةً أن يتسنّم أبو الحسن مركبها، ويعلو سدّتها، ويحدو ركبها.. وأن ينهض بعبئها الثقيل بعيداً عن التسلّط على المقدّرات.. مؤثراً الحقّ على

الباطل.. فالضعيف عنده قويّ حتّى يأخذ له بحقّه، والقوي عنده ضعيف حتّى يأخذ منه ما احتجن، واستقطع واستثمر واستباح واستبد.

هذا ما كشفته الزهراء عليها السلام بوضوحٍ عند مرضها الذي توفيّت به أسيفة لهيفة.. وقد عبّرت عن ذلك بخطبة بليغة غرّاء؛ فيما رواه أبو بكر الجوهري بسندٍ صحيح، بل بسندٍ عالٍ عند علماء الجرح والتعديل.. وبوثاقة منظور إليها لدى أرباب فنّي الرواية والدراية.. ينتهي ذلك إلى فاطمة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب عليها السلام قالت: لمّا اشتدّ بفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله الوجع، وثقلت من علّتها، اجتمع عندها نساءٌ من نساء المهاجرين والأنصار! فقلن لها: كيف أصبحت يا ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله.. قالت:

«والله أصبحتُ عائفة لدنياكم، قاليةً لرجالكم، لفظتهم بعد أن عجمتهم.. وشنئتهم بعد أن سبرتهم[1]، فقبحاً لفلول الحدّ، وخور القناة، وخطل الرأي، وبئسما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون. لا جرم ! قد قلدتهم ربقتها، وشنّت عليهم غاراتها.. فجدعاً وعقراً للقوم الظالمين.

ويحهم ! أنّى (أين) زحزحوها عن رواسي الرسالة، وقواعد النبوة، ومهبط الروح الأمين، والطبين[2] بأمر الدنيا والدين؟ ألا ذلك هو الخسران المبين. وما الذي نقموه من أبي حسن[3]؟.

(١) سورة التحريم: ١١ ـ ١٢.

(٢) عجمتهم: خبرتهم وبلوتهم، شنئتهم: أبغضتهم، سبرتهم: علمت أمرهم.

(٣) الطبين: الحاذق.

نقموا والله نكير سيفه، وشدّة وطأته، ونكال وقعته، وتنمره في ذات الله.. وتالله لو تكافّوا عن زمام نبذه رسول الله ﷺ لاعتلقه.. ولسار إليهم سيراً سجحاً، لا يكلّم خشاشة، ولا يتعتع راكبه، ولأوردنهم منهلاً نميراً فضفاضاً يطفح ضفتاه، ولأصدرهم بطاناً قد تحيّر بهم الرأي غير متحلٍ بطائل، إلاّ بغمر الناهل، وردعه سورة الشاغب، ولفتحت عليهم بركات من السماء والأرض، وسيأخذهم الله بما كانوا يكسبون. ألا فاستمتع! وما عشت أراك الدهر عجبه (عجباً).. وإن تعجب فقد أعجبك الحادث! إلى أيّ لجأوا استندوا؟ وبأيّ عروة تمسّكوا؟ لبئس المولى، ولبئس العشير؛ ولبئس للظالمين بدلا!.

استبدلوا والله الذنابى بالقوادم، والعجز بالكاهل، فرغماً لمعاطس قوم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً: ﴿ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ ﴾[1]. ويحهم: ﴿ .... أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ﴾[2].

أما لعمر الله لقد لقحت، فنظرة ريثما تنتج، ثم احتلبوها طلاع القصب دماً عبيطاً! وذعاقاً (ذعافاً) ممقراً.. هنالك يخسر المبطلون، ويعرف التالون غِبَّ ما أسّس الأولون! ثمّ طيبوا عن أنفسكم نفساً، واطمئنوا للفتنة جأشاً؛ وأبشروا بسيفٍ صارم، وهرج شامل، واستبداد من الظالمين يدع فيئكم زهيداً، وجمعكم حصيداً، فيا حسرة عليكم،

(١) أبو حسن: أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام.

(٢) سورة البقرة: ١٢.

وأنّى لكم، وقد ﴿ . . .فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴾[١].

والحمد لله ربّ العالمين، وصلاته على محمد خاتم النبيين وسيّد المرسلين»[٢].

وعقّب ابن أبي الحديد المعتزلي (ت ٦٥٦هـ) على هذه الخطبة بالقول: (قلت: هذا الكلام وإن لم يكن فيه ذكر فدك والميراث، إلاّ إنّه من تتمّة ذلك، وفيه إيضاح لما عندها، وبيان لشدّة غيضها وغضبها)[٣].

والكلام كما نذهب إليه ليس تتمة لكلامها السابق، بل هو كما ذكرنا في موضع آخر هو الأصل الذي نهدت به الزهراء.. **«أنّى زحزحوها عن رواسي الرسالة، وقواعد النبوة، ومهبط الروح الأمين، والطبين**[٤] **بأمر الدنيا والدين؟»**.

بهذه البلاغة العربية الهادرة صرّحت بالسرّ المتين تجاه علي عليه السلام ليس لأنّه زوجها.. فالزهراء لا تصدر بحديثها الناصع عن عاطفةٍ أسرية أو عائلية.. بل لأنّ علياً ثبت بسيفه، وجلّى بنضاله وصياله، وعرف بزهده وورعه.. وعظم بأمانته وإخلاصه.. كيف لا؟ وقد شدّته في ذات الله ثوابت الرسالة وقواعد النبوة! ولكنّهم نقموا نكير سيفه.. وقلّة مبالاته بحتفه.. وشدّته في

(١) سورة يونس: ٣٥.

(٢) سورة هود: ٢٨.

(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٦/٢٣٣، وما بعدها.

(٤) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٦/٢٣٤.

ذات الله.. ولولا الائتمار به والتآمر عليه.. لكان بالموقع المعدّ له، ولسار بهم سيراً معتدلاً.. ولحملهم على المحجّة البيضاء، ولقرّبهم من الشريعة أشواطاً ليسوا ببالغيها إلاّ به.

وما كان عزل أمير المؤمنين عن القيادة للأمة بضائر له.. ولا بمعيب عليه.. وما على المرء أن يكون مظلوماً لا ظالماً؟.

وهنا تصكّهم الزهراء بالحجة الدامغة في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[1].

فالزهراء عليها السلام في هذا إنّما تريد أن تتبع مسألة ذات أهمية قصوى في قيادة الأمة شرعاً في ضوء ما صرّح به القرآن الكريم.. وهذه المسألة قد تكون غامضة في المستوى الاجتماعي العام.. وقد تكون مغمضاً عليها عند ولاة الأمر الجدد، وقد تكون واضحة لا غبار عليها عند القلّة من الثابتين.

وبهذا الاحتجاج تمكّنت الزهراء أن تقتلع المغالطات والشبهات الدائرة حول الموضوع حينما استندت على نصّ لا يأتيه الباطل في حالٍ من الأحوال.. وتلك محاجة تشريعية وعقلية بوقت واحد في دلالتها المركزية التي يتبادر إليها الفهم العام عند العرب، إذ التبادر علامة الحقيقة كما يقول أهل الأصول.

والهداية في الآية التي أشارات إليها الزهراء على نحوين:

---

(١) الطبين: الحاذق.

هداية بالأصالة، وهداية بالعارض.. ومقتضى الترجيح أن تتبع الهداية بالأصالة لا الهداية بالعارض؛ لأنّ الهداية الأولى نابعة من صميم النفس الإنسانية فهي ذاتية المصدر، والهداية الثانية ذات شقين في قوله عزّ وجل ﴿أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰ﴾: فالأول (لا يهدي) وهو متعلّق الآية الثابت، والثاني متعلقها أنّه يهدي بغيره، وهو (ألا أن يهدي) والمقارنة بينهما تقتضي إتباع الأول لا الثاني، وذلك إنّ الأول يهدي بنفسه ذاتياً فهو متبوع لا تابع، والثاني قد يُهدى، وقد لا يُهدى، أمّا انّه يهدى فبغيره، فهو إذن تابع لا يتّبع، وأمّا أن لا يُهدى أصلاً لتأصّل الضلال في ذاته، فلا إتباع له، ولا هو تابع لمن يحاول أن يهديه.

وإذ اتضح هذا فالهداية أمرٌ كلّيٌّ، كما أن عدم الهداية أمرٌ كلّي.. وهما معنيان متقابلان منطقياً، وهما قضيتان متلازمتان عقلياً؛ فالاهتداء إلى الحقّ يقابله عدم الاهتداء إلى الحق.. ويضاف إلى هذا التلازم أنّ الاهتداء يقترن أصالة بالهداية إلى الحق.. وضرورة الإتباع له أحقّ كما هو منطوق الآية؛ لأنّه قد اهتدى بنفسه لا بهداية غيره له، والاهتداء بالغير وعدم الهداية قد يقتضي التلازم من وجه، فالذي يهتدي بغيره ليس يهدي إلى الحقّ بل هو يُهدى إليه، وقد لا يهتدي أصلاً من تلقاء نفسه وباختياره عناداً، أو جهلاً أو كفراً أو شذوذاً.. مع إلقاء الحجة عليه.

قال السيد الطباطبائي ﷺ:

(الهداية إلى الحق يقابلها عدم الهداية إلى الحق، وعدم الاهتداء إلى

الحقّ يقابله الاهتداء إلى الحقّ.. فلازم هذه المقابلة بين الاهتداء بالغير وعدم الهداية إلى الحق، وكذا الملازمة بين الهداية إلى الحق والاهتداء بالذات، فالذي يهدي إلى الحقّ يجب أن يكون مهتدياً بنفسه لا بهداية غيره، والذي يهتدي بغيره ليس يهدي إلى الحقّ أبداً)[1].

وذلك أنّ الأول متبوع، والثاني تابع، ولا تصحّ عقلاً قيادة التابع للمتبوع، وبهذا يتمّ الاستدلال قرآنياً وعقلياً ومنطقياً للزهراء عليها السلام.. لأنّ دعواها في أصلها وجوهرها منتظمة في هذا الإطار لبيان هذه الحقيقة الكبرى التي لا يعارضها مسلم قطّ، وهي أنّ أمير المؤمنين عليه السلام يهدي إلى الحق بنفسه، وإذا كان كذلك فهو (أحقّ أن يتّبع) بنصّ القرآن الكريم.

(١) سورة يونس: ٣٥.

صدى خطبة الزهراء في النساء

استثمرت الزهراء عليها السلام فرصة عيادة نساء المهاجرين والأنصار لها، وهي في أخريات حياتها؛ فتحدّثت إليهنّ حديث القلب إلى القلب كما رأيت صراحة ووضوحاً وعائدية.. فلم تكن مجاملة في مراسيم اللقاء، ولم تكن صامتة حيث يجب القول النافذ.. بل بقيت صامدة كما كانت صابرة.. وظلّت ثائرة كما كانت منتهكة.. أدركت المشكلة الكبرى فنهضت بالتكاليف الملقاة على عاتقها.. وعظمت القضية في نظرها الدقيق فتعدّدت المواقف.. ولكلّ موقف حركيته الخاصة به.. والموقف في المسجد النبوي غيره في الدار، والحديث إلى عنصر الرجال غير الحديث إلى عنصر النساء.. لهذا ولغيره من الأجواء المحيطة بها، ظلّت مترصدة لما يجري، فهي تتحيّن المناسبة، ولا تدع ذلك يمرّ على رسله هادئاً رفيقاً، وهي أدرى بما تقدم عليه من آثار، وهي أعلم بما عليه وقع النكسة والنكوص على الأعقاب، والانقلاب الذي أدّى إليه هذا النكوص.. وما ترتّب على ذلك من الفرقة واختلاف كلمة الأمة، وفقدان المقاييس.

الزهراء وهي الرقيقة في التصرف.. النابضة بالطهر والمحبّة.. الندية

بعبق النبوة.. الذكية بشذا الإمامة.. تواصل المسؤولية التاريخية بصلابةٍ وقوّة.. وتدير شأن المعارضة بفتوّة وشجاعة.. وتتابع مسيرة الأمة بعزم وحزم.. وتتناول القضية بالدليل والبرهان..وتدخل المعركة في ضوء الإنذار لا الرقة.. وتباشر الجهاد السلمي في ظلّ الاحتجاج لا الموادعة، لم تمنعها رهافة الحسّ من كشف خيوط المؤامرة الكبرى.. ولم يحجبها ستر الحشمة والوقار عن مزاولة النزال بجنانٍ ثابت.. وأن تتفاعل مع الحدث بروح تعي المشكلات والتناقضات.. وأن تطلّ على نصف المجتمع بما هي أهلٌ له.

كان لقاؤها بنساء المهاجرين والأنصار كفيلاً بإعادة طرح مشروعها الضخم بأجلى صوره دون حذر، وعاملاً من عوامل الارتفاع بالمرأة إلى حيث ما ينتظرها من التأثير في صميم الوقائع.. وذلك مما ينبغي تلوينه في خطاب الزهراء باللون الصادق الصريح منزّهاً عن المواربة والاتكال.

إنّ براءة القلب وطهر الضمير، وعفّة اليد واللسان لا يقفان حائلاً دون الإصحار بما تضطمّ عليه من الشجاعة والآلام.. ولا يمنعان من إظهار العواطف الجيّاشة تجاه موضوع خطير جدّاً.. ولا نريد بهذا العواطف المنبعثة من ملحظ الحبّ والكراهية، وإنّما نريد تلك العواطف الموضوعية التي تغار على مصلحة الإسلام العليا في أدقّ المراحل وأكثرها جدلاً وحساسية.

كانت خطبة الزهراء في لقاء النساء تجسيداً لمنعطف القضية المركزية حذر أن يتداركها الانحراف.. ويغزوها الزيغ والجنف في مفازات الأفكار

المضادة.. وقد أبلغت الزهراء عليها السلام في ذلك إبلاغاً مزدوجاً للنساء والرجال معاً.

قال سويد بن غفلة، وهو يتحدّث عن جزء من هذا الملحظ من وجه.. ومن تأثير الخطبة من آخر.. ومؤرّخاً لها: (فأعادت النساء قولها على رجالهنّ.. فجاء إليها قومٌ من المهاجرين والأنصار معتذرين، وقالوا:

يا سيّدة النساء؛ لو كان أبو الحسن ذكر لنا هذا الأمر من قبل أن يبرم العهد.. ويحكم العقد لما عدلنا عنه إلى غيره!.

فقالت الزهراء: «**إليكم عنّي، فلا عذرَ بعد تعديركم.. ولا أمر بعد تقصيركم**»[1].

وكان هذا الرد رفضاً مريراً يحكي عن الواقع الأليم الذي وصل إليه المناخ الاجتماعي المتعثر.

وبطبيعة الحال فإنّه جواب مفحم.. أسقط ما في أيدي القوم لدى سماعه.. فبماذا يعتذرون؟ وماذا يقولون؟ لاذوا بالصمت الرهيب.. وقد بدت لهم شخصياتهم متواكلة.. وضمائرهم مهزوزة.. كيف لا؟ وقد اختنقت الأنفاس.. وتهافتت الأصوات.. وأيّ صوت يجرأ على لملمة الجراح وتدارك الثأر.. ولا مسرح للحوار.. ولا سبيل للمجادلة بغير الحق.. فهم أمام طود

(١) الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن: ١٠/٥٨.

شامخ من الإمكانات العالية في الردّ والجدال السليم.. وكادت تزلزل الأرض تحت الأقدام، لو كانوا يعقلون! وتبلغ القلوب الحناجر لو كانوا يفقهون!.

فلم يرغبوا أن يتبوءوا مقعد الكرامة.. وما شاءوا أن ينعموا بشاطيء الأمن، بل كان الإسفاف الرخيص ديدن الكلمات العاثرة.. والدرب مليء بأحجار التخلف والخنوع الاجتماعي.

فهؤلاء الرجال الذين أقحمتهم نساؤهم بهذا المسلك الوعر من الاعتذار المبتذل.. لم يكونوا أهلاً لحوار مقدّس يستنجد الوعي، ويحرّض على الاستنفار جزئياً أو كليّاً.. وإنّما هو التواكل والتخاذل شأن المترددين في كلّ زمان ومكان.. ولو كانوا أهلاً لما أظهرته الزهراء عليها السلام من الأسى والشجن، وما بثته من لواعج الأحزان.. لسال من جراحهم النزيف الذي لا يرقأ.. وأمتلك أفئدتهم التأنيب الذي لا يهدأ.. ولحاولوا التغيير قدر المستطاع.. ولعبروا عن الرفض ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً.. ولأظهروا الغضب لغضب الزهراء... ولكنّهم لم يفعلوا كلّ ذلك! والأسباب فيهم فاضحة تحكي عن مستوى الهبوط في الفكر والقدرة والتصرف.. فكأنّ الرسالة لم تكن.. والهداية لم تتمكن من القلوب..والخطّ الحضاري لم تمتد ظلاله إلى العمق.. والمسيرة تقترب من شفا جرفٍ هارٍ.. فيا لله وللمسلمين.

هذا الأفق الغائم في أشباحه المرعبة هو الذي دعا أمير المؤمنين أن يقول **«وطفقت أرتأي بين أن أصول بيدٍ جذّاء، أو أصبر على طخية عمياء، يهرم**

فيها الكبير، ويشيب فيها الصغير، ويكدح فيها مؤمن حتّى يلقى ربّه؛ فرأيت أنّ الصبر على هاتا أحجى، فصبرتُ وفي العين قذى، وفي الحلق شجا، أرى تراثي نهباً»(١).

ومهما يكن من أمرٍ فقد كانت خطبة الزهراء في النساء تتدفّق بالحيوية الثائرة.. وتتفجر بالبيان المجلجل الذي شقّ عنان السماء.. وكان صدى ذلك تأثيره على مجموعة الرجال والنساء متقارباً.. وكان هذا التأثير منطوياً على حيثية أثارت انتباه الرجال والنساء معاً.. فهي لم تتحدّث بشيء عن حقوقها المالية المهدورة.. ولم تشر إلى نحلة أو ميراث.. وإنّما دخلت فوراً في صميم الموضوع.. وتكلّمت مباشرة في صلب القضية الكبرى التي نذرت نفسها لها، وهي خلافة النبي صلى الله عليه وآله وسلم في منصب الولاية الإلهية.. وقد احتجّت لذلك بما أوجزته على النحو الآتي:

١ ـ تعنيف المهاجرين على ما بدر منهم في استبعاد الإمام علي عليه السلام عن خلافة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو ركن من أركان الرسالة منذ بزوغها حتّى التحاق النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالرفيق الأعلى.. وهو الوريث الشرعي لقواعد النبوة.. والبصير بأسرار الوحي.. والخبير الفطن الحاذق بأمور الدين والدنيا.. والقدير على إدارة شؤون الدولة.

٢ ـ وقد أشارت الزهراء عليها السلام إلى بواعث هذا الاستبعاد.. ودوافع هذا

(١) ظ: المؤلف، الإمام علي، سيرته وقيادته في ضوء المنهج التحليلي: ٣٦.

الاجتراء.. وأوعزته إلى ما نقموه من أبي الحسن عليه السلام من شدّة المراس بنكير سيفه في معارك الإسلام المصيرية في بدر، وأحد، والخندق، وخيبر، وبني قريظة، وذات السلاسل، وفتح مكة، وحنين.. وسوى ذلك، وسيفه المجرّد يقطر دماً من أوصال الطواغيت.. ورمحه يفري أوداج المشركين.. وإقدامه يزري بأحلام قريش.. وهو لا يبالي بحتفه أوقع على الموت أم وقع الموت عليه.. متنمراً في ذات الله لا يخشى بذلك لومة لائم.. مستقيماً لم ينحرف.. ومعتدلاً كالصعدة لم يتأوّد.

٣ ـ لم تغفل الزهراء عليها السلام في هذه الخطبة خصائص أمير المؤمنين التي تؤهله لقيادة الأمة وإدارة الدولة وحماية الرعية.. فلو مال المسلمون عن الجادة لردّهم إليها.. ولو زالوا عن قبول الحجة لحملهم عليها.. ذلك بما يمتلكه من القوة الخارقة والقدرة الصادعة.. والاستقامة في المنهج.. ولسار بهم سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الرشد والنصح الكريم.. ولاحتذى حذوه في سنّته.. ولطبّق الشريعة في مفاصلها.. فلا هدي عنده إلاّ هدي القرآن.. ولا تعليمات إلاّ تعليمات نبيّه الصادق الأمين.

٤ ـ استظهرت الزهراء في هذا الاحتجاج وهذه المقارنة كفاية الإمام الإدارية لو قدّر له أن يتسلّم زمام الأمر؛ فسيّره بأسجاح وإسماح لا عسر فيه ولا حرج، وشكيمته بين المرونة والصرامة دون شدّة قاسية، ولا اضطراب متزلزل.. فهو بين هذا وذاك في تقدير الأمور وإشاعة العدل.. وذلك ما

يستهوي به أفئدة المسلمين.. آمنين مطمئنين حتى الغاية القصوى التي تحقق عدالة السماء في الأرض.. فيوردهم بذلك النمير الصافي الروي ويصدرهم عن المنهل الفضفاض المتطامن الذي تطفح ضفتاه بالنقاء فلا قذًى ولا شوائب.. بل هو المورد العذب والنبع الزلال.. ولا رنق فيه ولا غصّة.. فيا له من موردٍ يصدرُ عنه المسلمون بطاناً.. وتفتح به لهم السماء بركاتها.

٥ ـ وعطفت الزهراء عليها السلام إلى استجلاء الطبيعة المسلكية للإمام عليه السلام فهو ينصح للمسلمين في السرّ والعلن.. وهو يواسيهم في المكاره والمحن، لا يحتجن لنفسه مالاً، ولا يحتجز دونهم طائلاً، زاهداً لا يحظى من الدنيا بنائل إلاّ ما يقتات به شظفاً لإقامة صلبه.. فعيشه الكفاف والزهد المتناهي.. وحياته القناعة والقوت البسيط.. عادلاً بين الرعية.. قاسماً بينهم بالسوية.. لئلا يزري بالفقير فقره، ولا يطغى الغني بوفره.. فالناس كلّهم لآدم، وآدم من تراب.

وكان هذا التشخيص من قبل الزهراء للإمام دقيقاً في جزئياته كافة.. وقد صدق حديث ذلك جملة وتفصيلاً لدى تولية قيادة الأمة بعد ربع قرن من الزمان.. فكأن الإسلام بعث من جديد.. والقرآن عاد غضّاً حيّاً ناطقاً.

٦ ـ وقد أنحت الزهراء في هذه الخطبة باللائمة على قريش في مبادرتها الخطيرة تجاه أهل بيت النبوة.. واستعظمت ابتزازها لمنصب خلافة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم استبداداً؛ دون الالتجاء إلى ركنٍ وثيق فيما أقدموا عليه.. ولا تعلّق

بحبل متين يتشبّثون به، وما ذلك إلاّ الأثرة، وحبّ السلطان، وحكم القبيلة.

وكانت جرأة على آل الرسول ﷺ في خطّة محكمةٍ الحلقات.. تجاهلوا معها الرأي الأخر.. واحتنكوا بعناد وإصرار ضدّهم.. وهم بذلك قد خسروا المعركة في النظر العقلي السليم، وإن تغلّبوا فعلاً بالسيطرة واللامبالاة، ولم يكن ذلك انتصاراً بالمعنى الإسلامي.. لأنّهم استبدلوا الذنابى بالقوادم، والعجز بالكاهل.. وقد حسبوا أنّهم يحسنون بذلك صنعاً.. وليس الأمر كذلك.. وقد دلّت الأحداث المتعاقبة على صدق قول الزهراء فيما بعد.

٧- ولخصت الزهراء بإمعانٍ عالٍ ما ينتظر الأمة من الفتن وسفك الدماء واستيلاء الفوضى وتردّي الأوضاع.. فلا الحقوق مصونة من الإغارة، ولا الحرمات في ذمام من الهتك، ولا الأحكام وفق الموازين في عدالة اجتماعية.. وإنما هو السيف القاطع وسيلان الدم.. والسطوة القاتلة في ظلّ المعتدي الغاشم.. والهرج الدائم الاستمراري، واستبداد الظالمين في كلّ شيء.. وقد حدث كلّ هذا فعلاً وفوق هذا.. فالفيء زهيد، والجمع حصيد.. وقد منعت السماء قطرها، والأرض بركاتها؛ فكانت الحسرات متلاحقة في الصدور، والآهات مترادفة من الأعماق، والنوازل متتالية في الوقوع.. حيث لا تنفع الحسرة، ولا تجدي الندامة.. وقد عمّيت عليهم من كلّ الجهات، فهم في ظلماتٍ يغشى بعضها بعضاً.

وكأنّ الزهراء كانت تنظر إلى الغيب الأدنى والأقصى، وتقرأ ما وراء

الأحداث على طول التاريخ وامتداده.. فتنقل الحكم على مدى الأزمان من أثرةٍ مسيطرةٍ إلى ملك عضوض.. ومن ملك إلى إمارات ودويلات.. ومنها إلى شتاتٍ وتمزّق.. فبكلّ صقعٍ واعية.. وبكلّ قطر داعية.. فكانت الفرقة وانفصمت عرى الوحدة.. وبقيت الدماء تستدعي الدماء وحتّى اليوم.. ووقع ما توقّعته الزهراء من الانحدار في الهاوية.

وكان لهذه الخطبة على وجازتها صدَى في الآفاق، ولبلاغتها وقعٌ في القلوب.. وفي لغة احتجاجها المشرقة أثر ظاهر في شحذ الهمم واستثارة العواطف.

ولم تكن هذه الخطبة اعتباطية المنشأ، ولا عاطفية المصدر، بل كانت تنزع عن احتجاج صارخ لقضية مشروعة.. ولكنّها في لغة القوم مقاومة صادعة.. وهي معارضة عارمة في المنظور السياسي.. وقد عزّ على الشيخين هذا المنحى، فأرادوا امتصاص النقمة بتدارك الأمر عسى أن تعود المياه إلى مجاريها كما يقال؛ فتشاوروا فيما بينهما، وأجالا الفكر في مخرج من هذه النكبة، فقرّ الرأي أن ينطلقا إلى عيادة الزهراء عليها السلام عسى أن تضرب صفحاً عمّا جرى، أو أو تغضي شيئاً ما عمّا حدّث، وإن لم ترضَ كلّ الرضا فبعض الرضا.. وعلما أنّ الباب موصد من قبل الزهراء ولا سبيل إلى فتحه إلاّ أن عن طريق الإمام علي عليه السلام، فساروا إليه.. واتجها نحو بيتها.. وهو قريب من مقرّهما في المسجد، ولا يبعد إلاّ بضعة أمتار.. وكانا قد استئذنا عليها فجوبها بالردّ، فما

كان منهما إلاّ أن ذهبا إلى أمير المؤمنين يستعطفانه في الإذن.. وتلبية طلبهما بإلحافٍ! فأعطاهما ذلك وهو المعروف بحيائه ورقّته إلى جنب قوّته وشجاعته.. والموصوف بمرونته وصفائه إلى جنب شدّته وإبائه.. وهو ذو القلب الكبير الذي وسع الدنيا وأشغل الناس.. وقد أبت له مكوناته النفسية المثلى أن يردّهما ويرفضهما.. فاستجاب لهما.. ولعلّه أراد إلقاء الحجة عليهما! ما يدرينا؟.

وفاوض الزهراء بذلك وعرض الأمر عليها؛ فقالت: «**البيت بيتك.. والحرّة زوجتك**».

فطار الشيخان فرحاً بهذا الإذن.. ولكنّه جاء بعد فوات الأوان، فالزهراء عليها السلام في النزع الأخير من حياتها.

وقد مرّ تفصيل هذا المشهد في موقعه من البحث.

اعتزال الزهراء

في ضوء دليل الاستقراء التاريخي وظل البداهة العقلية؛ تتجلّى حقيقة أنّ الزهراء عليها السلام كانت محقّة فيما أثارت من إشكاليات مع السلطان.. وكانت محقّة أيضاً فيما أظهرت من ظلامة.. وكانت رصينة فيما طالبت به من حقوق.. وكانت موفقة فيما عرضت له في شأن الولاية الإلهية.

قد يقال إنّ دوافع هذا الحكم في هذه المفردات الضخمة عاطفية الهوى.. إلاّ إنّ البحث العلمي المتوازن يأبى هذا القول.. وهو كفيل بقراءة الأحداث قراءة فاحصة لا لبس فيها ولا غموض من جهة.. ولا مغالاة أو مداجاة من جهة أخرى؛ وإثبات ما قرّره البحث منتزع من ظواهر مهمة بعيدة كلّ البعد عن المبالغة والإدعاء وجزاف القول؛ وأبرزها:

١ ـ ما عرفت به الزهراء عليها السلام من القداسة والتورع في ذات الله تعالى؛ فهي أبرّ وأوفى من أن تدعي ما ليس بحقّ.. ولم تكن لتخالف أباها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيما جاء به من سنن وفروض وتعليمات.. ولم تكن متظلمةً باطلاً ولا معارضةً اعتسافاً.. فهي أتقى من هذا كلّه.. وهي أرفع من المخاصمة بالباطل إطلاقاً.. وهي أزهد بحطام الدنيا مما يظنّ، قلّ ذلك الحطام أو كثر.. ولكنّها

كما هو الأصل صاحبة قضية فوق العادة كما رأيت.. وكونها فوق العادة باعتبارها قضية جريئة مبدأية تجهز على الحكم وقرار السقيفة وكبرياء قريش.

٢ ـ لو كان هناك أدنى شبهة فيما عرضت.. وأبسط خلّة فيما أقدمت عليه وقد نبّهت الغفوة المتعمدة وأثارت العواطف والأحاسيس لكان علي عليه السلام وهو أعلم الناس بالقرآن والسنة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأفقههم وأفضلهم وأقضاهم.. ويدور مع الحقّ حيثما دار.. ويدور معه الحقّ كذلك.. لكان عليه السلام قد أبان للزهراء وجهة النظر شرعاً وحكم السماء في دعواها.. ولكننا وجدنا أمير المؤمنين قد ساندها وأيّدها ووافقها بكلّ ما قالت وعرضت وطرحت.. فعُلِمَ بالضرورة صحّة ما أظهرت، وصدق ما ادّعت.. بل رأى البحث أكثر من هذا إذ كان أمير المؤمنين عليه السلام يشجّعها من الأعماق؛ ويقف وراء تحرّكها النابض بالوعي الرسالي.

«**وعلي مع الحق؛ والحق مع علي**» كما في الحديث المتواتر!.

٣ ـ ثبت للبحث بروح مجرّدة أنّ الظلامة بمجموعها التي أثارتها الزهراء كانت مشتركة بين علي والزهراء!.

فالزهراء جرّدت من حقوقها المالية جملةً وتفصيلاً.. وجرد عليٌّ من شؤونه القيادية جملةً وتفصيلاً.. فعادا فرسي رهان في الشكوى، ورضيعي لبانٍ في المأساة!.

ومع هذا كلّه؛ فما اتخذ الاثنان موقف المتخاذل عن الطلب، ولا مالا إلى الهدوء والسكون؛ ولا جنحا إلى المسالمة والإذعان.. بل سلكا طريقاً صعبة.. وعبّدا محجة العمل الدؤوب قدر المستطاع. فعليٌّ عليه السلام لم يبايع طيلة حياة الزهراء، وبقي رافضاً لذلك، يناظر ويجادل ويستقلّ بالرأي.. مع شدّة الوطأة.. وعظيم الصولة.. والتهديد بالقتل!.

والزهراء تحتج بأبلغ مشاهد الاحتجاج.. تستعدي المسلمين تارةً.. وتخترق مجتمعهم العائلي تارة أخرى.. فتألّب النساء والرجال معاً.. وتتناول مركز القيادة البديلة بالشكوى المريرة.. وتصكّه بالمجابهة والرفض بما أوتيت من قوّة في البيان وبلاغة في الأداء، وبما سيّرت من دلائل وبراهين، وما قدّمت من بينات وشهود.

هذه الفقرات تثبت دون شكّ انّ الزهراء عليها السلام كانت بسبيل مستقيم فيما قامت به، وسعت إليه.

ولا غرابة بعد هذا أن نجد الزهراء عليها السلام قد أعذرت فيما حاججت به أبا بكر رضي الله عنه بخاصة.. بل جعلته يغصُّ بريقه، ويتعثّر بمعاذيره، فاخترع كما يقول أستاذنا العظيم الدكتور طه حسين حديث (نحن معاشر الأنبياء لا نورّث، ما تركناه صدقة)(١).

وهو خبر آحاد لا يفيد علماً ولا عملاً كما يقرّر الفقهاء.

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١/١٥١.

ومهما يكن من أمرٍ فقد لفتت الزهراء عليها السلام النظر العام في حقيقة المظلومية الكبرى! إذا اقتحمت المسجد النبوي في تمام الأهبة، فخطبت وأبلغت وتمثلت القرآن الكريم، واحتجّت، وحرّضت، واستصرخت، وأبلت بلاءً حسناً، دفاعاً عن الحقّ، وإرضاء للضمير، وصيانة لمعالم الدين، وهي أعلا جانباً؛ وأطيب نفساً وأكرم محتداً من أن تجنح للكلام جدلاً.. وبين يديها المحجّة البيضاء.

وكانت شكوى الزهراء تشقُّ طريقها إلى قلوب المؤمنين في كلّ محاورها الأساسية: خطبة المسجد النبوي، وخطبة النساء؛ ونشاطها الاجتماعي الآخر!.

وأخيراً اعتزلت حياة القوم.. بعد أن قامت بواجبها على أكمل وجه.. وبقيت غضبى في منزلها.. تنتابها العلل والأمراض.. والتزمت الحزن والبكاء.. الحزن على ما أصابها من تجاوزات خطيرة؛ والبكاء على أبيها.. وقد شاع صدى ذلك بين الناس.

وقد أثار اعتزال الزهراء وانقطاعها في أخريات أيامها جدلاً مكثّفاً بين طبقات الأمّة، وافترقوا في ذلك شيعاً ومذاهب: بين ناقم على القوم.. وبين عاذل لهم، وبين متحيّز ومتردد.. وبين صامت لا يعلم ما اضطمّ عليه صدره!.

وكان أكثر الأمة أسفاً السابقون الأولون إلى الإيمان والهجرة.. وهم قلّة لا تستطيع أمراً.. ولا حول لها ولا قوّة.. وكان الأنصار، وقد أخفق مرشحهم سعد

بن عبادة يميلون فيما يقولون إلى علي عليه السلام . . وماذا فعل ذلك الميل وقد داهمهم الزمن بسرعة مذهلة . . فأحبكت الأمور بما لا تشتهيه سفنهم . . أما علي عليه السلام وبنو هاشم، وأفراد من أوليائهم؛ فهم المستضعفون في الأرض . . ولا يغني بعضهم عن بعض شيئاً . . وكان أمير المؤمنين عليه السلام ينظر للأمر برعاية خاصة وعناية أعمق . . فهو أولى من يحافظ على وحدة الأمة . . وقد حاذر أن تلتهمها داهية دهماء . . وأن يرتدّ فريق من الأعراب . . وأن يذهب جهاد رسول الله وجهوده سدًى . . فعالج الأمر بحكمة وتوأدة وأناة . . فخفّف ما استطاع من آلام الزهراء . . ولم يبايع طيلة حياتها . . صابراً محتسباً متكلاً على الله في أمره .

ومهما يكن من أمرٍ فإنّ اعتزال الزهراء غاضبة مغضبة . . وعزلتها فريدة وحيدة، وكان ذلك كما يرى الأستاذ السيد جعفر مرتضى العاملي: مما يقضّ (مضاجع الحكام . . وكان سيربكهم إلى درجة كبيرة وخطيرة، وسيندم الكثيرون على ما فرط منهم من تقصير في حقّها عليها السلام . . لأنّ بكاءها ومرارتها وحزنها يوقظ الضمائر ويثير المشاعر ويهيّج بلابل الناس . . وللناس عواطفهم وأحاسيسهم، وسيضعف ذلك من سلطة الحكّام ونفوذهم، وهم إنّما يحكمون الناس باسم أبيها)[1] .

وكان بكاء الزهراء مع انعزالها يمثّل نكيراً سياسياً وإسلامياً فاعلاً . . ويجسّد مظلومية أهل البيت عليهم السلام . . إذ لم يكن اعتيادياً على الإطلاق فيما

---

(١) ظ: د. محمد الدسوقي، أيام مع طه حسين: ١٢٨، المؤلف، هكذا رأيتهم: ٦٢.

أدركوه.. واعتبروه حركة منظّمة تصطفُّ إلى جنب النكير القولي في الخطب والاحتجاج.. ورأوا بكلّ فظاظة أن يفاتحوا أمير المؤمنين بالأمر.. وفاتحوه طالبين منه أن يخيّر الزهراء في البكاء.. إمّا أن تبكي ليلاً.. وإمّا أن تبكي نهاراً... فبنى لها بيت الأحزان في بقيع الغرقد..))(١).

وكان وراء هذا الأمر احتراز سياسي فيما ارتأوه.. فالمسجد النبوي بالفعل هو مقرّ الخلافة الجديدة.. وفيه إدارتهم وشؤونهم وقراراتهم.. وفيه المنبر الشريف الذي تصدر الأوامر من خلاله.. والمسلمون بين سامع ومطيع.. أو بين متحفّظ ومعترض، وهم بين الصلاة والدعاء والتجمع.. وما بينهم وبين بيت علي والزهراء إلاّ خطوات معدودة.. فهو إلى جنب بيت النبي ﷺ الذي دفن فيه، وكان ﷺ قد أمر بغلق الأبواب كافة التي تؤدّي إلى المسجد إلاّ باب علي والزهراء.

وفي مثل هذه الحالة كان اعتزال الزهراء مثابرة على ندبة النبي ﷺ وظاهرة الحزن والبكاء.. يشكّلان عملاً ذا بالٍ في يقظة المسلمين بل في إيقاظهم من الغفلة أو التغافل.. وقد ينتهون إلى فحوى الظلامة التي تناضل من أجلها الزهراء جهاراً.. هذا والنبيّ ﷺ في أول أيام التحاقه بالرفيق الأعلى، والمسلمون في حالة نفير عام بالالتحاق بالمسجد النبوي.. يستمعون وينظرون ويشاهدون طبيعة الحدث تلو الحدث.. ويراقبون الأمر بعد الأمر..

(١) جعفر مرتضى العاملي، مأساة: ١/٣٤١.

وأهم من ذلك في نظر ذوي العقول النيّرة هذا الدويّ الهائل الذي أحدثته الزهراء على المستوى الاجتماعي.. مما يعني شدة الوقع .. ويبقي بالغ الأثر.. وقد تتوتر النفوس انتقاماً.. وقد تثور الأحاسيس استفزازاً.. وهذا ما يؤرّق المتحكمين!.

وكلّ هذا يؤكّد أنّ عزلة الزهراء لم تكن حدثاً سلبياً بإلقاء الحبل على الغارب.. بل كانت نموذجاً إيجابياً في مقاومة صامتة من وجه، وناطقة من وجهٍ آخر.. وكان الصمت يضاف إلى آلاف الألسن الصامتة رهبةً أو دعة.. وكان النطق يضاف إلى قليل من الأصوات الرافضة.

وقد ظمئت الحقيقة في سراب من الحيرة والظلمات.. وكان لا بدّ لها من الارتواء في معين لا ينضب من الانفراج الباهر، وكان هذا الانفراج خاطفاً كحدّ السيف لدى الانقضاض.. شامخاً كالطود الأشم في الرفعة.. متلألأً كالفجر الوادع في الطلعة.. إنّه أنين الزهراء الشجي.. متواصلاً متلاحقاً.. خفيّاً تارة.. وعلنياً تارةً أخرى.. ولكنّه لم يكن تائهاً في صحراء.. ولا حائراً في مفازة.. بل كان شاخصاً أمام النواظر.. وماثلاً بين الناس.. يتوهّج في ألم.. ويترقرق في حنين.. ويصوّر القضية بعمق.. وكلّ أولئك ملحظ إيجابي؛ وتوجّهٌ اجتماعي حاكى مرارة العزل السياسي.. فأدان الحاكمين؛ واختطّ لنفسه خطةً ذات وجهين متقابلين:

١ ـ أزيز الجهاد الهامس في صمت معبّر.

٢ ـ وهدير من النكير كان عاصفة ترتفع إلى مستوى الأعاصير.. صكّت بهما جباه المتصدرين.. وزعزعت كثيراً من الأحلام.. وأيقظت كثيراً من الأجفان السارحة في غفواتها.. ونبّهت الحاكمين أن العنفوان قد يجلجل في صوته بصمت رهيب.

الزهراء بين المرض والشهادة

تناثرت ورود ذلك الحقل الأهيف.. وجفّت تلك الزهرة اليانعة.. وذبلت أغصانها الوارفة.. وذوت تلك الأسارير المتفتحة.. وبدا على ذلك الوجه شحوب الطلعة.. وران على ذلك المحيا الطلق رهج الأيام العجاف.. واختلست الزهراء بين عشية وضحاها.. فالفجر كئيب.. والصباح يحتجب.. والضوء اللامع يتخافت!.

ولِمَ لا.. والكرامة قد امتهنت، والعزة قد أغصبت، والملكية قد انتزعت، والحقوق قد اغتصبت، والخلافة بين هنّ وهنّ؛ والمكاسب يغنمها الأبعدون، ويستبعد عنها الأقربون.. والرسالة بعدُ لم تتمكن من النفوس!.

وفوق هذا كلّه.. انفجار الحقد الأعمى، وتدافع التيار المضاد، وصولة الاعتداء الأثيم.. فالوديعة قد استهدفت.. والأمانة قد استبيحت.. لا عناية فتذكر، ولا رعاية فتشكر حتّى انهارت صحّتها.. وتداعى جسمها.. واخترم شبابها.. وإذا بريحانة رسول الله ﷺ طريحة فراش، وضجيعة متكأ، تنتابها برحاء المرض، وتفنيها قسوة الوجع، وتودي بنضارتها لوعة الظلم والأسى، وتخنق أنفاسها مرارة الألم.. حتّى قرب أجلها، ودنا رحيلها؛ وهي معصوبة

الرأس.. ناحلة الجسم.. منهدّة القوى.. يخشى عليها ساعة بعد ساعة.. والجرح برسول الله ﷺ بعد لم يندمل!.

وكان ما ألمّ بالزهراء من المصائب والمحنّ يحزّ في نفسها.. وما قاسته من انصداع في القلب وانكسار في الأعماق لا تجد عنه متنفساً، ولا تبرح عنه مهرباً.. فهو جاثم لا يفارقها.. ومقيمٌ لا يبارحها.. وكان ما نجم في شتات ذلك ومجموعه.. من محاججة ومخاصمة واستدراج؛ مما أباحت به ومما لم تبح؛ ومما ذكرناه ومما لم نذكره؛ قد غمر كيانها برسيس من الجوى لم يستكن.. فهو يحشرج في الصدور، ويغلي بالفوران.. فبدا عليها الكمد سافراً بغير قناع.. والحزن مسيطراً دون رتاج.. وهي غضبى والهة بلا ريب.

وكان توالي هذه الأزمات، وظهور تلك الأمارات نذيراً باستقبالها الموت بصدرٍ رحب، وعزم وثبات لا نظير لهما.. لأنّها على علم مسبق بدنو الأجل.. فالرسول الأعظم ﷺ أخبرها عند وفاته قائلاً: «**إنّك أول من يلحقني من أهل بيتي، أنت سيّدة نساء أهل الجنة...**»[١].

وتشير جملة من الروايات أنّ الروح الأمين جبرئيل عليه السلام لدى انضمامه إلى الرسول الأعظم ﷺ واجتماع النبي ﷺ بأهل بيته، وهم أهل الكساء.. قد أخبر النبي ﷺ بما يجري عليهم.. وقال فيما يخصّ الزهراء عليها السلام: «**أما ابنتك فهي أول أهلك لحاقاً بك، بعد أن تظلم، ويؤخذ حقّها...**»[٢].

(١) ظ: المجلسي، بحار الأنوار: ٤٣/ ١٧٤، وانظر مصادرها.

(٢) سليم بن قيس، كتاب سليم: ٢/ ٩٠٧، وعشرات المصادر.

ومن هذا المنطلق تضافرت الروايات أنّ الزهراء عليها السلام لمّا حضرتها الوفاة استدعت علياً عليه السلام وقالت له: «**إمّا أن تضمن؟ وإلاّ أوصيت إلى الزبير!**.

فقال علي عليه السلام: **أنا أضمن وصيّتك يا بنت محمد.**

قالت: **سألتك بحقّ رسول الله إذا أنا متّ.. لا يشهداني، ولا يصليا عليّ**»، قال: فلكِ ذلك[1].

وكانت هذه الوصية بمثابة الصاعقة على رؤوس صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله من المهاجرين والأنصار.. فهؤلاء الذين هاجروا مع النبي صلى الله عليه وآله وهم يحملون الرسالة! وأولئك الذين آووا وحاموا وتبوأوا دار الإيمان من الأنصار.. لا يشهدون جنازة بنت محمد صاحب الرسالة، ولا يصلّون عليها.. ولك أن يذهب بك تفسير هذه الظاهرة لدى حدوثها كلّ مذهب! ولك أن تستوحي من خلالها مدى الوجد والكمد الذي حمّلت به الزهراء.

وظاهر أن الزهراء قد أكدت هذه الوصية بوصايا أخر عند استشهادها.. فقد جاء في إحداها قولها لأمير المؤمنين: «**إذا أنا متّ؛ فغسّلني بيدك، وحنّطني وكفّني؛ وادفنّي ليلاً؛ ولا يشهدني فلان وفلان..**»[2].

أما سبب استشهادها.. فمما جرى عليها بين الحائط والباب مما هو معروف.. ويعود جزء منه إلى ما أقدم عليه أحدهم حينما لكزها بنعل

(١) المجلسي، بحار الأنوار: ٩٨/٤٤، وانظر مصادره.
(٢) المفيد، الاختصاص: ١٨٥.

السيف.. وفي ذلك رواية صحيحة السند عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام فيه، وفي سواه قائلاً: «**فأسقطت، ومرضت من ذلك مرضاً شديداً.. ولم تدعْ أحداً ممن آذاها يدخل عليها**»[1].

وقد جاء هذا الإسقاط بعد سلسلةٍ من المآسي التي تعرّضت لها الزهراء قسراً وقهراً، أحاول إجمالها ببعض مصادرها لا كلّها، فهي تفوق على الألف مصدر.. ولا سبيل إلى ذكرها كلّها:

١ ـ الهجوم على بيت الزهراء عليها السلام وإحراقه[2].

٢ ـ ضرب الزهراء عليها السلام منفرداً ومتعدّداً[3].

٣ ـ إسقاط المحسن فيما جرى بين الحائط والباب[4].

٤ ـ كسر ضلع الزهراء عليها السلام[5].

---

(١) الشيخ الصدوق، الأمالي: ٥٢٣، المجلسي، بحار الأنوار: ٣٩/٨١، وانظر ما بعدها.

(٢) الطبري، دلائل الإمامة: ٤٥.

(٣) المسعودي إثبات الوصية: ١٤٣، المرتضى، الشافي: ٧٦/٣، الميرجهاني، نوائب الدهور: ١٩٢، نهج الحقّ، العلامة الحلي: ٢٧١، كشف الغطاء، جعفر كاشف الغطاء: ١٨، وعشرات المصادر.

(٤) الصدوق، الأمالي: ١٠١، العياشي، التفسير: ٢/ ٣٠٧، ابن قولويه، كامل الزيارات: ٣٣٢، القاضي عبد الجبار، المغني: ٣٣٥/٢٠، المقريزي، الخطط: ٣٤٦/٢، المفيد، الاختصاص: ١٨٤، الحر العاملي، إثبات الهداة: ١٨٠/١، الشهرستاني، الملل والنحل: ٥٧/١، عمر رضا كحالة، أعلام النساء: ١٢٤/٤، الحمويني الجويني، فرائد السمطين: ٣٤/٢، الطبرسي، الاحتجاج: ٢١٠/١، ٢١٦، ٤١٤، وعشرات المصادر الأخرى.

(٥) الشهرستاني، الملل والنحل: ٥٧/١، المسعودي إثبات الوصية: ١٤٣، شرح نهج البلاغة: ٦٠/٢، الصفدي، الوافي بالوفيات: ١٧/٦، الصدوق، الأمالي: ٩٩- ١٠١، البحراني، الحدائق الناضرة:

هذه الحوادث بمجموعها هي التي أدّت إلى استشهاد الزهراء عليها السلام إذ لم تكن وفاتها طبيعية على الإطلاق، وهناك عشرات المصادر المعتبرة التي عبّرت عن الزهراء عليها السلام بأنّها شهيدة[1].

هذا كلّه مما دعا الزهراء إلى القول صراحة: «**فهذه أمّة تصلّي عليّ؟ وقد تبرأ الله ورسوله منهم وتبرأت منهم**»[2].

وإذا صدر هذا القول عن الزهراء عليها السلام وهي الصديقة المبرأة؛ فما علينا إلاّ التصديق!.

قال الشيخ الطوسي (ت ٤٦٠هـ):

(ومما أنكر عليهم ضربهم لفاطمة عليها السلام، وقد روي أنّهم ضربوها بالسياط.

والمشهور الذي لا خلاف فيه بين الشيعة أنّ (فلاناً) ضرب على بطنها حتّى أسقطت، فسميّ السقط محسناً، والرواية بذلك مشهورة عندهم، وما أرادوا من إحراق البيت عليها حين التجأ إليها قوم، وامتنعوا من بيعته، فليس

٥/١٨٠، المجلسي، بحار الأنوار في خمسة وثلاثين مورداً.. وعشرات المصادر الأخرى.

(١) الحمويني الجويني، فرائد السمطين: ٣٥/٢، والصدوق، الأمالي: ١٠١، و سليم بن قيس، كتاب سليم: ٥٨٦، ٥٩٤، ٩٠٧، وابن شاذان، الفضائل: ١١/٨، والكفعمي، المصباح: ٥٥٣، والديلمي، إرشاد القلوب: ٢٩٥، والحر العاملي: إثبات الهداة: ١/ ٢٨٠، وعشرات المصادر الأخرى.

(٢) ظ: الشيخ المفيد، المزار: ٣٣٥، المقنعة: ٤٥٩، ابن قولويه، كامل الزيارات: ٣٣٥، الصدوق، من لا يحضره الفقيه: ٢/ ٥٧٤، الكليني، الكافي: ٤٥٨/١، وعشرات المصادر الأخرى.

لأحدٍ أن ينكر الرواية بذلك، لأنّا قد بينّا أن الرواية الواردة من جهة العامة من طريق البلاذري وغيره، ورواية الشيعة مستفيضة به، لا يختلفون في ذلك)[١].

وقد أيّد ذلك فقيد الشرق الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء (ت ١٣٧٣هـ) قائلاً:

(وطفحت واستفاضت كتب الشيعة من صدر الإسلام والقرن الأول.. إلى القرن الحادي عشر وما بعده، بل إلى يومنا هذا.. كلّ كتب الشيعة التي عنيت بأحوال الأئمة وأبيهم الآية الكبرى، وأمهم الصديقة الطاهرة.. وأطبقت كلماتهم تقريباً أو تحقيقاً في ذكر مصائب الزهراء.. أنّها بعد رحلة أبيها المصطفى: ضرب الظالمون وجهها، ولطموا خدّها.. حتّى احمرّت عينها، وتناثر قرطها.. وعصرت بالباب حتّى كسر ضلعها، وأسقطت جنينها.. وماتت، وفي عضدها كالدملج)[٢].

وينبغي أن نشير هنا أن سماحة الأخ العلامة المحقق السيد جعفر مرتضى العاملي دام علاه -.. قد تتبع هذه المظالم في كتب الجمهور والإمامية والخوارج والمعتزلة وأهل الظاهر، وعلماء الأخبار والسنة والرواية ممن تعتمد أحاديثهم ورواياتهم فهم كاتبو التاريخ، وأرباب الصناعة والفن، فكانت

(١) المجلسي، بحار الأنوار: ٣٤٨/٣٠، وانظر ما بعدها.
(٢) الطوسي، تلخيص الشافي: ١٥٦/٣.

بالضبط: ثلاثمائة وستة وأربعين مصدراً وكتاباً ومؤلّفاً.. وقد يتكرر بعضها بحسب ما جرى على الزهراء من المآسي[١].

إنّ هذه المصادر في كثرتها في دنيا الإسلام غير قابلة للرفض بمجموعها.. وقد تصدّر بإثباتها مراجع الخاص والعام وأساطين الأمة من ذوي الأسماء اللامعة، والصحاح المسندة والأطاريح.

ومهما يكن من أمرٍ.. فقد استشهدت الزهراء عليها السلام جراء هذه الاعتداءات.. وذهبت شهيدة عظمتها وجهادها في سبيل عزّة الإسلام، وكرامة الإنسان، وصدق الكلمة، وإرساء قواعد الرسالة، ونصرة أمير المؤمنين عليه السلام.

وقد نفّذ أمير المؤمنين وصية الزهراء بحذافيرها!.

«فلمّا جنّ الليل غسّلها عليّ، ووضعها على السرير.. وقال للحسن: ادعُ لي أبا ذرّ رضي الله عنه فدعاه، فحملاه إلى المصلّى فصلّى عليها.. ثمّ صلّى ركعتين، ورفع يديه إلى السماء، **فنادى: هذه بنت نبيك؛ أخْرجْتَها من الظلمات إلى النور**»[٢].

ويبدو أن أمير المؤمنين عليه السلام دفنها في حجرتها التي هي بيته وبيتها بجوار النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

(١) محمد الحسين آل كاسف الغطاء: جنّة المأوى: ٧٨.

(٢) ظ، جعفر مرتضى العاملي، مأساة الزهراء: ٣٢٥حتى ٣٥٨.

وعلى هذا فقبر الزهراء عليها السلام في جوار قبر رسول الله • ص) وقد زرتها من هناك؛ فما جلب انتباه الموكّلين بذلك! وقد ألحفوا بالسؤال عن ذلك! فأخبرتهم أنّي أردت مشاهدة بيت الزهراء عليها السلام، فما حاروا جواباً!.

ويؤكد هذا الملحظ في النظر العلمي أن علياً عليه السلام دفنها سرّاً وليلاً تنفيذاً لوصية الزهراء.. وعمّى قبرها، ولم يعلم أحداً من القوم بموضع القبر الشريف!.

وفي صباح اليوم التالي أقبل أهل المدينة يزمّون.. وهم يريدون حضور جنازتها.. وفيهم بعض الصحابة، فخرج إليهم عليّ عليه السلام، وكان السؤال من قبلهم: ما فعلتَ بابنة محمد؟ أخذت بجهازها يا أبا الحسن؟.

فقال عليّ عليه السلام: قد والله دفنتها!.

قالوا: فما حملك على أن دفنتها، ولم تعلمنا بموتها؟.

قال: هي أمرتني!.

فقال أحدهم: والله لقد هممت بنبشها! والصلاة عليها!.

فقال علي عليه السلام «**أما والله ما دام قلبي بين جوانحي، وذو الفقار في يدي، إنّك لا تصل إلى نبشها! وأنت أعلم**»، فقال أحدهم: اذهب فإنّه أحقّ بها منّا.. وانصرف الناس[1].

---

(١) المجلسي، بحار الأنوار: ٤٣/٢١٣، وانظر ما بعدها.

قال ابن النجار (وبيت فاطمة اليوم حوله مقصورة فيه محراب، وهو خلف حجرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم[١].

وليس هناك ما يمنع أمير المؤمنين في داره، ودار أمير المؤمنين في المربعة التي في القبر اليوم، فقد اسند أبو غسّان، كما أخرج ابن أبي شيبة عن سليمان بن سالم عن مسلم بن أبي مريم؛ قال سليمان، وقال مسلم معاً:

(لا تنسَ حظّك من الصلاة إليها، فإنّه باب فاطمة الذي كان عليٌّ يدخل إليها منه، وقد رأيت حسن بن زيد يصلّي إليها)[٢].

وقد أسند ابن زبالة ويحيى عن سليمان بن سالم عن مسلم بن أبي مريم وغيرهم أنّه: (كان باب فاطمة بنت رسول الله في المربعة في القبر)[٣].

وهذا يؤكد أنّ الزهراء عليها السلام دفنت في حجرتها عند أبيها... ويؤيده ما روي عن أمير المؤمنين أنه قال عند دفن الزهراء عليها السلام متوجّهاً إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الحال: «**وستنبئك ابنتك بتضافر أمّتك على هضمها! فأحفها السؤال؛ واستخبرها الحال! فكم من غليل معتلج بصدرها لم تجد إلى بثّه سبيلاً**»[٤].

وهناك رواية تقول إنّها دفنت في البقيع، وإن أمير المؤمنين عليه السلام تولّى

(١) ظ: المفيد، الاختصاص: ١٨٥، المجلسي، بحار الأنوار: ٢٩/١٩٢.
(٢) السمهودي، وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى: ٢/٤٦٩.
(٣) السمهودي، وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى: ٢/٤٦٧.
(٤) المصدر نفسه: ٢/٤٥٠.

غسلها وتكفينها سرّاً! وإنّه (أخرجها ومعه الحسن والحسين في الليل وصلّوا عليها، ولم يعلم بها أحد، ودفنها في البقيع، وجدّد أربعين قبراً!.

فاستشكل على الناس قبرها، فأصبح الناس ولام بعضهم بعضاً؛ وقالوا: إنّ نبينا صلى الله عليه وآله خلّف لنا بنتاً! ولم نحضر وفاتها، والصلاة عليها ودفنها، ولا نعرف قبرها فنزورها! فقال من تولّى الأمر:

(هاتوا نساء المسلمين من ينبش هذه القبور.. حتى نجد فاطمة عليها السلام فنصلّي عليها، ونزور قبرها! فبلغ ذلك أمير المؤمنين عليه السلام فخرج مغضباً، وقد احمرّت عيناه، وقد تقلّد سيفه ذا الفقار حتّى بلغ البقيع وقد اجتمعوا فيه، فقال عليه السلام: «**لو نبشتم قبراً من هذه القبور لوضعت السيف فيكم**..» فتولّى القوم عن البقيع)[1].

والذي يذهب إليه البحث كما هو ظاهر الأثر الوضعي لدى المحققين: أنّها دفنت في بيتها عند النبي صلى الله عليه وآله.

أما ما صنعه أمير المؤمنين.. فيمكن القول إن صحّ ذلك إنّه عليه السلام جعل هذه القبور تغطية على الموضوع لا أكثر، ولا أقل.

وانتشر نبأ دفن الزهراء سرّاً، وضجّ الناس وتلاوموا حتّى روى ابن رستم الطبري قائلاً: (ضجّ الناس ولام بعضهم بعضاً، وقالوا: لم يخلّف فيكم

(١) الكليني، الكافي: ١/٤٥٩، المجلسي، مرآة العقول: ٥/٣٢٩.

نبيّكم إلاّ بنتاً واحدة، تموت وتدفن! ولم تحضروا وفاتها ولا دفنها، ولا الصلاة عليها، ولم تعرفوا قبرها فنزورها)[١].

وذكر أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد في كتابه (الكامل)[٢] أنّ علياً تمثل عند قبر فاطمة:

لكلّ اجتماعٍ من خليلين فرقةٌ وكلُّ الذي دون الفراق قليلُ
وإنّ افتقادي واحداً بعد واحدٍ دليلٌ على أن لا يدومَ دليلُ

والناس يروونه:

وإنّ افتقادي فاطماً بعد أحمدٍ

وهكذا رواه الحاكم في المستدرك.

وقال القاضي ابن قريعة (ت ٣٦٧هـ) يذكر دفن الزهراء سرّاً:

ولأيّ حال لحّدت بالليل فاطمة الشريفهْ
ولما حمت شيخيكمُ عن وطئي حجرتها المنيفهْ
آهٍ لبنتِ محمدٍ ماتتْ بغصّتِها أسيفهْ

قال السيد الشريف الرضي (ت ٤٠٦هـ):

(١) المحدث البحراني، عوالم العلوم: ٢٩٢، والبحار: ٤٣/٢١٢.
(٢) الإربلي، كشف الغمة: ٢/١٣١.

وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال عند دفن سيدة النساء فاطمة عليها السلام؛ كالمناجي به رسول الله صلى الله عليه وآله عند قبره، قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«السلام عليك يا رسول الله عنّي، وعن ابنتك النازلة في جوارك، والسريعة اللحاق بك ! قلّ يا رسول الله عن صفيتك صبري، ورقّ عنها تجلّدي، ألا إنّ في التأسي لي بعظيم فرقتك، وفادح مصيبتك موضعَ تعزٍّ. فلقد وسدتك في ملحودة قبرك؛ فإنّا لله وإنا إليه راجعون ! فقد استرجعت الوديعة، وأخذت الرهينة! أمّا حزني فسرمد، وأمّل ليلي فمسّهد، إلى أن يختار الله لي دارك التي أنت بها مقيمٌ. وستنبئك ابنتك بتضافر أمتّك على هضمها. فأحفها بالسؤال، واستخبرها الحال، هذا ولم يطل العهد، ولم يخلُ منك الذكر. والسلام عليكما سلام مودّعٍ لا قالٍ، ولا سئم؛ فإن أنصرف فلا عن ملالة، وإن أقم فلا عن سوء ظنّ بما وعد الله الصابرين»[1].

وكانت هذه العبارات الحزينة من كلام أمير المؤمنين، تعبيراً عن مدى حزنه العميق على سيدة النساء.. وفيها إشارات صريحة عن مظلوميتها.

وعاد عليٌّ عليه السلام إلى البيت المفجوع بسيّدته الأولى، وعطف عليه ولديه الحسن والحسين عليهما السلام وعقيلة بني هاشم زينب.. وأم كلثوم وهي زينب الصغرى.. ومعهم فضة خادمة الزهراء عليها السلام، وانطوى ذلك العلم الخافق، وغاب ذلك البدر اللامع.. وتلاشت الآمال.. وتبدّدت الأماني.. وغمرت البيت وحشة لا توصف.

(١) الإربلي، كشف الغمة: ٢/ ١٣١.

بقي التحقيق في تاريخ استشهاد الزهراء عليها السلام أرواحنا لها الفداء، وقد اختلفت الروايات في تاريخ وفاتها على أقوال:

١ ـ توفيّت عليها السلام بعد أربعين يوماً من وفاة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله سنة إحدى عشرة من الهجرة[١].

٢ ـ توفيت لثلاث عشرة ليلة خلت من ربيع الأخر، ليلة الأحد[٢].

٣ ـ توفيّت لعشر بقين من جمادى الآخرة[٣].

٤ ـ توفيّت بعد سبعين يوماً من وفاة أبيها[٤].

٥ ـ والذي عليه عمل الأصحاب وهو المشهور عندهم أنّها توفيّت في الثالث من جمادى الآخرة سنة إحدى عشرة.. وهو المروي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام[٥].

٦ ـ وذهب آخرون أنّها توفيّت بعد ستة أشهر من وفاة أبيها[٦].

وربما كان هذا الاختلاف موجباً لتجديد ذكراها بمثل هذه التواريخ من كلّ عام.. وهناك روايات أخر أقلّ شهرة مما ذكرنا.

---

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٢٦٥/١٠.
(٢) الأصبهاني، مقاتل الطالبيين: ٣١، المجلسي، بحار الأنوار: ٣٩٧/٢٨.
(٣) محسن الأمين الحسيني العاملي، أعيان الشيعة: ٣١٩/١.
(٤) المصدر نفسه: ٣١٩/١.
(٥) النوري، مستدرك الوسائل: ٣٦١/٢، جامع أحاديث الشيعة: ٣١٨/٣.
(٦) الكليني، أصول الكافي: ٤٥٨/١.

والذي عليه الإمامية أنّ عمرها الشريف كان ثمانية عشر عاماً، إذ ولدت في السنة الخامسة من البعثة النبوية المباركة، وتوفيّت في السنة الحادية عشرة من الهجرة[١].

وهكذا طويت صفحة الكرامة الإنسانية المشرقة.. وشيّعت الزهراء بالدموع والحسرات.. وقد بقي أثرها صادعاً في سجلٍ حافلٍ من الأمجاد.. وظلّ صوتها مدوّياً في الآفاق.

(١) ابن كثير، السيرة النبوية: ٣/٣٨٥، البحار: ٢٨/ ٣١٢.

قصائد المؤلّف في الزهراء

١ ـ أنشودة الزهراء عليها السلام

٢ ـ في مولد الزهراء سيدة النساء.

٣ ـ ميلاد الزهراء عليها السلام

٤ ـ البضعة الزهراء بنت محمدٍ.

٥ ـ ظلامة الزهراء عليها السلام

أنشُودَةُ الزَّهْراءِ عليها السلام

رَفَّ عَلَيْها العَلَمْ فَهْيَ مَنارُ الأُمَمْ
ثابتةٌ في الخُطَى راسِخَةٌ في القَدَمْ
(فاطمةٌ) بِنْتُ مَنْ أزالَ عَنَّا الظُلَمْ
واللهُ في فَضْلِهِ عَلَّمنا بالقَلَمْ
أنْقَذَنا مِنْ ردًى أوْجَدَنا مِنْ عَدَمْ
نَوَّرَنا بالهُدَى حَرَّرنا بالقِيَّمْ
وابْنَتُهُ حُرَّةٌ كُلُّ بَنيها عَلَمْ
أوْدَعَ في نَسْلِها ذُرِيَّةً لَمْ تُرَمْ
هُمْ نُجُومُ الدُّجَى واللُؤْلُؤُ المُنْتَظَمْ
أشْرَفُ مَنْ قَدْ مَشَى وطافَ حَوْلَ الحَرَمْ
أئمَّةٌ لَمْ يَزَلْ تاريخُهُمْ في سَنَمْ
أثارُهُمْ في الذُّرَى هَلَّا رَأيْتَ الهَرَمْ؟
أفْواهُهُمْ بالحَجَى ألْسِنُهُمْ بالحِكَمْ

أخْلاقُهُمْ كالنَّدى أكُفُّهُمْ كالدِّيَمْ
سادَةُ كُلِّ الوَرى قادَةُ كُلِّ الأُمَمْ
واعَجَباً.. أنَّنا في حُبِّهِمْ نُتَّهَمْ
هاتيكَ أكْرُومَةٌ وتلْكَ إحْدى النِّعَمْ

* * *

بِنْتُ نَبِيُّ الهُدَى زَوْجَةُ لَيْثِ الأُجُمْ
أمُّ هُدَاةِ المَلا مِنْ عَرَبٍ أوْ عَجَمْ
كُنْيَتُها تَزْدَهي بالحَسَنِ المُحْتَرَمْ
وبالحُسَيْنِ الذي سَنَّ الإبا والشَّمَمْ
(زَهْرَاءُ) مِثْلُ اسْمِها غَرَّاءُ مِثْلُ العِصَمْ
أسْفَرَ في ضَوْئِها بَدْرُ السَّما وابْتَسَمْ
وانْشَقَّ لَيْلُ العَمَى عنْ أيِّ فَجْرٍ عَمَمْ
طارَ بِها مَجْدُها إلى عَوالي القِمَمْ
أمُّ أبيها التي (لَوْ خَفِيَ النَّجْمُ لَمْ)
إنْ نَطَقَتْ مَثَّلَتْ لِسانَ صِدْقٍ وفَمْ
وإنْ مَشَتْ جَسَّدَتْ ذاكَ القِوامَ الأتَمْ
قد صاغَهَا اللهُ مِنْ جَوْهَرَةٍ في القِدَمْ
واجْتَمَعَتْ عِنْدَها شمائلٌ مِنْ كَرَمْ

صَـــوَّرَهـــا مِـثْـلَـمـا يُـريـدُ بـاري الـنَّـسَـمْ
فـاكْـتَـمَـلَـتْ آيَـةً مِـنَ الـعُـلـى والـعِـظَـمْ
قُـدْسِـيَّـةً بَـرَّةً بـهـا الـكـمـالُ اسْـتَـتَـمْ

* * *

يـا أمَّـةً أخْـفَـقَـتْ عِـنْـدَ امْـتـحـانِ الـذِّمَمْ
وديـعـةُ المُـصْـطَـفـى فَـريـسَـةٌ لـلـسَّـقَـمْ
سَـيِّـدَةٌ لـلـنِّـسـا تَـشْـكُـو ازْوِرارَ الخَـدَمْ
يـا لَـهْـفَ نَـفْـسـي على شَـبـابِـهـا المُـخْـتَرَمْ
وغُـصْـنُـهـا قَـدْ ذَوَى وحَـقُّـهـا يُـهْـتَـضَـمْ
وقَـدْ زَوَوْا إرْثَـهـا وفَـيْـئُـهـا مُـقْـتَـسَـمْ
لَـجَّ بِـهـا غـاصِـبٌ جـارَ عَـلَـيْـهـا الحَـكَـمْ
فـمـا رَعَـوْا قَـدْرَهـا بَـلْ اسْـتـبـاحُـوا الحُـرَمْ
لَـوْ أنْـصَـفُـوا شَـأنَـهـا مـا غَـصَـبُـوهـا ولَمْ
الـعَـيْنُ مُحْـمَـرَّةٌ والـضِّـلْـعُ بـادي الـوشَـمْ
والـقَـلْـبُ في مُجْـمَـرٍ مِـنَ الـشَّـجُـونِ اضْـطَـرَمْ
نـامَ طَـواغِـيـتُـهـا لـكِـنَّـهـا لَمْ تَـنَـمْ
ظُـلامَـةٌ تَـشْـتَـكـي أوْزارَ مَـنْ قـدْ ظـلَـمْ

كــمْ جُــرِّعَــتْ مِــنْ أذًى وأثْــقِــلَــتْ مِــنْ ألَمْ
وقــدْ قَــضَــتْ غُــصَّــةً تُــديــفُ دَمْــعــاً بــدَمْ
مــا رُوعِــيَــتْ بــالحَــجى بــلْ رُوِّعَــتْ بــالــغُــمَــمْ
وكــانَ أوْلى بِــهِــمْ لَــوْ أنَّــهــا تُحْــتَــشَــمْ
لــكــنَّــهَــمْ أوغَــلُــوا بــالــبَــغْــيِ حــتّــى احْــتَــدَمْ
وأشْــعَــلُــوا فِــتْــنَــةً لــلــحَــشْــرِ مِــنْــهــا ضَــرَمْ
أُصِــبْنَ أسْــمــاعُــهُــمْ مِــنْ صَــوْتِــهــا بــالــصَّــمَــمْ
كــأنَّمــا خــاطَــبَــتْ طــاغِــيَــةً، أوْ صَــنَــمْ
فــاسْــتَــسْــلَــمَــتْ للقَضا ظــافِــرَةً بــالــعَــدَمْ

١/ ١١ ــ/١٤٢٠ هــ = ٧/ ٢/ ٢٠١٠

في مَوْلِدِ الزَّهْراءِ سيدة النساء

ألقيت في الاحتفال الأكبر الذي أقامه شباب مدينة الكاظمية المقدّسة في حسينية الأفغان بمناسبة ميلاد سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء بنت النبي العظيم محمّد ﷺ بتاريخ ٢٢ / ٦ / ١٣٨١هـ / ١ / ١٢ / ١٩٦٢.

أكــذا تَـشــعُّ أبــاطِـحٌ ويـقــاعُ ... لمّــا اسْـتَتَمَّ بــهــاؤُكِ اللمَّاعُ
لمّا اسْتَتَمَّ، وُلِـدْتِ نَجْماً ثاقِباً ... رجَمَ الدُّجَى بسهامِهِ الإشْعاعُ
وبَـزَغْـتِ شَمْساً للعَقيدةِ حُـرَّةً ... الأُفْـــقُ طَـمَّــاحٌ بـهـا نَــزَّاعُ
تَسْتَقْبلُ الـتـاريـخَ لا غَرْبيةٌ ... تَكْبُو، ولا شَرْقيةٌ تَنْصاعُ
تَهْدي الطَّريقَ التائهينَ، إذا دَجَا ... خَطْبٌ، وزَمْجَرَ للشُّكُوكِ صِرَاعُ
هـيَ مِـنْ تُـرَاثِـكَ شُعْلَةٌ وضّاءةٌ ... لا بـــارقٌ بوميضِهِ خَــدّاعُ
تَزْهُو بها هذي البقاعُ، وتَزْدَهي ... فيها الرّباعُ، وتَشْرقُ الأصْقاعُ

* * *

يا مَوْلِدَ الـزَّهْـراءِ.. سَيْراً للعُلى ... قُدْماً، يُواكِبُ زَحْفَكِ الإسْراعُ
طالعتَنا، ونَجَـمْـتِ في آفاقِنا ... والـهَـوْلُ حَــدَّاءٌ بنا زمَّــاعُ

خَفَّفْتِ مِنْ آلامِنا، ونَهَضْتِ في أرْواحِنا، فتلاشَتْ الأوْجاعُ
ووهَبْتِ مِنْ عَلْياكِ كَنْزاً، لا الرَّدى يفنيهِ، فهو مُنَوَّرٌ ممراعُ
وأعِدْتَ للزَّهْراءِ عَهْداً نَيِّراً تَزْدَانُ فيهِ خَلائقٌ وطِباعُ
تَعْنُو القُلُوبُ لَهُ، وتَسْجُدُ حَوْلَهُ غُرَرُ العُقُولِ، وتَسْكرُ الأسْماعُ
فأريجُهُ مِنْ رُوحِها مُتَعطِّرٌ وعَبيرُهُ مِنْ طِيبِها ضَوَّاعُ
تَسْري مَعَ الأجْواءِ، وهيَ نوطقٌ بصَدَى البتُولِ كأنَّها مِذْياعُ

* * *

يا بَضْعَةَ المُختارِ.. عَفْواً إنْ نَبا كَلِمٌ، وقَصَّرَ مِقَوَّلٌ ويَراعُ
أيُّ المعاني السَّائراتِ أصُوغُها وبأيِّ لَحْنٍ يَعْذُبُ الإيقاعُ
ولأنْتِ أنْتِ، وكُلُّ مَعْنًى رائعٍ مما أفَضْتِ نتاجَهُ الإبْداعُ
وأبُوكِ بَنْدُ الدِّينِ، ما وجمتْ بِهِ رُوحٌ، ولا رَجَفَتْ لَهُ أضْلاعُ
قد حَطَّمَ الطُّغْيانَ طَوْراً، فارْتَمَى للأرْضِ، وهْوَ مُزَلْزَلٌ مُرْتاعُ
ودعا إلى الإسْلامِ لَمْ تَعْلُقْ بِهِ شُبَهٌ، ولا رِيَبٌ، ولا أطْماعُ
صَلدَ الجَنانِ، أعابَ رُؤيا أُمَّةٍ الشِّرْكُ مِتْلافٌ لها مِضْياعُ
فأقامَ للتَّوْحيدِ دِيناً قَيِّماً نَطَقَ اللسانُ بِهِ، وصالَ الباعُ
يَزِنُ الحقائقَ.. لا مبادي طُغْمَةٍ هيَ والضمائرُ تَشْتري وتُباعُ

* * *

البضْعةُ الـزَّهْـراءُ صَـوْتٌ هـادرٌ مِنْهُ الطُغاةُ مَدَى الزَّمانِ تُـرَاعُ
هَـزَّتْ كيانَ الظالمينَ، فخانَهُمْ دَجَـلٌ، وخارَ تَذَبْذُبٌ وخداعُ
وأرتْـهُـمُ أنَّ الحقيقةَ مُـرَّةٌ ووراءَ كُـلِّ ظُـلامَـةٍ أشْـيـاعُ
ثـارَتْ لِعِزَّتِها ، وأنْ هيَ زَمْجَـرَتْ تِلْكَ السِّياطُ، وشدَّتِ الأنْساعُ
وتَجَرَّعَتْ غُصَصاً وإنْ هيَ أفْصَحَتْ عمّا تجـنُّ.. شمائلٌ وطِباعُ
وتمـايَـزَتْ غَـيْـظاً لأنَّ تُـرَاثَـهـا نَـهْـبٌ، وأنَّ حُقُوقَها أوْزاعُ
وتُـدالُ نِحْلَتَها، وإنْ هيَ ثُبِّتَتْ شَرْعاً، وتَغْصبُ إرْثَها الأطْماعُ
حتّى إذا انْقَضَتْ المآربُ وانْجَلَتْ تلكَ الرَّغائبُ، واسْتُبيحَ مِتاعُ
جَلَسَتْ رهينةُ بَيْتِها حتّى ذَوَى غُصْنٌ، وأجْـدَبَ مَرْبَعٌ بمُـراعُ
ماتَتْ.. ولكنْ حينَ قَصَّرَ ساعِدٌ وانْهَدَّ زَنْـدٌ، واسْتُجذَّ ذِرَاعُ
ومَضَتْ شَهيدة وجْدِها للقائِهِ والمُـتَّـقُـونَ إلى اللقاءِ سِـرَاعُ

***

يا أُمَّـةَ الإسْلامِ حَسْبُكِ رُؤْيَـةَ الـ ـأسْلامِ فينا.. ما لَـهُ أتْباعُ
قد عـادَ سِلْعَةَ بائعٍ مرْفوضةً وتجـارةً جَـوْفـاءَ لا تُـبْـتـاعُ
يَرْمي بألفِ خُرَافةٍ مِنْ بَعْضِها الإرْهـابُ والطُّغْيانُ والإقطاعُ
الـذَّنْـبُ ذَنْـبُ المسلمينَ؛ لأنَّهُمْ أمَـرَ الدَّعيُّ الأجْنبيُّ أطاعُوا
تَـرَكُوا كتابَ اللهِ خَلْفَ ظُهُورِهِمْ وفضائلَ الدِّينِ الحَنيفِ أضاعُوا

جَرْياً ورَاءَ مَطامعٍ تَحْـدُو بها الـ ـشَّهَواتُ والرَّغباتُ والأوْلاعُ
والعَقْلُ والإجماعُ يَدْعَمُ دينَنا أيُعافُ هذا العَقْلُ والإجماعُ؟
والدينُ نِبْرَاسُ النُّهَى وسِلاحُهُ الـ ـإ يمـانُ، لا قُضْبٌ ولا أدْراعُ
وإذا عَـدَتْ بالطارئاتِ عَواصِفٌ وتَـشَـيَّـدَتْ للنائباتِ قِـلاعُ
فالمَفْزَعُ الإسْلامُ، وهْوَ إذا طَغَتْ هَوجُ الرَّزايا.. قائدٌ وشُجاعُ
وكـذاكَ ديـنُ محـمَّـدٍ ونِـظـامُـهُ في المَشْرقينِ.. عقيدةٌ ودِفـاعُ

* * *

يا أيُّها الحَفْلُ المَوَجَّهُ.. ما الذي أشْكُو إليكَ.. وللخُطُوبِ قِرَاعُ
ماذا نُحَدِّثُ والحديثُ كما رَوَوْا شَجَنٌ، وبعضُ القَوْلِ لا يُسْطاعُ
دالَ الزَّمانُ بنا، فمزَّقَ شَمْلَنا وسطَ الخَنا، وتَهَرَّتِ الأوْضاعُ
وعلى الشُّعُورِ مِنَ الرَقابةِ بُرْقُعٌ وعلى العُقُولِ مِنَ الخُمُولِ قِناعُ
أشْكُو إليكَ مَهازلاً عُقِدَتْ لها في الرَّفِدَيْنِ.. مَعاهِدٌ ورِبـاعُ
فالطائفيةُ مـا يَـزَالُ يُثيرُها هَمَجٌ تَوَاصَلَ كَيْدُهُمْ ـ ورَعاعُ
والعُنْصُرِيَّةُ ما يَـزالُ يُديرُها لَـغَـطٌ يَـهُـدُّ كيانَنا ونِـزَاعُ
والفوضَويَةُ ما تَـزَالُ كأمْسِها يَغْزُو البلادَ وباؤُها الهَمَّاعُ
ومـبـاديءٌ تَخْتارُ سُمَّ ميُولِها مما اصْطَفى مُسْتَعْمِرٌ طَمَّاعُ
والأمْـرُ لَيْسَ بكفِّنا.. إذْ أنَّنا مُلْكٌ بكفِّ الأجْنَبيِّ مُشاعُ

* * *

ومُنافقينَ على النِّفاقِ تَمَرَّسُوا وتَعَوَّدُوا، فكأنَّهُ اسْتِمْتاعُ
لَزِمُوا النِّفاقَ عَقيدةً وشَريعةً فلَهُمْ لِواءُ حَوْلَهُ وشِراعُ
لقد التَقَوْا.. والدِّين قَصْدُ سِهامِهِمْ وأظُنُّ أنَّ الالتقاءَ وداعُ
بَعْضٌ على حُبِّ الظُّهُورِ، وبعضُهُمْ بالزُّورِ مَشَّاءٌ لَهُ مِسْماعُ
بَيْنا تَراهُ مُداهِناً.. وإذا بِهِ وسطُ المعابدِ ساجِدٌ ركَّاعُ
يَتَفَنَنُ التَّضْليلَ، وهْوَ وقَدْ مَشَتْ فيهِ التَّفاهةُ مُفْتَرٍ وضّاعُ
وإذا نَظَرْتَ إليهِ خِلْتَ سماحةً ومِنَ الوقاحَةِ حَدُّهُ قَطَّاعُ
وتَظُنُّهُ رِيشَ النَّعامَةِ مَلْمَساً وإذا دَنَوْتَ، فعقْربٌ لسّاعُ
سَيَظَلُّ هذا الدَّاءُ يَعْبَثُ فاتِكاً وسِلاحُهُ التخْريبُ والأطْماعُ
حتَّى يُعَرِّى كُلَّ باغٍ مثْلَما عَرَّى اللصُوصَ مِنَ الصَّباحِ شُعاعُ

***

ومُثَقَّفينَ.. على الثقافةِ أُقْحِمُوا ظُلماً، ولا عِلْمٌ، ولا اسْتطلاعُ
مَعْنى الثقافةِ عِنْدَهُمْ أنْ يَنْتَشي بالخَمْرِ عَقْلٌ للهَوَى تَبَّاعُ
فهُمْ عُطاشى للخُمُورِ وشُرْبِها وهُمُ لمائدةِ الفُسُوقِ جِياعُ
وهُمُ لأنَّ اللهَ ذمَّ طباعَهُمْ لَؤُمَتْ لَهُمْ نَفْسِيَّةٌ وطباعُ
أشْبَعْتُهُمْ بالوعْظِ.. حتّى مَلَّني هَيْهاتَ يَنْفَعُ مُدْمِناً إشْباعُ
مَنْ لا يُقيمَ العَقْلَ مِيزاناً لَهُ يُرْديهِ ثمَّةَ عاصِفٌ زَعْزاعُ

يـا أيُّـهـا المـتـمـدِّنُـونَ.. أهكذا تُخزى الدِّيارُ، وتَخْجَلُ الأصْقاعُ
كذبَ التمدُّنُ زائفاً، إنْ لمْ يَكُنْ للشَّعْبِ فيهِ تَوَحُّدٌ وجماعُ
لا، لنْ تُغْرر بالصُّفُوفِ مَهازلٌ وفَمُ العَقيدةِ هادرٌ طبَّاعُ
ثُوبُوا إلى العَقْلِ السَّليمِ ولازِمُوا الـ ـدِّينَ العظيمَ، فشَرْعُهُ مِطْواعُ
ونِظامُهُ مُتَجَدِّدٌ متحرِّرٌ وطَريقُهُ مُتَنَوِّرٌ مِهْياعُ

مَيلادُ الزَّهراء

نظمت في ذكرى ميلاد سيدة نساء العالمين فاطمة بنت رسول الله ﷺ وذلك في ٢٠ / جمادى الآخرة ١٤١٦هـ = ١٤ / ١١ ـ/ ١٩٩٥م.

سَـكَـرَتْ بـلا خَـمْـرٍ ولا أقْـداحِ وسَرَتْ بلا قَبَسٍ، ولا مِصْباحِ
وشَـدَتْ بـلا وتَـرٍ ولا قِـيـثـارةٍ في يَوْمِ مَوْلِدِكِ الأغَـرِّ الضَّاحي
وتَحَرَّرتْ هذه القُلُوبُ مِنَ الأسَى وتَـنَـوَّرَتْ بجَبينِكِ الوضَّاحِ
بالطَّلْعَةِ الزَّهْراءِ يَخْشَعُ عِنْدَها نَجْمُ السِّماءِ، وكَوْكَبُ الإصْباحِ
بِنْتُ النَّبيِّ، وتلكَ أعْظَمُ نِسْبَةٍ جاءتْ بلا كُلَفٍ، ولا استيضاحِ
نسبٌ يَشُعُّ عليهِ مِنْ رأدِ الضُّحى فجْرانِ مِنْ غُرَرٍ، ومِنْ أوضاحِ
شَرفانِ يأتلقانِ ما عَسَفَ الدُّجى في النَّاسِ، أوْ هَبَّتْ عَصُوفُ رياحِ
شَـرَفُ الـنُّـبـوَّةِ يقْتَفي آثـارَهُ شَرَفُ الإمامةِ في هُـدًى وفلاحِ
وهُما قدْ اجْتَمعا ببضْعَةِ أحْمَدٍ كتجمُّعِ الأزْهـارِ في الأدْواحِ

***

يا مَوْلِدَ الـزَّهْـراءِ كُنْتَ ولَمْ تَـزَلْ رمْـزَ الخُـلُـودِ بظِلِّهِ المِمراحِ

العالَمُ العُلْويُّ في تَرْنيمِهِ والكَوْكبُ الأرْضيِّ في أفْراحِ
وحَضيرةٌ للقُدْسِ يَعْرجُ عِنْدَها الـ ـأمْلاكُ في تَبْكيرةٍ ورَواحِ
والنَّجْمُ زاهٍ، والكواكبُ تزْدَهي والفَجْرُ يَعْبقُ بالشَّذا الفَوَّاحِ
والصُّبْحُ يَحْتَضِنُ المُروجَ مُنَوَّراً والليلُ يَزْخَرُ بالنَّدى النَّضَّاحِ
وتَنَفَّسَتْ رئةُ الزَّمانِ وأُبْدَلَتْ أنْفاسُها الصُّعَداءُ بالأرْواحِ
وتَعَطَّلَتْ شُهْبُ السَّماءِ عَنْ السُّرَى وزهَتْ بكوْكبِ نُورِكِ اللمَّاحِ
وتَمَخضَتْ تلكَ البشائرُ فانْجَلَتْ عَنْ طَلْعَةِ الزَّهْراءِ في الأشْباحِ

* * *

وُلِدَتْ كريمةُ أحْمَدٍ فترَنَّحَ الـ ـتَّاريخُ في زَهْوٍ، وفي أسْماحِ
وتَجَلَّتِ الزَّهْراءُ في عَلْيائِها تَختالُ بَيْنَ مَـ ـَّـةٍ وصَلاحِ
للهِ دَرُّكِ كمْ حَمَلْتِ رسالةً بالآيِّ ناطقةً وبالألواحِ
وتألَّقَتْ مِنْكِ الفضائلُ جَمَّةً كتألُّقِ الأسْيافِ يَوْمَ كفاحِ
يَوْماكِ: يَوْمُ هُدًى، ويَوْمُ سِلاحِ ويَدَاكِ: كَفُّ نَدًى، وكفُّ سَماحِ
ويَدَتْ عَلَيْكَ شمائلٌ مِنْ بعْضِها أرَجُ النَّسيمِ، ونَفْحَةُ القُدَّاحِ
النافذاتُ إلى القُلوبِ رَوائعاً والمُنْعشاتُ رواكدَ الأرْواحِ
والدَّائراتُ معَ النُّجومِ سَوَافِراً والمُهْدياتُ الليل أيّ صَباحِ
و(العادياتُ) مَعَ النِّضالِ ضَوابحاً و(المُرْسلاتُ) العرفُ في الإفْصاحِ

و(النَّازعاتُ) مِنَ الطُّغاةِ غَوَارقاً و(المُورياتُ) القَدْحَ في صَحْصَاحِ
والسَّائراتُ مَعَ الظَّلامِ كَوَاكباً والعائداتُ مَعَ الصَّباحِ الصّاحي
عظُمَتْ وليدةُ أحْمَدٍ وتكرَّمتْ مِنْ أنْ تُطالَ بسُؤْدَدٍ وطَماحِ

* * *

شَمختْ بمَوْلِدكِ السِّنينُ وهَلَّلَتْ لِبنيكِ في كَـرَمٍ، وفي أطْماحِ
وتَـرَنَّمَـتْ بـأبـي الأئـمَّـةِ حَيدرٍ في كُـلِّ سابقةٍ لَـهُ ومـراحُ
الـفـارسِ المِـغْـوَارِ في وثْـبـاتِـهِ وثَبَاتِهِ، والقائدِ الجَحْجاحِ
وبتلكُم الجَمَرات يَسعرُ وقْدُها في فتْيَةٍ بيضِ الوُجُوهِ صِباحِ
الـقـادةِ العُظماءِ في إقْـدامِـهِـمْ يَوْمَ الوغى، والسَّادةِ الأقْحَاحِ
الناصحينَ لدينِهِمْ وضَميرِهِمْ في حين قد خمُدَتْ رُؤى النُّصَّاحِ
والواهبينَ حياتَهُمْ لِشُعُوبِهِمْ فهُمُ شُخُوصٌ في النَّدى والرَّاحِ
والخائضينَ مِنَ الحُـرُوبِ غِمارها نُـزلاءُ بـينَ أسـنَّـةٍ وصِفاحِ
والـنـابـهـينَ عـبـادةً وفـقـاهـةً والحاملينَ رسالةَ الإصْـلاحِ
قادُوا السَّفينةَ للخَلاصِ بحكْمَةٍ في حين قدْ أعْيَتْ على المَلاَّحِ
وتَـدَاركُـوا ديـنَ النَّبيِّ بـثـوْرَةٍ ما بَيْنَ حَدِّ ظُباً، وقصْفِ رماحِ
صَبَرُوا على ظُلْمِ الطُّغاةِ فبُوُؤا بجنائنَ غـرّ الـظِـلالِ فساحِ
وأثـابَـهُـمْ عنْها الخُـلُـودُ كرامةً تَسْمُو بأكْليلٍ لها ووشاحِ

* * *

وظُـلامـةُ الـزَّهْـراءِ تَجْـأرُ للسَّما ... بضجيجِها المُتَدافعِ المِلْحاحِ
جُرحَتْ كَرامَتُها، وأيُّ وديعةٍ ... قِيسَتْ بما قاسَتْ مِنَ الأتْـراحِ
غَضَّتْ عُيُونُ مُهاجرينَ عَنِ القَذَى ... وتَـذَرَّعَ (الأنْصارُ) بالأسْجاحِ
ومَشَى (أمـيرُ المؤمنينَ) بمحنَةٍ ... مَنَعَتْهُ عَنْ حَقٍّ لَدَيْهِ صراحِ
وتَـقَـيَّـدَتْ حَـرَكـاتُـهُ بوصِيَّةٍ ... أوْدَتْ بكاهِلِ صَبْرِهِ المُلْتاحِ
فمَضتْ بغُصَّتِها تَسيغُ مَـرَارةً ... بصريخِ مُنْتَهبِ الحُقُوقِ مُباحِ
ما أنْصَتُوا لشَكاتِها، كلا ولا ... اسْتَمَعُوا لحجَّةِ نُطْقِها الفَضَّاحِ
لا النِّحْلةُ العَصْماءُ في (فَدَكٍ) ولا ... المـيراثَ في سُنَنِ الهُدَى بمتاحِ
فكأنَّها قد خُصِّصَتْ بشَريعةٍ ... حُجبَتْ عُمُومَ الذِّكْرِ والأصْحاحِ
حتّى إذا عَصَفَ الذُّبُولُ بغُصْنِها ... وذَوى نَضيرُ شبابِها الفَيَّاحِ
ذَهَبُوا بداعي العُذْرِ عَنْ هَفَواتِهِمْ ... دَعْوى مُسَيْلمةٍ وكذبُ سَجاحِ

البضعة الزهراء بنت محمد

تماثل الشاعر للشفاء ببركة سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء عليها السلام بعد إجراء عمليتين جراحيتين على يد الطبيب الإنساني الدكتور ماهر خليل حسين أستاذ الجراحة العامة والشرايين في مستشفى الجامعة الأمريكية ببيروت.

فكانت هذه القصيدة وفاءً بالعهد للزهراء عليها السلام:

لـكِ في الـفـؤادِ مـنـازلٌ وعواطفُ ... والعبدُ سيّدتي ببابكِ واقفُ
يرجُو النجاةَ على يديكِ كرامةً ... دنياً.. وآخـرةً.. فظلّك وارفُ
لي في هــواك قـصــائـدٌ مختــارةٌ ... غنّى بها غَــردٌ.. وهـوّم عازفُ
وعــلاكِ يحتضنُ الخلودَ مواكباً ... وهُداكِ مزدهرٌ.. ونورك خاطفُ
يغشى العيونَ بهالةٍ قدسيّةٍ ... فيهبُّ مكروبٌ.. ويأمنُ خائفُ
وكـــذاك آلُ محـمـد أطـروحـــةٌ ... يحيا بها عقلٌ.. ويكبو قائفُ
كالبحر يقذفُ باللئالي موجهُ ... والغيث موصولُ النّدى مترادفُ

* * *

بنتُ النبيّ محـمـدٍ.. والقلعةُ ... الشّمّاء.. والركبُ المهيب الزاحفُ

وسليلة الشرف الرفيع.. وحسبها مجدٌ على طول المدى ومواقفُ
ومسيرةٌ غرّاءُ في جبهاتها رقمت سطورٌ للهدى وصحائفُ
يغنى الزمانُ.. وما يزالُ دويُّها حيّاً.. ومنبعُها المرقرقُ ناطفُ
تستقبلُ الأجيالَ في آثارها فيشعُّ معروفٌ.. ويقبسُ عارفُ
كفؤُ الإمام.. ولم يكن كفؤاً لها إلاّهُ.. والمعنى تليدٌ طارفُ
أمجادُ (حيدرةٍ)، وعزّةُ (أحمدٍ) وفضائل (الحسنين) وهي معارفُ
جمعت بجوهرةٍ تولّى صُنعَها ربُّ السّماء.. فما يقولُ الواصف

* * *

البضعةُ الزهراء بنتُ محمدٍ ولها الأصالةُ.. والإباءُ الهادفُ
وغداً على الأعراف يعرضُ فضلها في الخافقين مؤالفٌ ومخالفُ
وعلى (الصراط) تمرُّ وهي مصونةٌ فتُغضُّ أبصارٌ، ويخشعُ طارفُ
وهناكَ تلتقطُ المحبّ.. ففائزٌ بشفاعةٍ.. أو بالولاية هاتفُ
وكلاهما في جنّة قد ذللت بقطوفها.. فليهنَ ذاك القاطفُ
ولدى الحسابِ ستستجدُّ حقائقٌ وتطيحُ بالظلمِ الغشوم عواصفُ
سيحاسبُ المتآمرون على الهدى ويفيقُ طاغيةٌ.. ويصحو عاسفُ
وتعدُّ في يوم القيامة فجأةً للظالمين قواصمٌ وقواصفُ

* * *

ظلامة الزهراء عليها السلام

أَرقْتَ وهَيَّجْتَ الأسى والبواكيا وقدكُنْتَ في منأًى عَنِ الوجْدِ قاصيا
أشاقَكَ رَبْعٌ.. أمْ تَصَبَّاكَ مَنْزِلٌ فَلَيْتك مَنْسياً غَدَوْتَ وناسيا
بلى هَيَّجَ الذكْرى، وأجَّجَ جَمْرَها مَصائبُ للزَّهْراءِ.. هَدَّتْ كيانيا
مَصائبُ للزَّهْراءِ أذْكتْ جَوانحي وأحْيَتْ تَباريحي وأدْمَتْ فُؤاديا
أرُوحُ وأغْدُو مُثْقلاً بهُمُومِها أعيدُ القَوافي.. أوْ أجيدُ المراثيا
وأذْكُرُ بالليلِ البهيمِ مُصابَها فيمْلأُ بالشَجوِ الحزينِ صَباحيا
واسْتعظِم الأحْداث عِنْدَ سَماعِها أشَكِّكُ في سَمْعي وإنْ كُنْتُ صاغيا
فأصبحُ مَكْرُوباً.. وأُمْسي مُعذَّباً وأنْدُبُ مَغْمُوماً.. وأنْشُدُ ناعيا
فيا صَدْرَها الدامي أثرتَ لواعجاً ويا طَرْفَها الهامي، أسَلْتَ مآقيا
سليلةُ بيتِ الوحي.. بنتُ محمّدٍ وبَضْعَتُهُ خَلْقاً وخُلْقاً مُضاهيا
إذا ما مَشَتْ تَحْكي كريمَ قِوامِهِ وإنْ نَطَقَتْ خِلْتَ النَّبيَّ مُناديا
لَها إرْثُهُ عِلْماً وحِلْماً وحِكْمةً ونُبْلاً وفَضْلاً والصِّفاتِ التَواليا
هُوَ البحْرُ مِنْ أيِّ الجهاتِ قَصَدْتَهُ مُطِرْتَ سَحاباً، أو قُذِفْتَ لئاليا

١٥ جمادى الأولى ١٤٢٩هـ

خاتمة المطاف

بعد هذه الجولة المباركة في ميادين الزهراء المؤثرة.. واستقراء تاريخها الجهادي المشرق..ومتابعة انفتاحها الاجتماعي على الأمة بعدّة مؤشرات نابضة.. وقيادتها للمعارضة السلمية جدلاً واحتجاجاً وبراهين.. واندماجها في خضمّ الأحداث المتلاحقة.. وصدارتها في النكير الهادف من خلال خطبها البليغة وصوتها الهادر.

وماتضمّن كلّ ذلك من استكناه الوجه الآخر للزهراء عليها السلام في تفصيلات دقيقة.. وما استنبطنا من عظمة سلوكها الرصين في الخلق والأدب والوعي.. وما انطبعت عليه شخصيتها الفذّة من التكامل الذاتي في الجوهر لا العرض.. وما سارت به الركبان من كيانها الأمثل الفريد على لسان الروايات الصحيحة والأسانيد المعتبرة عند الجمهور والإمامية، رأينا:

١ ـ في الفصل الأول لدى بزوغ فجر الإسلام تلك الحياة الحسنى في النشأة بظلّ رسالة مقترنة بأسرار الزهراء المستودعة.. ومتّسمة بالرسول الأعظم خَلْقاً وخُلقاً ومنطقاً، ولمسنا براعم ذلك الفيض الإنساني المتدفق في الإيثار وحبّ الخير، وإعانة ذوي الاحتياج والفاقة في نموذج عالٍ بظواهر

الزهد والورع والتقوى.. مطلاً على مباهلة نصارى نجران.. وكانت الزهراء عليها السلام وحدها تمثل في اشتراكها بها العنصر النسوي.. كرامةً لها.. واعتداداً بها.. وحديثاً سائراً عنها.. بما قطع دابر المتزلفين.. وانتزع اعتراف حتّى المعاندين.. ومن ثمّ بدا كيان الزهراء متألّقاً بمكانتها المرموقة بإطار من الإجلال والتقديس بعشرات الأحاديث الشريفة.. ومقتضيات الأحوال الناطقة بمنزلتها الكبرى في مجالات القول والفعل والعمل.. ومتوجّة بآية التطهير وسورة الإنسان وسواها في العصمة والتزكية والإنفراد بخصائص ذاتية أشار إليها البحث بإيجاز دون الاستقصاء.. وتحدّث عنها بنماذج دون الاستيعاب.

وكان هذا الفصل المكثّف قد اختصر الطريق أمام الباحثين.. وأعطى الضوء الأخضر لمن أراد المزيد من نفحات ذلك الحقل العامر بأزاهير حياة العاملين لله وحده.. والناهضين بعبء الإبلاغ العظيم.

٢ ـ وكان الفصل الثاني معمّقاً ببحوثه في خضمّ الأحداث الكبرى التي عاشتها الزهراء ناصعة الجبين.. معتصرة القلب.. كاظمة الغيظ. وما رافق ذلك من الأراجيف الهائلة التي منيت بها في عمرها المختطف جرّاء تلك الأعاصير.

وكان انفتاح الزهراء عليها السلام على الأمة يفوق حدّ التصور؛ لذلك المجتمع المتخاذل.. فكانت خطبتها العصماء في المسجد النبوي صاعقة غير متوقعة.. أرادت بها حفظ التوازن الإسلامي من وجه.. ورصد التجاوزات اللامشروعة

من وجه آخر. . وإعادة الحق المغتصب إلى ذويه. . كان ذلك في لغة احتجاجية صلبة سيّرت الأدلة والبراهين من الكتاب والسنة. . مما أتاح للبحث الكشف عن قيمة تلك الخطبة في الأداء والأهداف والأسباب التي أدّتْ إليها. .فضلاً عن أهميتها الفنية في عوالم البلاغة العربية. . وقد اشتملت على دعوى الزهراء في فدك والإرث وسهم ذوي القربى. . وكانت دعوى صادقة دون شكّ. . مشروعة دون ريب. . واضحة لا لبس فيها ولا إبهام.

ولم يخامر الحاكمين أيّ ريب في صدقها إطلاقاً. . ولكنّهم أغمضوا مكابرةً على ذلك وفق خطّة سياسية محكمة. . .

وكانت الدعوى ذات هدف رسالي مهدت له الزهراء عليها السلام بالحق المالي المنصوص عليه قرآنياً. . . لتنتقل إلى القضية الكبرى التي نذرت نفسها لها. . وهي منصب الولاية الإلهية. . وأحقيّة أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام فيها بداهةً ونصّاً، وسيرة، ومشاهد، وتركيباً إنسانياً لا يختلف به اثنان. . ولم يكن ذلك بوحي عاطفي أو بملحظ أسري. . ولكنه الوظيفة الجهادية الشرعية التي اعتمدتها الزهراء. .

وقد كان من الممكن أن يتناسى المسلمون تلك الحقيقة لولا معاودة الزهراء بإثارتها في الخطب والأحاديث والنكير المستمر؛ مما أوجد حالة من الاستنفار في الأفكار؛ لاستيعاب شرعية ذلك الحقّ المضاع، وضرورة العودة به إلى أهله الفعليين.

٣ ـ وكان الفصل الثالث غنياً بأصالة قيادة الزهراء الرسالية دون كلل أو ملل.. وهي تتصدر المعارضة في وقتٍ كمّت به الأفواه، وخمدت الأنفاس إلاّ صوتها المجلجل في سماء المعركة.

وكان لبيت الزهراء موقعه من البحث في جانبين:

الأول: من حيث رفعته ومنزلته وروحانية قداسته فيما أفاض به الرسول الأعظم ﷺ من الإشادة فيه حيناً.. ومن التوجه إليه سفراً وحضراً للسلام والتوديع على ساكنيه حيناً آخر.. ومن الاعتداد بحرمته القطعية في كلّ الأحوال.

الثاني: ما جرى لهذا البيت من الظلامة والاعتداء وانتهاك الحرمات في كلّ تفصيلاتها الهوجاء.. مما أدّى إلى غضب الزهراء عليها السلام على القوم.. شكواها إلى ربّها.. وعدواها إلى أبيها.. حتى أغلقت جميع الأبواب عن التراجع.. وسُدّت كلّ المنافذ للتنازل عن ذلك الغضب الخلاّق.

وكان تأثير الزهراء عارماً في الآفاق، وعامراً في القلوب.. والآفاق والقلوب حاضرة العالم الإسلامي كلّه.. فكان الشعور بالذنب.. والاعتراف بالتقصير.. والتهافت بالأعذار.. والتباكي على المصير.. فلا دافع ولا مانع.. إلاّ انطلاق قلّة من الرساليين بالمقاطعة إلى حين.. والاحتجاج قدر المستطاع ما وجدوا إليه سبيلاً.. نتيجة إصرار الزهراء الصلب.. ومواقفها الحازمة في الميدان.. مما جعل المسلمين يتساءلون سرّاً وعلانية عن هذا الزخم المطّرد من

النكير.. فتحرّكت بعض العواطف.. فأنكر من أنكر.. ولاذ بالصمت آخرون.. ولكنّ لهيب الاحتجاج ظلّ مشتعلاً في ضرام.. وصدى فاعلية الزهراء بقي يشقّ عنان السماء.. لاسيّما عند وبعد اجتماع نساء المهاجرين والأنصار في عيادة الزهراء؛ وما فجّرته فيه بخطبتها الصريحة من الشؤون والشجون حتّى طبّق الحدث المفصل.

وكان لهذه الخطبة الغرّاء صدًى عند الرجال، وصدًى عند النساء.. والتقى هذا الصدى بذاك.. فكان الاعتذار التواكلي فيهما، والحديث التخاذلي لهما.. ولم تقبل الزهراء ذلك.. فالمفروض غير هذا.. وقد فات الأوان.

وكانت هذه الخطبة قد اقتصرت على استنكار تنحية أمير المؤمنين عن قيادة الأمة وإدارة شؤون الدولة.. وهو الهدف المركزي الأول في توجّه الزهراء الريادي، حتّى إذا استكملت الزهراء وظيفتها.. وأدّت واجبها على النحو الأتم.. اعتزلت القوم.. وأعلنت المقاطعة.. فكانت جليسة بيتها.. وقد تناهبتها الأمراض الجسدية، وعركتها الآلام النفسية.. وإذا اجتمعا فقد دنا الموت.. وقد عرضنا أسباب تلك الأمراض وعوارض تلك الآلام.. وفي اللحظات الأخيرة رفضت استقبال من ظلمها بشتّى أنواع المظالم.. أو استقبلت غاضبةً ساخطة من انتهك حرمتها وبيتها فيما جرى عليها وعليه.. حتى استشهدت.

وقد أوصت الإمام علي عليه السلام بدفنها سرّاً.. ومنع حضور أحدٍ من القوم المعنيين في التشييع أو الصلاة أو الدفن.. ونفّذ أمير المؤمنين الوصية.. وتلت ذلك اعتراضات وتهاويل وقف منها أمير المؤمنين موقف الحذر الحازم.. وكان للزهراء ما أرادت، ودفنت في بيتها في أغلب الظنّ.. وربّما كان الدفن في الروضة بين القبر والمنبر.

ولدى تكامل البحث أورد المؤلّف قصائده الخمس في تحيّة الزهراء ورثائها وظلامتها.. وهي تعبير حيّ عن الولاء الخالص.

راجياً من الله تعالى قبول الأعمال. وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

النجف الأشرف

جامعة الكوفة محمد حسين علي الصغير

المصادر والمراجع

١ ـ خير ما نبدأ به القرآن الكريم.

٢ ـ ابن الأثير / علي بن أبي الكرم الجزري (٦٣٠هـ)

ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة، القاهرة ١٣٨٠هـ.

٣ ـ ابن الأثير / أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري (٦٠٦هـ):

ـ جامع الأصول من أحاديث الرسول، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٤ ـ الإربلي / علي بن عيسى بن أبي الفتح (ت ٦٩٢هـ):

ـ كشف الغمّة في معرفة الأئمة، مطبعة النجف، النجف الأشرف.

٥ ـ البخاري / محمد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦هـ):

صحيح البخاري، المطبعة الأميرية الكبرى، بولاق، القاهرة، ١٣١٤هـ.

٦ ـ البلاذري أحمد بن جابر بن يحيى (ت ٢٧٩هـ)

ـ أنساب الأشراف، مطبعة دار المعارف، مصر، ١٣٥٩هـ.

٧- البيهقي / أبو بكر أحمد بن الحسين (ت ٤٥٨هـ)

ـ السنن الكبرى، طبع الهند، ١٣٤٤هـ.

٨- الترمذي / محمد بن عيسى بن سورة (ت ٢٧٩هـ)

ـ سنن الترمذي، نشر المكتبة الإسلامية، القاهرة (د. ت).

٩- الجاحظ / أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ):

ـ رسائل الجاحظ، الرسالة العباسية، تحقيق: حسن السندوبي، المطبعة الرحمانية، القاهرة، ١٣٥٢هـ

١٠- جعفر مرتضى العاملي (من علماء لبنان)

ـ مأساة الزهراء، دار المسيرة، بيروت، ١٩٩٧م.

١١ ـ جواد الفيومي

ـ صحيفة الزهراء، طبعة قم المقدسة.

١٢ ـ حافظ إبراهيم (١٣٥١هـ) (الشاعر المصري المعروف)

ـ الديوان، دار الكتب المصرية، القاهرة.

١٣ ـ الحاكم النيسابوري / أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت ٤٠٥هـ)

ـ المستدرك على الصحيحين، طبعة الهند، ١٣٤٢هـ، ودار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١١هـ .

١٤ ـ ابن حجر / أحمد بن محمد بن علي الهيثمي المكي (٩٧٣هـ):

ـ الصواعق المحرقة، دار الطباعة المحمدية، القاهرة، ١٣١٢هـ.

١٥ ـ ابن حجر / أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ):

ـ لسان الميزان، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٤٠٦هـ).

١٦ ـ ابن أبي الحديد / عبد الحميد بن هبة الله المدائني (ت ٦٥٦هـ)

ـ شرح نهج البلاغة للإمام علي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، سنة ١٩٥٩م، ودار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٩٥٩م.

١٧ – الحر العاملي / محمد بن الحسن (ت ١١٠٤هـ)

ـ وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، مؤسسة آل البيت لأحياء التراث، قم، ومؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.

١٨ – الحر العاملي (نفسه)

ـ إثبات الهداة، المطبعة العلمية، قم، ١٤٠٤هـ.

١٩- الحسكاني / عبيد الله بن أحمد الحاكم الحسكاني

ـ شواهد التنزيل، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٣٩٣هـ.

٢٠- الحمويني / إبراهيم بن محمد الجو يني (ت ٧٣٠هـ)

ـ فرائد السمطين، مؤسسة المحمودي، بيروت، ١٤٠٠هـ.

٢١ ـ ابن حنبل / أحمد بن حنبل الشيباني (٢٤١هـ)

ـ مسند أحمد، دار صادر، بيروت، (د. ت).

٢٢ ـ الخوارزمي / أبو المؤيد الموفق بن أحمد المكي (ت ٥٦٨هـ)

ـ مقتل الحسين، مطبعة الزهراء، النجف الأشرف، ١٣٦٧هـ.

٢٣ ـ الديار بكري / حسين بن محمد الديار بكري (ت ٩٨٢هـ)

ـ تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس، مؤسسة شعبان للتوزيع والنشر والطباعة، بيروت (د. ن).

٢٤ ـ الديلمي / الحسن بن محمد الديلمي (ت ٧٧١هـ):

ـ إرشاد القلوب، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٣٩٨هـ.

٢٥ ـ الذهبي / شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ):

ـ سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٦هـ.

٢٦ ـ الرازي / فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين (ت ٦٠٦هـ)

ـ مفاتيح الغيب، دار الطباعة العامرة، استانبول، ١٣٠٧هـ.

٢٧ ـ الراوندي / سعيد بن هبة الله الكراكجي (ت ٥٧٣هـ)

ـ الخرائج والجرائح، دار الأضواء، بيروت، ومؤسسة الإمام المهدي، بيروت، ١٤١١هـ.

٢٨- الزمخشري / محمود بن عمر (ت ٥٣٨هـ):

ـ الكشاف عن حقائق التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت.

٢٩- الزمخشري (نفسه)

ـ ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، تحقيق: د. سليم النعيمي، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٨٢هـ.

٣٠- ابن سعد / محمد بن سعد بن منيع البصري (ت ٢٣٠هـ)

ـ الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت، ١٣٨٨م.

٣١ ـ سليمان كتاني:

ـ فاطمة الزهراء.. وَتَرٌ في غمد، مؤسسة الوفاء، الطبعة الثالثة، بيروت، ١٩٨٣م.

٣٢ ـ سليم بن قيس الهلالي الكوفي (ت ٩٠هـ):

كتاب سليم، تحقيق: محمد باقر الأنصاري، مؤسسة الهادي، ١٤١٥هـ.

٣٣ ـ السيوطي / جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ):

ـ الجامع الصغير، ملتزم الطبع عبد الحميد حنفي، مصر.

٣٤ ـ الشبلنجي / مؤمن بن حسن الشافعي (من علماء الرابع عشر)

٣٥ ـ نور الأبصار في مناقب آل النبي المختار، مطبعة عاطف، القاهرة، ١٣٨٤هـ.

٣٦ ـ ابن شهراشوب / محمد بن علي المازندراني (ت ٥٨٨هـ):

ـ مناقب آل أبي طالب، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، ١٣٧٥هـ.

٣٧- الشهرستاني / محمد بن عبد الكريم (ت ٥٤٨هـ):

ـ الملل والنحل، مطبعة عيسى البابي الحلبي، مصر، ١٤١٠هـ.

٣٨- ابن الصباغ / علي بن محمد المغربي المالكي (٨٨٥هـ)

ـ الفصول المهمة في معرفة الأئمة، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، ١٣٨١هـ.

٣٩- الصدوق / محمد بن علي بن الحسين القمي (٣٨١هـ)

ـ الأمالي، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، ١٣٨٩هـ.

٤٠- الصدوق (نفسه)

ـ علل الشرائع، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، ١٣٨٥هـ.

٤١ ـ الصدوق (نفسه)

ـ من لا يحضره الفقيه، تحقيق السيد حسن الموسوي الخراساني، مطبعة النجف، النجف الأشرف، ١٣٧٧هـ.

٤٢ ـ الصفدي / خليل بن أيبك (ت ٧٦٤هـ):

ـ الوافي بالوفيات، طبعة بيروت، ١٤٠٤هـ.

٤٣ ـ الطباطبائي / محمد حسين

ـ الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٣٩٣هـ.

٤٤ ـ الطبرسي / أبو علي الفضل بن الحسن (ت ٥٤٨هـ)

ـ مجمع البيان في تفسير القرآن، مطبعة العرفان، صيدا، ١٣٣٣هـ.

٤٥ ـ الطبرسي / أحمد بن علي بن أبي طالب (٥٨٨هـ)

ـ الاحتجاج، دار النعمان، النجف الأشرف، ١٣٨٦هـ.

٤٦ ـ الطبري / أحمد بن عبد الله (ت ٦٩٤هـ):

ـ ذخائر العقبى، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٤هـ.

٤٧- الطبري / أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ)

ـ تاريخ الأمم والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٣م.

٤٨- الطبري / محمد بن جرير بن رستم (من أعلام المئة الرابعة):

ـ دلائل الإمامة، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، ١٣٨٣هـ.

٤٩- الطوسي / أبو جعفر محمد بن الحسن (ت ٤٦٠هـ)

ـ التبيان في تفسير القرآن، تحقيق: أحمد حبيب القصير، المطبعة العلمية النجف الأشرف، ١٩٥٧هـ.

٥٠- ابن طيفور / أحمد بن أبي طاهر البغدادي (ت ٢٨٠هـ)

ـ بلاغات النساء، دار النهضة الحديثة، بيروت، ١٩٧٢م.

٥١ ـ عبد الحسين أحمد الأميني:

ـ الغدير في الكتاب والسنة والأدب، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٣م.

٥٢ ـ ابن عبد ربه / أحمد بن محمد الأندلسي (ت ٣٢٨ هـ):

ـ العقد الفريد، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣٨٤هـ.

٥٣ ـ ابن عبد البر / يوسف بن عبد الله القرطبي (ت٤٦٣هـ)

ـ الاستيعاب في معرفة الأصحاب، مطبوع بهامش الإصابة، دار المعارف، مصر، ١٣٥٨هـ.

٥٤ ـ عبد المنعم الفرطوسي (من شعراء الطبقة الأولى في النجف الأشرف)

ـ ديوان الفرطوسي، الطبعة الثانية، مطبعة الغري الحديثة، ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م.

٥٥ ـ ابن عساكر / علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي (ت ٥٧١هـ)

ـ تاريخ دمشق، تحقيق: محبّ الدين أبي سعيد عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر، بيروت ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م.

٥٦ ـ علي الكوراني العاملي

ـ مقدمة الحقّ المبين للوحيد الخراساني، طبعة قم.

٥٧- عمر رضا كحالة

ـ أعلام النساء، المطبعة الهاشمية، دمشق، ١٣٩هـ.

٥٨- أبو الفداء / إسماعيل بن علي بن محمود الأيوبي (ت ٧٣٢هـ)

ـ تاريخ أبي الفداء، القاهرة، ١٣٢٥هـ.

٥٩- ابن قتيبة / عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦ ـ هـ)

ـ الإمامة والسياسة، تحقيق: طه الزيني، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٣٨٨هـ.

٦٠- القندوزي / سليمان بن إبراهيم الحنفي (ت ١٢٩٤هـ):

ـ ينابيع المودة، مطبعة اختر، استانبول، ١٣٠١هـ.

٦١ ـ ابن كثير / أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤هـ)

ـ البداية والنهاية، طبعة مكتبة المعارف، بيروت، ١٩٦٦م.

٦٢ ـ الكليني / محمد بن يعقوب الرازي (ت ٣٢٩هـ):

ـ أصول الكافي، المطبعة الإسلامية، طهران، ١٣٨٨هـ.

٦٣ ـ الكنجي / محمد بن يوسف الشافعي (ت٦٥٨هـ)

ـ كفاية الطالب في مناقب علي بن أبي طالب، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، ١٣٩٠هـ.

٦٤ ـ المبرد / محمد بن يزيد (ت ٢٨٥هـ):

ـ الكامل في الأدب، دار نهضة مصر، (د. ت).

٦٥ ـ المتقي الهندي / علي المتقي بن حسام الدين الهندي (ت ٦٧٥هـ)

ـ كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، طبع الهند، ١٣٨١هـ.

٦٦ ـ المجلسي / محمد باقر بن محمد تقي (ت ١١١١هـ)

ـ بحار الأنوار، مؤسسة الوفاء، بيروت، ١٤٠٣هـ.

٦٧- المجلسي (نفسه)

ـ مرآة العقول، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، ١٣٩٤هـ.

٦٨- محسن بن عبد الكريم الأمين العاملي (ت ١٣٥١هـ):

ـ أعيان الشيعة، دار التعارف، بيروت، ١٤٠٣م.

٦٩- محمد باقر الحكيم:

ـ الزهراء أهداف.. مواقف... نتائج، مؤسسة تراث الشهيد الحكيم، مطبعة العترة الطاهرة، النجف الأشرف، ٢٠٠٦م.

٧٠- محمد فاضل المسعودي / معاصر.

ـ الأسرار الفاطمية ، مؤسسة زائر الروضة، قم، ١٤٢٠هـ.

٧١ ـ محمد الحسين آل كاسف الغطاء (كبير علماء الشرق العربي والإسلامي)

ـ جنّة المأوى / الطبعة الأولى، النجف الأشرف.

٧٢ ـ محمد حسين علي الصغير (المؤلف)

ـ الإمام محمد الجواد، معجزة السماء في الأرض، مؤسسة البلاغ، بيروت، ٢٠٠٨م.

٧٣ ـ محمد حسين علي الصغير (نفسه)

ـ الإمام محمد الباقر، مجدد الحضارة الإسلامية، مؤسسة العارف، ٢٠٠٢ ـ م.

٧٤ ـ محمد حسين علي الصغير (نفسه)

ـ الإمام جعفر الصادق، زعيم مدرسة أهل البيت، مؤسسة البلاغ، بيروت، ٢٠٠٤م.

٧٥ ـ محمد حسين علي الصغير (نفسه)

ـ الإمام موسى بن جعفر، ضحية الإرهاب السياسي، مؤسسة البلاغ، بيروت، ٢٠٠٥م.

٧٦ ـ محمود أبو ريّة (من علماء الأزهر الشريف)

ـ شيخ المضيرة، الطبعة الثانية، صور، لبنان، ١٣٨١هـ.

٧٧- الشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي (٤٣٦هـ):

ـ الشافي في الإمامة، تحقيق: السيد عبد الزهراء الخطيب، مؤسسة الصادق، طهران، ط٢، ١٤١٠هـ.

٧٨- مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت ٢٦١هـ):

- صحيح مسلم، مطبعة محمد علي صبيح وأولاده، مصر، ١٣٣٤هـ.

٧٩- المسعودي / علي بن الحسين البغدادي (ت ٤٤٦هـ)

- إثبات الوصية، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف.

٨٠- المسعودي (نفسه)

- مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الأندلس، بيروت، ١٩٦٥م.

٨١- المفيد / محمد بن محمد بن النعمان البغدادي (ت ٤١٣هـ):

- الأمالي، منشورات جماعة المدرسين، قم، إيران.

٨٢- المفيد (نفسه)

- الإرشاد، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، ١٣٩٢هـ.

٨٣- المفيد (نفسه)

- الجمل، مطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، ١٣٨١هـ.

٨٤- المفيد (نفسه)

- الاختصاص، منشورات جماعة المدرسين، قم، إيران.

٨٥- المفيد (نفسه)

ـ المقنعة مطبوع ضمن سلسلة الينابيع الفقهية، الدار الإسلامية، بيروت ١٤١٠هـ.

٨٦ ـ المناوي / شرف الدين محمد بن عبد الرؤوف (ت ١٠٣١هـ)

ـ كنوز الحقائق، مطبوع بهامش الجامع الصغير، طبعة مصر.

٨٧- الميرزا محمد باقر الموسوي الخوانساري (ت١٣١٣هـ).

ـ روضات الجنات، المطبعة الحيدرية، ١٣٩٠هـ.

٨٨- أبو نعيم / أحمد بن عبد الله الأصفهاني الشافعي (ت ٤٣٠هـ):

ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣٨٧هـ.

٨٩- الهيثمي / علي بن أبي بكر (ت٨٠٧هـ):

ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٦٧م.

٩٠- الوحيد الخراساني (المرجع الديني المعاصر)

ـ مقتطفات ولائية، ترجمة: عباس نخّي، مؤسسة الإمام، الكويت، ١٩٩٦م.

٩١ ـ اليافعي / عبد الله بن أسعد اليمني (ت ٧٦٨هـ)

ـ مرآة الجنان وعبرة اليقظان فيما يعتبر من حوادث الزمان، مؤسسة الأعلمي، بيروت ١٣٩٠هـ.

الفهرس

الفصل الثاني

الزهراءُ في خضمّ الأحداث

الفصل الثالث

الزهراء.. تتصدّر المعارضة